سيرة

كليفورد وتنجام بيرز

العقل الذي وجَد نفسه

ترجمة: عبير الفقي



A Mind That Found Itself

Clifford Whittingham Beers

العقل الذي وجد نفسه

كليفورد وتنجام بيرز

ترجمة: عبير الفقي

صفحة





الكتاب

العقل الذي وجد نفسه

المؤلف

كليفورد وتنجام بيرز

الطبعة

الأولى : 2019

الترقيم الدولي

978-603-03-0333-5

رقم الإيداع

1440/ 7668

E-mail :admin@page-7.com

Website : www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان : الجبيل ، شارع مشهور

المملكة العربية السعودية



إهداء

إلى ذكرى عمّي «صامويل أيدوين ميروين» الّذي أعتقد أنّه أنقذ حياتي مرّات كثيرة بكرم بالغ، عمّي الّذي حرمني موته من فرصة مُرضية لإبداء شعوري بالامتنان.



كليفورد وتنجام بيرز

الفصل الأول



تُستَمدُّ هذه القصّة من وثيقة إنسانيّة تمامًا مثلما كانت موجودة من قبل، ولن يسهم شيء في قيمتها مثلما تسهمُ أصالتها وربّما يعودُ ذلك أيضًا إلى غرابتها. إنّها سيرة ذاتيّة، وأكثر: هي كذلك في جزء منها، لأنّها تحكي قصّة حياتي الّتي كان عليّ أن أربطها بتاريخ النّفس الأخرى الّتي كانت مهيمنة عليّ حينذاك في عمر الرّابعة والعشرين وحتّى عمر السّادسة والعشرين.

خلال تلك الفترة، كنت خلافا لما أنا عليه أو ما كنتُ عليه منذ ذلك الحين. ويمكن أن يُطلق على ذلك الجزء المتعلّق بسيرتي الذّاتيّة تاريخ حرب العقل الأهلية، الحرب الّتي خضتها بيدين عاريتين في ساحة المعركة الّتي كانت تدور داخل نطاق جمجمتي.

كان جيش من اللّامنطقيّة، يهاجم وعيي الخفي بإصرار وقسوةٍ، بأفكار مخيفة وغادرة تنتمي إلى عدوّ ظالمٍ، وكان على وشك تدميري لولا تجرّدهِ من سبب مقنعٍ ينتصر من أجلهِ، وفي النّهاية كانت إستراتيجية التّفوّق هي اليد الّتي أنقذتني من شخصيّتي الغريبة.

ولا أحكي قصّة حياتي لأستغلّها في تأليف كتاب، بل أسردها فقط بدافع الواجب الذي كان بالنسبة إليّ جليًا، فكل من الهروب الضّيّق

من الموت والعودة إلى مسالك الصّحّة العجائبيّة بعد مرض قاتل كافيان ظاهريًا لجعل الإنسان يسأل نفسه: لأيّ غرض نجوت بحياتي؟ هذا السّؤال الّذي طرحتهُ على نفسي، وهذا الكتاب هو بمثابة الإجابة عليه جزئيّاً.

ولدتُ بعد فترة قصيرة من غروب الشّمس منذ ثلاثين عامًا، حيث استقرّ أجدادي، سكّان إنجلترا الأصليّين في هذا البلد بعد فترة طويلة من إبحار «ماي فلاور» لأوّل مرة من ميناء بليموث. وبمرور الوقت، اختلطت دماء هؤلاء الأسلاف بالاتّحاد السّعيد بين رجل من الشّمال وامرأة جنوبيّة -والداي- الذين اختلطا نسبًا بالدّماء الأمريكيّة الحقيقيّة.

كانت السنوات الأولى من حياتي، في معظم نواحيها، لا تختلفُ عن تلك السّنوات الخاصّة بالأولاد الأمريكيين الآخرين، باستثناء أنّ الميل إلى القلق هو ما جعلها تختلف. وعلى الرّغم من صعوبة الأمر بالنّسبة إليّ، إلّا أنّني كنت خجولًا بشكل مؤلم. فحين أرتدي بنطالًا قصيراً، كنت أشعر بأنّ كل عيون العالم مثبتة عليّ، وكنت أهرب لأختبئ خلف قطع الأثاث المريحة أثناء وجودي في المنزل، وقيل لي إني كنت أتخفّى بالقرب من السّياج عندما كنت أسير في الشّارع. ومع خجلي، كان هناك قدر من الوعي الذّاتي الّذي جعل مكاني غير مناسبٍ في أيّ تجمّع عائليّ أو اجتماعيّ. فقد كنتُ قليل الكلامِ ويتملّكني المرض بمجرّد أن يتحدّث إليّ الآخرون.

ومثل العديد من الأطفال الحسّاسين والوحيدين بعض الشّيء، مررت بفترة وجيزة من الورع المرضيّ.

لقد هزم الفريق الّذي لعبت لصالحة في لعبة «القطّ العجوز»، وبالكاد فوق الرّقعة الّتي نصبت بالملعب ليقف عليها المتسابق، حقّقت نتيجة. بعد ذلك، حدث أنّ ضلّلتني وخدعتني وجعلتني أنظرُ إلى نفسي بمنظور المنتصر في هذه الدّنيا. فعدتُ وصحّحت هذا الغموض. وعندما عثرت على ميدالية قديمة أو عملة، مكتوب عليها عبارة، «**ضعوا عمل الظّلام جانبا وارتدوا درع النّور**»، كان لديّ شعور بأن اللّياقة البدنيّة تهان حينها. وكان يبدو لي أنّ استغلال المقدّسات وتدنيسها بهذه الطّريقة يمثّل عندي مشاعر وجدانيّة عالية، لذا أتلفت العملة المعدنيّة.

لقد حملت على عاتقي في وقت مبكّر، ذهنياً على الأقلّ، الكثير من الاهتمام والقلق تجاه من هم على مقربة منّي. وسواء كنت في هذا مختلفا عن غيري من الشّباب ممّن كان ينمو بداخلهم شعور بالمسؤوليّة على الرّغم من كونه شيء مثير للشفقة، فإنّني لم أشعر به. ولكن في حالتي، حدث الشّيء الأكثر تطرّفاً خلال فترة الكساد الاقتصادي ، أثناء تعرّض موارد العائلة للخطر. فقد بدأت أخشى أن يُقدِم والدي (الّذي كان رجلا مفعما بالأمل) على الانتحار .

وفي نهاية المطاف، لستُ متأكّدا من أنّ الجانب الآخر من طبيعتي – أي الصّبيانيّ الطّبيعيّ والصّحّيّ - لم يكن يتطوّر بالتّوازي مع تلك الميول الخجولة والمرعبة الّتي لم تكن شائعة بكثرة في مرحلة الطفولة. من المؤكّد أنّ الجانب الصّبيانيّ الطّبيعيّ كان أكثر بروزًا على السّطح، فقد كنت رياضيّاً جيّدا مثل أيّ فردٍ من أصدقائي اللّاعبين المشاركين في مثل تلك الألعاب، وكلّما سنحت الفرصة، كنت أذهب للصّيد. ولم

يعتقد أيّ من زملائي أنَّ خجلًا ما أصابني أو يأسًا مّا تملّكني. ولكن كان مردُّ ذلك إخفائي لمتاعبي لا شعوريًا تحت غطاء تمويهيّ من العبارات السّاخرة وروح الدّعابة، أو على الأقلّ ما كان يبدو لي أنّها روح دعابة أطلقها بين معارفي الأغرار. أمّا مع البالغين، فقد كنت أميلُ في بعض الأحيان إلى الوقاحة، وكانت درجة وقاحتي هذه تعتمد بلا شكّ على مستوى رغبتي في إظهار شعوري بالرّاحة من عدمه. وبسبب الحاجة المستمرّة لإظهارِ سعادة أشدّ مما كنتُ عليها من قبل، امتلكت موهبة قول الأشياء بطريقة مسلّية وأحيانا بطريقة مبهمة. أتذكّر ملاحظة واحدة أبدِيت منذ فترة طويلة قبل أن أتمكّن من سماع مالتوس أو فهم نظريّته المتعلّقة بمعدّل الولادات وإمدادات الغذاء. فنظرًا لكوننا عائلة كبيرة ذات خمسة أولاد من العائلة يمتلكون شهيّة غير محدودة وموارد على العكس من ذلك، كنّا نستخدم في كثير من الأحيان قطع اللّحم الرّخيص، ولقد كانت متساوية في القيمة الغذائيّة مع اللّحم الآخر. وذات مرة في طفولتي، كانت شريحة اللّحم الّتي أتناولها أشدَّ صلابةً من المعتاد، وكان ذلك دافعًا كي أشيرَ بإيجاز إلى مضمون نظريّة مالتوس قائلا: «أنا أؤمن بعدد أقلّ من الأطفال وبقطع لحم أفضل»!

قد يساعد القارئ ذكر حادثة أخرى من فترة طفولتي للتّعرّف على هويّتي أكثر. كنت في سنّ المراهقة المبكّرة عضوًا لمدة عام في جوقة الفتيان. ولو لم يكن صوتي حائلا أمامي لكنتُ قائد جوقة جيّد مثل جميع الأولاد المجيدين في الجوقة، كنت أتميّز بتلك السّلبيّة الّتي لا مناص منها في ردّ الفعل بعد أداء القداس أو البروفة.

وفي إحدى المرّات تجلّى هذا التّفاعل نفسه في معركة باللّكمات مع صبيّ جوقة آخر. على الرّغم من أنّني لا أتذكّر الوقت الّذي استمتعت فيه بالملاسنات الحادّة، لم تكن المواجهات البدنيّة تغريني في شيء، ولم أكن أنا من سعى إلى هذا الشّجار. لقد قادني المعتدي إلى ذلك. ولكن إذا لم أحظ بشرف المبادرة بالعراك، فمن الواجب على الأقلّ أن ألتزم المصداقيّة، لأنّ أحد المارّة أثناء الشّجار ذكر ملاحظة لم أنسها أبدا، إذ قال «كان على هذا الصّبيّ أن يبادر بالشّجار». وبعد حوالي اثنتا عشرة سنة، كنت المبادر، ولو رآني ذلك العابرُ في أيّ من تلك المناسبات العديدة لشعر بالرّضا. من المؤكّدِ أنَّ يقينا سيتملّكهُ بأنّه ذو قدرة على التّنبّؤ.

التحقت في السّن المعتادة بمدرسة لتعليم القواعد العامّة في نيو هيفن، كونيتيكت، حيث تخرّجت في عام 1891. وفي خريف ذلك العام، التحقت بالمدرسة الثّانوية في المدينة ذاتها، وأتممت الدّورات المدرسيّة بأقلّ قدر من المتاعب والتّميّز الدّراسيّ.

لقد تمكّنت دائما من التّرقّي الدراسي، وبكثير من الاستحقاق، وعلى الرّغم من أنّ القليل من أساتذتي أمدّوني بقدرة حقيقيّة على التّطوّر، إلّا أنّهم كانوا دائما قادرين على اكتشاف مقدرة معيّنة تكمنُ في داخلي، وكانوا يعتقدون أنّها قابلة للتّطور يومًا مّا، بما يكفي لأكفّ عن مشاكستهم.

عند التحاقي بالمدرسة الثّانويّة كان لديّ طموحات، مثل تلك الّتي تتملّك أغلب الطّلّاب. لقد تمنّيتُ إجراء الانتخابات في جمعيّة سرّيّة معيّنة، وتمنّيت أن أصبح مديرا لأعمال مجلة شهريّة تتكفّل تلك

الجمعيّة بنشرها، ونجحت في تحقيق تلك الطّموحات فعلًا. في مرحلة مّا من عمري غمرني حبٌّ مختلفٌ تجاه تلكَ الطّموحات. في الواقع، لقد قرّرت أن أجيدَ العزف على الغيتار بما يكفي حتى أكون مؤهّلًا لعضوية نادي بانجو، ولم يكن ذلك لغرض رياضيّ، ولكن حتّى أتأهّل نفسيّا لبلوغِ منصب المدير، الّذي انتُخبت من أجله فيما بعد.

بالنّسبة إلى الألعاب الرّياضيّة، لم يكن هناك سوى لعبة التّنس، الّتي كنت مهتمّا بها لما يميّزها من سرعة تتناسب مع مزاجي في الإرسال وفي الاستقبال. لذا كنت مولعًا بها. وفي ذلك الصّيف، لعبت ما لا يقلّ عن أربعة آلاف مباراة.

وبما أنّني كنت أتطلّع للعبة التّنس وكرّست لها وقتا أكثر من أيّ وقت كرّسه زملائي، لم يكن اكتسابي لمهارة كانت كافية للفوز ببطولة المدرسة خلال سنتي الأولى أمرا مفاجئاً. ولكنّ لم يكن هذا النّجاح لتفوّقي كلاعب، بل إلى ما اعتبرته معاملة غير عادلة في جزء منه. والحقيقة واضحة بشكل جيّد، إذ أنّ سمة معيّنة تكمنُ في شخصيّتي جعلتني جاهزًا تمامًا في أغلب الأوقات.

فقد كان من بين المتفرّجين على المباراة النّهائيّة للبطولة عدد من الفتيات. كنّ زميلات يعشن في الحيّ الّذي أقيم فيه، وكنّ يحسبن خطأً أنّني أتقمّص نوعا من الغرور الصّبيانيّ، شأنهنّ في ذلك شأن قلّة من النّاس. وعندما كنّا نمرّ ببعضنا البعض يوميّا تقريبا، كانت علامة اعترافنا المتبادل ببعضنا البعض، أنا وتلك المجموعة من الفتيات، هي النّظر في اتّجاه معاكس، في الوقت الّذي كان خصمي محبوبًا جدّا من قبل تلك المجموعة نفسها ويحصل على دعمهنّ التّامّ. ووفقا لذلك،

كنّ يهتفن للعبه الجيّد، وهو ما كان عادلا، لكن السيء هو أنّهن لم يهتفن ولم يشرن إلى طريقتي السيئة في اللعب، وهو ما أزعجني وجعل دمائي تفور، وبفضل تلك المجموعة الّتي كانت ستجعلني أخسر، فقد فزت.

في يونيو 1894، حصلتُ على شهادة إتمام الثّانويّة العامّة. بعد ذلك بفترة وجيزة، اجتزت الاختبارات في جامعة ييل. وفي سبتمبر التّالي التحقت بمدرسة شيفلد العلميّة، بدورة غير التّقنيّين. وكان الأسبوع الأخير من يونيو 1894 أحد أهمّ الأسابيع في حياتي، إذ حدث شيء غيّر مسيرتي تماماً، وكان السّبب المباشر لانهياري العقليّ ستّ سنوات لاحقا. وما يبعث على الأسى أنّه في بعض الحالات، ثمّة تجارب غريبة وممتعة يستند إليها هذا الكتاب. لقد كان هذا الحدث المؤثّر هو مرض أخي الأكبر، الّذي أصيب في أواخر يونيو 1894، بما كان يعتقد حينها أنّه مرض الصرع؛ لكن يمكن لبعض الأمراض أن تزعزع بيتاً وتصيب أعضاءه بالتّوتّر؛ فقد كان أخي يتمتّع بصحّة مثاليّة حتّى ذلك الوقت الّذي أصيب فيه بالمرض. ولمّا لم يكن هناك أيّ احتمال مطروح للصّرع، أو أيّ مرض مشابه، في أيّ فرع من فروع العائلة، فقد نزلت بنا المحنة مثل صاعقة من سماء صافية. قمنا بكلّ شيء ممكن كي يكون العلاج فعّالًا، لكن دون جدوى. وفي الرّابع من يوليو 1900، توفّي أخي بعد مرض استمرّ لستّ سنوات، أمضى سنتين منها في المنزل، وواحدة في رحلة إبحار حول العالم في قارب شراعيّ، ومعظم المتبقّي من الوقت في مزرعة بالقرب من هارتفورد. وأخيرا اتّفق الأطبّاء على وجود ورم في قاعدة الدّماغ، تسبّب في

مرضه ومن ثمّ موته.

كانت أولى فترة مرض أخي عندما كنت في الكلّيّة، وكان لديّ حينها من الوقت ما يكفي للتصرّف أكثر من بقية أفراد العائلة، ولهذا السّبب كنت أمضي معظم الوقت معه. وعلى الرّغم من أنّ نوبات المرض خلال السّنة الأولى كانت تقع أثناء اللّيل فقط، إلّا أنّ الخوف يتملّكني من فرضيّة حدوثها خلال النّهار وفي الأماكن العامّة، وهذا ما أثّر على أعصابي منذ البداية.

والآن إذا كان الأخ الّذي تمتّع بصحّة جيدة طوال حياته قد أصيب بالصّرع، فما الّذي يمنع من أن أصاب به أنا أيضا، مثلما حدث له؟ وكانت هذه الفكرة الّتي سرعان ما سيطرت على ذهني؛ إذ كلّما نظرت إليه أكثر، صرت أشدّ عصبيّة، وكلّما صرت عصبيّا أكثر، صرتُ أكثر اقتناعاً من أنّ انهياري مسألة وقت. وأنّهُ محكوم عليّ بما اعتبرته الموت حيّا. لقد فكّرت في الصّرع وحلمتُ به، آلاف المرّات خلال السّتّ سنوات الّتي استمرّت فيها هذه الفكرة المقلقة، وبدأ خيالي المفرط يجرّني إلى حافة هذا الهجوم المنتظر من المرض. ومازالت تلك المخاوف المبكّرة لم تتحقّق بعد في أيّ فترةٍ من لحظاتٍ حياتي .

كنتُ منزعجا بشدّة وخائفا لمدّة أربعة عشر شهرا في المرّة الأولى الّتي أصيب فيها أخي، ولكن لم يمرَّ القليل من الوقت حتّى بدأ انهيار أعصابي يتغلّب عليّ. أتذكّر ذلك بوضوح معَ حلولِ العطلة الدّراسيّة. حدث ذلك في نوفمبر 1895، خلال فصل إلقاء اللّغة الألمانيّة. وكانت تلك السّاعة في الفصل واحدة من أكثر السّاعات الّتي لم يسبق لي أن تعرّضت لها من قبل. بدا الأمر كما لو أنّ أعصابي قد تمزّقت إلى

عدد من الحزم المطّاطيّة الدّقيقة الّتي تمدّدت إلى ما بعد حدودها المرنة. ولو كانت لديّ الشّجاعة حينها لمغادرة القاعة لكنت فعلت، لكنّي جلست كما لو كنت مشلولًا حتّى موعد انصراف الفصل. لم أحضر الفصل الذي كانَ يسمّى «فصل الإلقاء» مرّة أخرى. لقد تابعت دراستي في المنزل، واجتزت امتحانات رتيبة مكّنتني من استئناف دراستي في يناير التّالي.

خلال الفترة المتبقّية من سنوات دراستي، كنت نادرًا ما أدخلُ قاعة الإلقاء حاملاً أيّ شعور آخر غير الرّعب، على الرّغم من أنّ التّأكيد المطلق بأنّني لن أكون مطالباً بالإلقاء قد خفّف إلى حدّ مّا من قلقي في بعض الفصول.

لقد تعامل معي الأساتذة الّذين أخبرتهم عن حالتي الصّحّيّة بعناية مستمرّة، ولكن على الرّغم من أنّني اعتقدت أنّهم لم يشكّكوا في صدق عذري، فقد كان من السهل إبقاؤهم مقتنعين لما يقارب ثلثي الفترة الّتي قضيتها في كلّيّتي. لم يكن عجزي عن القراءة راجعا إلى النّقص في التّحضير. وفي كلّ الحالات، كنتُ أشعر بآلاف الأحاسيس المختلطة والقلقة لحظة استدعائي مهما كانت جاهزيّتي، يصاحبها هاجس مداره أنّ الهجوم المرتقب الّذي كان تحت السّيطرة سيطرأ في خاتمة المطاف فجأة ويحرمني من كلّ شيء إلّا القدرة على القول إنّني "غير مستعدّ". كانت الأسابيع تمرّ دون تسجيلِ درجة أخرى غير الصّفر الذي كان يوضعُ مقابل اسمي أو أن يكون أمامه فراغٌ وهذا ما يشير إلى أنّه لم يتمّ استدعائي على الإطلاق. وفي بعض الأحيان، كان يصرّ أستاذ مّا على أن أقرأ كنوع من العدالة لنفسه وللطّلّاب الآخرين،

وفي مثل هذه الأوقات كنت أتمكّن من الحصول على ما يكفي من القراءات لأحافظ على مكاني في الصّفّ.

عندما التحقتُ بجامعة ييل، كان لديّ أربعة طموحات محدّدة. أوّلاً: إجراء انتخابات جمعيّة سرّيّة، ثانياً: أن أصبح واحدا من المحرّرين في «مجلة ييل» الفكاهيّة المصوّرة الأسبوعيّة، ثالثاً: (وهو ما ضمن نجاحي في تحقيق طموحي التّالي) إقناع شركائي بأحقيتي بمنصب مدير الأعمال، وهو المنصب الّذي سعيت إلى تحقيقه، ليس من أجل التّشريف، ولكن لأنّني اعتقدت أنّه سيمكّنني من كسب مبلغ من المال على الأقلّ يساوي تكلفة الرّسوم الدّراسيّة السّنويّة لجامعة ييل. رابعاً: (وهو ما كان الطّموح الرّئيسي) كان هو الفوز بالدّبلوم في الوقت المحدّد. وقد تحقّقت هذه الطّموحات الأربعة لحسن الحظّ.

عادة ما تكون حياة الفرد بالكلّيّة، في المجمل، هي أسعد أيّامه. غير أنّ معظم أيّامي في الجامعة لم تكن سعيدة. ومع ذلك أستعيدها برضا كبير لأنّني أشعر بأنّني كنت محظوظاً بما يكفي لاستيعاب ذلك العنصر غير الملموس رغم واقع وجوده، وهو المعروف باسم «روح جامعة ييل». وقد ساعدني هذا على إبقاء الأمل حيًّا في داخلي خلال اللّحظات الأكثر إحباطا. ومنذ ذلك الحين جعل تحقيقي لإنجازاتي يبدو سهلاً ومؤكدا .

الفصل الثاني

في الثّلاثين من يونيو 1897، تخرّجت من جامعة ييل. ولمّا أدركت أنّني مريض، فقد كان بوسعي أخذ راحة بالفعل. ولكن، أصبحت معتاداً، بطريقة مّا، على الصّعود والهبوط في الوجود العصبيّ. ولأنّني لم أستطع التّمتّع فعلًا بما يكفي من الرّاحة، فقد التحقت بعد ستّة أيّام من التّخرّج بوظيفة كاتب في مكتب مجمع الضّرائب في مدينة نيو هافن. كنت محظوظاً في الحصول على مثل هذه الوظيفة في ذلك الوقت، لأنّ ساعات العمل كانت قصيرة نسبيًّا وكان العمل على قدر من التّجانس بما يلائم تلك الظّروف.

لقد التحقتُ بمكتب الضّرائب فقط بقصد البقاء حتّى أتمكّن من الحصول على وظيفة في نيويورك، وبعد حوالي عام قمتُ بتأمين الوظيفة المطلوبة، لأتركها بعد مضيّ ثمانية أشهر، بغايةِ الحصولِ على وظيفة تتناسب مع رغباتي أكثر. فمن مايو 1899 وحتّى منتصف يونيو 1900، عملت كاتبًا في واحدة من أصغر شركات التّأمين على الحياة، وقد كان مكتبها على مرمي حجر ممّا اعتبره بعض النّاس مركز الكون. فالتواجد في قلب الحيّ الماليّ في نيويورك أمنية تتحقّق، طالما داعبت خيالي لتستحيل واقعًا، وكنتيجة للمثل العليا والمعدية في شارع المال وول ستريت، أصبحت شغوفا بصنع المال .

كنت راغباً في تذوّق حلاوة القوّة المريرة المكتسبة على أساس من الثّروة. وفي أوّل ثمانية عشر شهراً من حياتي في نيويورك، بدا لي أنّ وضعي الصّحّيّ ليس أسوأ ممّا كان عليه خلال السّنوات الثّلاث السّابقة، لكنّ الرّعب القديم تملّكني. استمررت في اختبار أيّام وأسابيع وشهور أكثر أو أقلّ عصبيّة. لكن في مارس 1900، حدث تغيير نحو الأسوأ. فلقد أصابني حينها هجومٌ حادّ أصابني بالعجزِ لمدّة أسبوعين. وكما كان متوقّعًا في مثل حالتي، فقد أخذ هذا المرض من حيويّتي الكثير، واستنزف طاقتي حتى بتّ فريسة اكتئاب مخيف تفاقم بمرور الأيّام ليكون مصيري الانهيار تماما في 23 يونيو 1900.

لقد بدت أحداث ذلك اليوم كارثيّة. ولكن من الواضح أنّ كلّ شيء كان يتّجه نحو الأفضل. ذلك ما خلصت إليه وأنا أعايش حالتي الّتي جعلتني أقطع الطّريق الّتي يقطعها الآلاف ولا يدركها إلّا القلّة. لقد واصلت أداء واجباتي الدّينية حتّى 15 يونيو، اليوم الّذي قرّرت فيه أن أتوقّف حالًا، بعد أن حملني مرضي على الاستسلام إلى اللّاعقلانية - المستبدّة عديمة الضّمير. قادتني سنواتي الخمس السّالفة بوصفي مريضًا عصابيًّا إلى الاعتقاد بأنّني قد اختبرت كلّ ما هو مثير للجدل من الأحاسيس الّتي يمكن أن يعاني منها النّظام العصبيّ المتوتّر المثقل بالأعباء. ولكن في هذا اليوم، استحوذت عليّ عدّة أحاسيس جديدة ومرعبة جعلتني بلا حول ولا قوّة. على الرّغم من ذلك، لم تكن حالتي واضحة حتّى لأولئك الّذين عملوا معي في المكتب نفسه. أتذكّر أنّني كنت أحاولُ التّحدّثَ وأجدُ نفسي أحيانًا غير قادر على التّعبير عن أفكاري. وعلى الرّغم من أنّني كنت قادرا

على الإجابة عن الأسئلة، فإنّ هذه الحقيقة بالكاد قد قلّلت شعوري بالخوف، لأنّ أيّ فشل في محاولة التكلّم كان سيجعل أيّ إنسان يشعر بالتّهديد، بغضّ النّظر عن حالته الصّحّيّة. لقد حاولت أن أقوم بنسخ بعض السّجلّات في العمل، ولكنّ يدي كانت غير مستقرّة للغاية، ووجدت صعوبة في قراءة الكلمات والأرقام بسبب من رؤيتي المتعبة والمشوّشة.

بعد ظهر ذلك اليوم، أدركتُ أنّ بعض الكوارث الفظيعة على وشك الحدوث، لكنّني لم أكن أعرف ما ستكون طبيعتها، فقد أقدمتُ على فعل غريب للغاية. لقد أعدمت بعض الجهود الأدبيّة المبكّرة الّتي فشلت في نشرها في جريدة الكلّيّة، وقد كنت لعدة سنوات شديد الاعتزاز بها. ثمّ إنّني بعد ترتيب سريع لأموري، أخذتُ قطار الظّهيرة المبكّر وسرعان ما كنتُ في نيوهيفن، وما جعلتني الحياة المنزليّة أفضل. فباستثناء ثلاث أو أربع جولات قصيرة، لم أغادر المنزل على الإطلاق حتّى 23 يونيو، عندما خرجت بطريقة غير عادية .

بالنّسبة إلى الأقرباء، لم أذكر سوى القليل عن حالتي الصّحّيّة، بما يتجاوز التّصريح العامّ بأنّني لم أشعر بما هو أسوأ من ذلك من قبل؛ وهي عبارة تعني الكثير عندما تقال من قبل شخص عصابيّ، لكنّها لا تثبت إلّا القليل. لخمس سنوات، تعرّضتُ فيها لتذبذب حالتي صعودًا وهبوطا، وبدأنا ننظر أنا وكلّ أقاربي إلى هذه الأمور على أنّها أشياء من المحتمل تصحيحها في الوقت المناسب.

بعد يوم من ذهابي إلى البيت، فكّرتُ بعقلي، أو بالجزء الّذي مازال منه تحت سيطرتي، واتّخذت قراري بأنّ الوقت قد حان للتّخلّي عن

العمل كلّيًا وأخذ راحة لبضعة أشهر؛ حتّى أنّني اتّفقتُ مع أخ أصغر أن يجهّز لي على الفور مكانًا هادئًا في الجبال البيضاء ، حيث كنت آمل أن أهدّئ أعصابي الممزّقة. شعرتُ في هذا الوقت كما لو أنّني أرتجفُ من الرّأس حتّى القدم، وكانت الفكرة الّتي تتكرّر باستمرار هي أنّني على وشك التّعرّض لهجوم الصّرع. وفي أكثر من مناسبة أخبرت أصدقائي أنّني أفضّل الموت على أن أعيش مصابا بالصّرع. ومع ذلك، إذا كنت أتذكّر بحقّ، لم أقم أبدا بإعلان الخوف الحقيقيّ الذي يسكنني بالقولِ إنَّ قدري يتمثّلُ في تحمّلُ مثل هذا الألم. على الرّغم من أنّ إيمانا جنونيّا كان يسكنني بحتمية المعاناة من الصّرع، فقد كنت أتمسّك بالأمل العاقل إلى درجة الاعتقاد أنّ عليَّ الهروب منه. وقد تكون هذه الحقيقة فاصلة في حياتي، قياساً بسنوات تحمّلي السّتّ.

في الثّامن عشر من يونيو، شعرتُ بألم شديد إلى درجة البقاء طريح الفراش حتّى ظهيرة الثالث والعشرين. خلال ليلة الثّامن عشر، أصبح فزعي المستمرّ معتقدا زائفا – وهماً، فما كنت أتوقع حدوثه منذ فترة صار واقعًا معاشًا. لقد صدقت نفسي وكنتُ على يقين بأنّني مصاب بنوبة صرع مؤكّدة، وأنّ تلك الإدانة كانت أقوى من أيّ قناعة في أيّ وقت مضى. في الحقيقة، كان نصف الحلّ الّذي وضع أمام ذهني مؤذياً، بمعنى أنّني قد أقتل نفسي بدلا من أن أعيش حياة أخافها، والآن تشتّت انتباهي بالاعتقاد أنّ السّكتة الدّماغيّة قد وقعت.

ومنذ ذلك الوقت، كانت إحدى أفكاري هي الإسراع بوضع نهاية، لأنّني شعرت بأنّه لا يجب أن أضيّع فرصة الموت قبل أن يجدني

أقاربي وأنا أعاني من نوبة صرع. بالنّظر إلى حالتي الذّهنيّة من جهة، وإلى عدم قدرتي على تقدير فداحة مثل هذه النّهاية، لأنني كنت نصف متبصّر، فإنّ هدفي الانتحاري لم يكن أنانيّا بالكامل. لأنّني أثبتّ أنّني لم أكن آخذ فكرة الانتحار على محمل الجدّ من خلال حقيقة أنّني لم أوفّر لنفسي وسائل تحقيق ذلك، على الرّغم من عادتي الّتي لوحظت منذ زمن من قبل أصدقائي عن قيامي بالاستعداد لحالات الطّوارئ غير المحتملة. وبقدر ما كان لي السّيطرة على زملائي في الكلّيّة، يجب أن أعترف أنّني فكّرت بتأنّ، وبكل معنى الكلمة، في الفعل المتسرّع الّذي أعقب ما لا يمكن بحال من الأحوال تسميته محاولة انتحار – إذ كيف لرجل أن يقتل نفسه إذا لم يكن هو نفسه؟

وسرعان ما انشغل عقلي المضطرب بخطط الموت. أتذكّر بوضوح واحدة من تلك الخطط، وقد تضمّنت صفّا من القوارب على جانب بحيرة ويتني، بالقرب من نيوهيفن. ذلك أنّني عزمت على أن آخذ أكثر القوارب تذبذباً، لسهولة انقلابها، وهو ما سيمنح الأقارب والأصدقاء عددا كافياً من الشّكوك سيكون كفيلاً بأن يزيح عن وفاتي وصمة العار المعتادة.

أتذكّر أيضاً أنّني بحثت عن بعض المخدّرات القاتلة ومنّيت النّفس أن أعثر عليها في المنزل. لكنّي لم أطمئنّ لحقيقة مفعولها، ثمّ فكّرت في قطع وريدي الوداجي، بل ذهبت إلى حدّ اختبار شفرة الحلاقة على حافّة رقبتي وبعد التّأكّد من النّبض القاتل اهتديت إلى المكان المناسب له. كنت أتمنى الموت حقّا ، ولكنّ تلك الطّريقة غير المؤكّدة والشّنيعة لم ترق لي. ومع ذلك، فقد شعرت أنّي قد أتمكّن في نوبة جنوني الهائلة

من إنجاز تلك المهمّة بالسّرعة اللّازمة وبما تتطلّبه من مهارة لأنهي في الحال كلّ متاعبي.

كانت هجماتي التخيّلية تتكرّر الآن بنوع من التشتت المتواتر، وكنت دائم الخوف من الاكتشاف. كنت نادرا ما أنام خلال هذه الأيّام الثّلاثة أو الأربعة على الإطلاق - حتّى الدّواء الّذي وصف لي للحثّ على النّوم كان ذا تأثير ضئيل. وعلى الرّغم من أنّني كنت أشعر بالدّوار، لم أعط أيّ إشارة عن حالتي. كان الهدوءُ يتملّكني وأنا أقضي معظم الوقت في الفراش، ونادرا ما كنتُ أتحدّث. لقد فقدت عمليّا، القدرة على الكلام، على الرّغم من أنّ الأمر لم يكن كاملاً؛ ولم يثر صمتي المستمرّ تقريبا الشّكوك حول خطورة حالتي.

من خلال عمليّة إقصائي، تخلّصت من كلّ الأساليب الانتحاريّة ما عدا واحدة كانت محور تفكيري. كانت غرفتي في الطّابق الرّابع من المنزل - من خمس - الّذي يعيش فيه والداي. كان المنزل يبعد عدّة أقدام عن الشّارع. وكانت حوافّ نوافذ غرفتي أكثر بقليل من ثلاثين قدما فوق الأرض، وأسفل كلّ واحدة من النّوافذ رصيف حجريّ يمتدّ من المنزل حتّى البوّابة الأماميّة. وأسفل الأخرى كانت ثمّة فتحة مدخنة الفحم مغطّاة بشبكة حديديّة ومحاطة برصيف عرض قديم متّصل برصيف حجريّ آخر، بطول مقدّمة المنزل، الحجر أو الحديد يملأ مساحة ليست أقلّ من عرض قدمين. لقد تطلّب الأمر القليل من الحسابات لتحديد مدى ضآلة فرص النّجاة من السّقوط عبر أيّ من تلك النوافذ .

عند الفجر تقريباً، اقتربت من إحدى النّوافذ وسحبت السّتائر،

ونظرت للخارج، ثمّ إلى أسفل. أغلقت السّتائر بهدوء قدر الإمكان ثمّ عدتُ مرّة أخرى إلى الفراش. لم أكن قد تجرّدتُ من مسؤوليّتي للدّرجة الّتي أتجرّأ فيها على القيام بالقفز من النّافذة. وبشقّ الأنفس سحبت الغطاء عندما دخلت إحدى القريبات لتتفقّدني في غرفتي، مدفوعة ربّما بهذا الشّعور النّابع من المحبّة، بواجب الحماية المتبصّرة. اعتقدت أنّ كلماتها تظهر شكوكها حول سماع صوت نافذتي وهي تفتح، ولكن مع حالة الصّمت التي كانت تتملّكني لم يكن لديّ الكثير من الكلام يمكنني به خداعها. فأي اعتبار يكون للحقيقة والحب عندما تنتفي الرّغبة في الحياة؟

سرعان ما تلاشى الفجر إثر شعاع نهار مثاليّ من شهر يونيو. لم أبدُ أكثر إشراقا، ولم أكن أكثر اكتئابا كي أستطيعَ العيش – أو تفضيل الموت. لقد ساعدَت طيور الربّان وتغريدها، تلكَ كانت خلال هذا الموسم تتواجدُ بوفرة في الحيّ، على ازدياد شعوري باليأس وجعلني أكثر رغبة في الموت. ومع مرور اليوم، أصبح عذابي أكثر حدّة، لكنّني تمكّنت من تضليل هؤلاء المقرّبين منّي بالتلفّظ بكلمة كلّ حين، والتّظاهر بعد ذلك بقراءة الصّحيفة، التي كانت بالنّسبة إليّ مبهمة وغير واضحة المعالم. كان عقلي في حالة تخمّر. كنت أشعر وكأنّ ملايين الإبر تخزه في حرارة بيضاء. لقد شعر جسدي كلّه بالتّمزّق بسبب الإجهاد العصبيّ الرّهيب الّذي كنت أخوضه. بعد فترة وجيزة من الظّهيرة، تمّ تقديم العشاء، ودخلت أمّي إلى الغرفة وسألتني إن كنت أريد بعض الحلوى فوافقت. لم يكن الأمر مرتبطا برغبتي في تناول الحلوى فقد كنتُ فاقدًا للشّهيّة. لكنّي تمنّيت أن تخرج من

الغرفة، لأنّني كنت أعتقد أنّني على وشك اختبار هجوم آخر. غادرت في الحال، وكنت أعرف أنّها في غضون دقيقتين أو ثلاث سوف تعود مرّة أخرى، وبدت الأزمة في متناول اليد. كان أمرُ انعتاقي آنيَّ التّحقق أو مطلقًا. كنت ربّما قد نزلت درجةً واحدة أو ثلاث من السّلالم عندما انتابتني رغبة جنونيّة أن أحطّم رأسي على الرّصيف بالأسفل، فهرعت إلى تلك النّافذة الّتي كانت مباشرة فوق الممشى الحجريّ. لا شكّ أنّ العناية الإلهية كانت تقودني. فبطريقة غير محتسبة، وفوق النّقطة ذاتها الّتي قذف عليها جسدي إلى الخارج، اخترت أن أقفز بقدمي بدلًا من السقوط برأسي. وبأصابعي، تشبّثت للحظة بالحافّة. ثمّ تخلّيت عنها. في لحظة السّقوط التوى جسدي لتكون جهتي اليمني تجاه المبني. ارتطمت بالأرض لمسافة أكثر بقليل من قدمين من أساس المنزل، وعلى أقلّ تقدير ثلاث أو أربع بوصات يسار النّقطة الّتي قفزت منها، مضيعاً الرّصيف الحجريّ ليس بأكثر من ثلاث بوصات أو أربع، لقد ارتطمت نسبيّا بالتّربة النّاعمة.

لا شكّ أنّي قد سقطت واقفا، فقد ارتطم كعباي مباشرة بالأرض، وسحقت الصّدمة عظمة أحد الكعبين وكسرت أغلب العظام الصّغيرة وتقوّس باطن القدم، ولكن لم يكن ثمّة تشوّه في اللّحم. وكما اصطدمت قدماي بالأرض، فقد اصطدمت يدي اليمنى بشكل عنيف بمقدّمة المنزل، ومن المحتمل أنّ نقاط الاتّصال الثّلاث هذه، قد وزّعت قوّة الصّدمة، وأنقذت ظهري من الكسر، وبعد عدّة أسابيع، شعرت كما لو أنّ زجاجا مسحوقا حلّ مكان الغضاريف بين الفقرات. ولم أفقد الوعي ولو لثانية واحدة. كان الفزع الشّيطانيّ،

الّذي تملّكني منذ يونيو 1894، وحتّى ذلك السّقوط فوق الأرض بعد ستّ سنوات قد تبدّد في اللّحظة الّتي اصطدمت فيها بالأرض. ولم أمرّ في أيّ وقت منذ ذلك الحدث، بواحدة من هجماتي التّخيّليّة، كان الشّيطان الصّغير الّذي عذّبني بلا هوادة لسنوات عديدة يفتقر إلى القدرة على التّحمّل، القدرة الّتي كان يجب أن أملكها لأبقى على قيد الحياة عقب صدمة رحلتي عبر الفضاء، الّتي توقّفت فجأة. لا بدّ وأنّ تلاشي الوهم ذاته الّذي دفعني إلى حبّ الموت اليائس، يشير فجأة إلى أنّ الكثير من حالات الانتحار يمكن منعها إذا استطاع الشّخص الّذي يفكّر به أن يجد المساعدة المناسبة عند مروره بمثل هذه الأزمة.

الفصل الثالث

حدث السّقوط أمام نافذة غرفة الطّعام مباشرة، وكان أولئك الّذين يتناولون الطّعام حينها بالطّبع في ذهول. لقد استغرق الأمر منهم ثانية أو ثانيتين لإدراك ما حدث، ثمّ هرع أخي الأصغر وحملني مع الآخرين إلى داخل المنزل.

بطبيعة الحال، استمرّ توقّف العشاء. وضع فراش على أرضيّة غرفة الطّعام وأنا أتألّم بشدة فوقه. تكلّمت قليلا لكنّ ما قلته كان يعني الكثير. «اعتقدت أنّني مصاب بالصّرع!» كانت تلك أوّل ملاحظاتي، وكرّرت عدّة مرّات«أتمنّى لو أنّ الأمر قد انتهى لأنّي كنت أعتقد أنّ موتي كان مجرّد مسألة ساعات». قلت للأطبّاء، الّذين حضروا سريعاً «ظهري مكسور!»، ومع ذلك رفعت نفسي قليلًا وأنا أخبرهم بذلك. تمّ استدعاء سيّارة إسعاف ووضِعتُ فيها. وبسبب طبيعة إصابتي، كان على السّيّارة أن تسير ببطء. بدا أنّ الرّحلة الّتي تقدّر بميل ونصف لا نهاية لها، لكن في النّهاية، وصلت إلى مستشفى جريس وتمّ وضعي في غرفة سرعان ما أصبحت غرفة تعذيب. كانت الغرفة في الطّابق الثّاني، وأوّل شيء استرعى انتباهي وحفّز خيالي هو رجل ظهر خارج نافذتي وقام بوضع عدّة قضبان حديديّة ثقيلة عليها. يبدو أنّ ذلك كان ضروريّا لحمايتي، ولكن في ذلك الوقت لم تكن مثل هذه الفكرة تراودني. كان ذهني في حالة مضطربة، وجاهزا ومتلهّفا لإيجاد أيّ حافز خارجيّ ليتّخذه ذريعة لأيّ أكاذيب جامحة، وبدت النّافذة

المحظورة قطارا رهيبا من الأوهام الّتي استمرّت لمدّة سبعمائة وثمانية وتسعين يوماً.

خلال تلك الفترة، كان ذهني يسجن فكري وجسدي في زنزانة، ولم يكن كلّ منهما أكثر أمنا في أيّ وقت من قبل. وبالعلم أنّ أولئك الّذين يحاولون الانتحار عادة ما يتمّ وضعهم قيد الاعتقال، كنت أعتقد أنّني قيد التّحفّظ القانونيّ. لقد تخيّلت أنّني في أيّ لحظة قد تتمّ إحالتي إلى المحاكمة لمواجهة بعض التّهم الموجّهة إليّ من قبل الشّرطة المحلّيّة. وكان يبدو أنّ كلّ تصرف منهم تجاهي إنّما هو جزء ممّا يطلق عليه في لغة الشّرطة «المستوى الثّالث». الكمّادات السّاخنة الّتي وضعت على قدمي وكاحلي جعلتني أتعرّق بغزارة، وأقنعني تعلّقي النّشط جدّا بأفكاري المجنونة بأنّني كنت «أتعرّق» -وهو مصطلح آخر من مصطلحات الشّرطة كنت قرأته في الصّحف. لقد استنتجت أنّ عمليّة التّعرّق من المستوى الثّالث هذه كانت لتحقيق نوع من الابتزاز بنيّة الحصول على نوع من الاعتراف، وعلى الرّغم من أنّ حرّاسي قد تمنّوا اعترافي، لم أستطع الاعتراف بتخيّلات حياتي، كما كنت حقّا في حالة هذيان يصاحبه ارتفاع في درجة الحرارة، وظمأ لا يروى. والسّوائل الوحيدة الّتي كانت تعطى لي هي المحاليل الملحيّة السّاخنة. وعلى الرّغم من أنّ هناك سبباً وجيها لإدارة هذه الأمور إلّا أنّني كنت أعتقد أنّها لم تكن مصمّمة لأيّ غرض آخر سوى زيادة معاناتي، كجزء من عملية التّحقيق نفسها. لكن كان لابدّ من اعتراف، لم أتمكّن من تحقيقه، لأنّ ذلك الجزء من عقلي الّذي يتحكّم في قوّة الكلام كان قد تأثّر بشكل خطير وسرعان ما أصبح معاقا أكثر

بأفكاري الخارجة عن كلّ سيطرة. مجرّد كلمة عرضيّة أتفوّه بها. كهلوسات سمعيّة، أو «أصوات وهميّة» زادت من تعذيبي ضمن نطاق سمعي، ولكن بعيداً عن متناول فهمي، كانت هناك همهمة صوتيّة جهنّميّة. من حين إلى آخر كنت أدرك صوت صديقي المهزوم، ومن الحين للحين كنت أسمع أصوات البعض ممّن اعتقدت أنّهم ليسوا أصدقاء. كلّ ذلك وكنت دون شكّ موضوع ما يتلفّظون به، لم أتبيّن بوضوح حقيقة ما يقولون، ولكنّني أعرف أنّه دائر في فلك عيوبي. خيالات أشباح على الجدران وسقف غرفتي تتخلّلها أشكال غامضة وغير مفهومة لمضطهدين غير مرئيّين. أتذكّر بوضوح توهّمي في اليوم الأوّل - الأحد. تهيّأ لي أنّني لم أعد في المستشفى. وبطريقة غامضة كانت تتملكني حماسة وأنا على متن سفينة ضخمة في المحيط. اكتشفت هذا أوّلا عندما كانت السّفينة في منتصف المحيط. كان اليوم صافيا، والبحر يبدو هادئا، ولكن على الرّغم من ذلك كانت السّفينة تغرق ببطء. وكنت أنا بالطّبع من اصطنع الموقف الّذي يجب أن يتحوّل إلى حالة قاتلة للجميع ما لم نتمكّن من الوصول إلى السّاحل الأوروبيّ قبل أن تخمد المياه النّيران. كيف تمّ تجاوز هذا الخطر؟ ببساطة شديدة: أثناء اللّيل تمكّنت بطريقة مّا - طريقة ما تزال مجهولة بالنّسبة إليّ - من فتح كوّة أسفل خطّ المياه، وأولئك المسؤولون عن السّفينة بدوا عاجزين عن إغلاقها.

بين حين وآخر كنت أسمع أجزاء من السّفينة تنهار تحت الضّغط. تمكّنت من سماع هسيس وصفير مزعج تحت تأثير مقاومة اجتياح المياه، استطعت سماع تحطّم الأخشاب عندما تدمّرت الحواجز،

وعندما اندفعت المياه في مكان واحد استطعت أن أرى في مكان آخر أعداداً كبيرة من الرّكّاب العاجزين ينجرفون إلى البحر – هؤلاء كانوا ضحاياي غير المقصودين. لقد اعتقدت أيضاً، أنّني في أيّ لحظة، سيتمّ جرفي بعيداً، وأنّني لم ألقَ في البحر من قبل زملائي الانتقاميّين بسبب رغبتهم في إبقائي على قيد الحياة حتّى يتمّ التّأكّد من وصولهم إلى البرّ، إذا أمكن، وحينها يمكن تنفيذ الموت فيّ بطرق أكثر إيلاماً.

بينما كنتُ أبحرُ على متن سفينتي الوهميّة، نجحتُ في إنشاء نظامِ سكّة حديديّة كهربائية وسرعانَ ما انطلقت عرباتُ التّرّولي التي مرّت عبر المستشفى تشقُّ طريقها فوق سطحِ سفينة المحيط حاملةً الرّكاب من أماكن خطرة إلى أماكن آمنة مقارنة بأماكن أخرى، وتضعهم عند مقدّمة السّفينة.

وفي كلّ مرّة كنت أسمع فيها سيّارة تمرّ بالمستشفى كان أحد الألغام يسقط على سطح السّفينة الوهمية التي مازالت صورتها عالقة في مخيلتي. لم تكن تصوّراتي المحمومة أقلّ إثارة من المحفّزات الخارجيّة الّتي أثارت حماستهم. كما كنت قد تأكّدت منذ ذلك الحين، أنّه كان هناك خارج غرفتي مصعد وبالقرب منه أنبوب متكلّم. كلّما استخدمت الأنبوب المتكلّم من جانب آخر للمبنى، نقلت صفارة الاستدعاء إلى ذهني فكرة نفاد الهواء في مقصورة السّفينة، وكان فتح باب المصعد وغلقه يكمل هذا الوهم بأنّ السّفينة في سبيلها مسرعة نحو التّحطّم. لكنّ السّفينة الّتي كانت في ذهني لم تصل إلى أيّ شاطئ، ولم تغرق. مثل سراب اختفت، ومرّة أخرى وجدت نفسي آمناً في فراشي بالمستشفى. هل قلت «آمناً»؟ نادراً ما كان ذلك

الخلاص من كارثة يعني ببساطة الإسراع الفوريّ للوقوع في كارثة أخرى على وشك الحدوث. مكتبة .. سُر مَن قرأ

تدريجيّاً هدأ هذياني، وبعد أربعة أو خمسة أيّام تمكّن الـ 23 طبيباً من تثبيت عظامي المكسورة. وأوحت العمليّة إليّ بأوهام جديدة. قبل فترة وجيزة من وضع الجبس تمّ حلق ساقي من القصبة وحتّى الرّكبة لأسباب واضحة. عمليّة حلق الشّعر من السّاق هذه غير اعتياديّة، قرأتها أنا بصفتها علامة خزي، ربطتها بما سمعته عن معاملة القتلة بعادات مماثلة في البلدان البربريّة. في هذا الوقت أيضا كان يتمّ وضع شرائح الجصّ، على شكل صليب على جبهتي الّتي كانت قد خدشت قليلا عند سقوطي، وبالطّبع، فسّرت ذلك على أنّه نوع من أنواع الإذلال. لو كانت صحّتي جيّدة، لشاركت صفّي اجتماعه الّذي يعقد كلّ ثلاث سنوات بجامعة ييل. في الواقع، كنت عضوا في لجنة الثّلاث سنوات، ومع ذلك، عندما غادرت نيورك في 15 يونيو، كنت أشعر بمرض رهيب، وكنت آمل حينها أن أشارك في الاحتفال. عقدت لقاءات جمع الشّمل يوم الثّلاثاء 26 يونيو- بعد ثلاثة أيّام من انهياري. ومن يعرف عادات جامعة ييل، يعرف أنّ البيسبول في جامعة هارفارد هي واحدة من الأحداث الرّئيسيّة عند موسم التّخرّج. وبرئاسة الفرق النّحاسيّة، فإنّ جميع الفصول الّتي تعيد جمع شملها في العام نفسه تتقدّم إلى ملعب ييل الرّياضيّ لمشاهدة اللّعبة وتجديد شبابهم بالقدر نفسه من الحيويّة الّتي كانت في أيّام صباهم. يرافق هذه الفصول، بمصاحبة الفرق الموسيقيّة والهتاف، يرافقها الآلاف من المتحمّسين الآخرين المتطوّعين، يسيرون في شارع ويست تشايل- أكثر الطّرق الّتي تقود مباشرة من الحرم الجامعيّ إلى الملعب. وعلى هذا الخطّ من المسيرة تقع مستشفى جريس، وكنت أعرف أنّه في

يوم المباراة، سوف يمرّ الآلاف من جامعة ييل على مكان حجزي.

لقد تحمّلت تعذيب أكثر الأيّام روعة وأنا متردّد في كيفيّة التّمييز بين درجاتها، فكلّ منها تستحقّ مكانها الفريد، حتّى يوم القدّيس وضعته في تقويم محاكم التّفتيش الإسبانيّة القديمة[1]. ولكن إذا كان من الضّروريّ أن أمنح الأفضليّة إلى يوم معيّن، ربّما سيكون يوم ال 26 من يونيو 1900، الّذي يعطى الجائزة الأولى.

يمكن تصوير حالتي الذّهنيّة في ذلك الوقت بالآتي: وجّهت لي تهمة جنائيّة بمحاولة الانتحار يوم 23 يونيو. وبحلول يوم السّادس والعشرين، تراكمت التّهم الأخرى وهي أسوأ. لقد اعتقدَ البشرُ أنّني أحتقرُ أفراد جنسي وامتلأت الجرائدُ بما اقترفتهُ. الآلاف من الطّلّاب تجمّعوا في المدينة، الكثيرون ممّن أعرف شخصيّا، يكرهون فكرة أنّ رجلا من مرتادي جامعة ييل يلحق العار بسمعة جامعته. وعندما اقتربوا من المستشفى وهم في طريقهم إلى الملعب الرّياضيّ، استنتجت أنّهم كانوا ينوون أخذي من فراشي وجرّي إلى الحديقة حيث سيقومون بتمزيقي إربًا. القليل من الحوادث الّتي وقعت أثناء سنوات تعاستي كانت أكثر وضوحا، وهذا ما جعل من تلك الظرفيّة تترسخ في ذاكرتي. كان الخوف بالتّأكيد، عبثيّاً، ولكن في قاموس اللّاعقلانيّة لا توجد كلمة «عبثيّ».

إيمانا منّي، كما فعلت، بأنّني قد أخزيت جامعة ييل وخسرت ميزة أن أكون أحد أبنائها، لذا لم يكن من المستغرب أنّ هتافات الطلاب الّتي ملأت الهواء بعد ظهر ذلك اليوم – وقد كنت قبل أيّام قليلة أتمنّى الانضمام إليها – قد بثّت الرعب في قلبي.

(1). توما دي توركيمادا (1420-1498) أول محقق كبير في اسبانيا وأصبح اسمه مرادفا لرعب محاكم التفتيش المسيحية والتعصب الديني.(المترجمة).

الفصل الرابع

كنت أشك بالطّبع في كلّ شيء له علاقة بي، وكان الأمر في ازدياد يوماً بعد يوم. لكن ليس قبل شهر من ذلك تقريبا عندما بدأت أرفض الاعتراف بوجود أقربائي. فأثناء إقامتي في مستشفى جريس، كان والدي وأخي الأكبر يتصلان كلّ يوم تقريبا لتفقّدي، ورغم أنّني لم أكن أتحدّث كثيراً، كنت ما أزال أتقبّل شخصيّاتهم الحقيقيّة. أتذكّر جيّدا محادثة في صباح أحد الأيّام مع والدي. كانت الكلمات الّتي نطق بها قليلة، ولكنّها مليئة بالمعاني. قبل هذا الوقت بفترة وجيزة، كانت لحظة وفاتي متوقّعة. كنت ما أزال أعتقد أنّني موشك على الموت كنتيجة لإصابتي، وكنت أتمنّى بطريقة أو بأخرى أن أعلم والدي بذلك، على الرّغم من نهايتي المخزية الواضحة، كنت مقدّرا لكل ما فعله من أجلي خلال حياتي.

قلة من الرجال، أعتقد، مرّوا بأوقات أكثر إيلاماً عند التّعبير عن مشاعرهم أكثر ممّا عاصرته في تلك المناسبة. كان لديّ القليل من السّيطرة على ذهني وكانت قدرتي على التّحدّث ضعيفة. جلس والدي بجانب فراشي. نظرت إليه، وقلت: «لقد كنت أبا صالحا بالنّسبة إليّ»، «لقد حاولت دائما أن أكون هكذا»، كان ذلك هو ردّه المميّز.

بعد تثبيت العظام المكسورة، بدأت التّأثيرات الكاملة للصّدمة

الشّديدة الّتي تعرّضتُ لها تتلاشى وبدأتُ أستعيد قوّتي، وفي الأسبوع الثّالث تقريبا استطعت الجلوس وأُخذت من حين لآخر إلى الخارج، ولكن كانت تزداد أوهامي قوّة وتنوّعاً كلّ يوم، وخاصّة أثناء ساعات اللّيل. كان العالم يتحوّل بسرعة إلى مرحلة بدأ فيها الإنسان في نطاق حواسي يلعب دوراً، وهذا الدّور لا يؤدّي فقط إلى تدميري (وهو الأمر الّذي لم أهتمّ به كثيرا)، ولكن أيضا لتدمير كلّ الّذين كانوا على اتّصال بي. وقعت عدّة عواصف رعديّة في شهر يوليو. كان الرّعد بالنّسبة إليّ هو «المسرح»، والبرق هو الإضاءة الّتي من صنع الإنسان، والأمطار المصاحبة كانت نتيجة لبعض الأدوات الماهرة الّتي استخدمها الّذين يعذّبونني. كانت ثمّة كنيسة صغيرة متّصلة بالمستشفى، أو على الأقلّ غرفة حيث تُعقد المراسم الدّينيّة كلّ يوم أحد. بالنّسبة إليّ كانت التّرانيم هي أناشيد جنائزية، وأنّ تلاوة الصّلوات بصوت خافت كان من أجل كلّ من يعانون في العالم ماعدا واحد. لقد كان أخي الأكبر هو الّذي يرعاني ويرعى مصالحي بالكامل أثناء فترة مرضي الكاملة. وبحلول نهاية شهر يوليو، أخبرني أنّه سيتمّ إعادتي إلى المنزل مرّة أخرى. ربّما نظرتُ إليه نظرة متشكّكة لأنّه قال «ألا تعتقد أنّ بإمكاننا أخذك إلى البيت؟ حسناً، إنّنا نستطيع وسنفعل». إيمانا منّي بأنّني في قبضة الشّرطة، لم أكن أرى أنّ ذلك ممكناً. ولم يكن لديّ أيّ رغبة في العودة. لأنّ رجلًا قد ألحق الخزي بعائلته ويعود إلى منزله القديم مرّة أخرى ويتوقّع معاملة أقاربه وكأنّ شيئا لم يتغيّر، هي فكرة تمرّدت عليها روحي. وعندما حلّ يوم عودتي، حاربت أخي والطّبيب وأنا خائر القوى بينما يرفعونني من فوق

السّرير. وسرعان ما استسلمت، وتمّ وضعي في عربة، تتّجه إلى المنزل الّذي تركته قبل شهر. لبضع ساعات كان عقلي أكثر هدوءًا ممّا كان عليه من قبل. لكنّ راحتي الّتي عثرت عليها سرعان ما تبدّدت بسبب ظهور ممّرضة، واحدة من العديدات اللّاتي مرّضنني في المستشفى. على الرّغم من أنّني كنت في المنزل ومحاطا بالأقارب، قفز إلى ذهني استنتاج أنّني كنت ما أزال تحت مراقبة الشّرطة. وبناء على طلبي، وعد أخي بعدم إحضار أيّ ممّرضة قامت بتمريضي في المستشفى. أدّت صعوبة الحصول على أيّ شخص آخر إلى تجاهل طلبي، الّذي اعتبر في ذلك الوقت ببساطة أنّه مجرّد نزوة. لكن لم يتمّ تجاهله كلّيًا، لأنّ الممرّضة الّتي تمّ اختيارها كانت مجرّد بديل لمرّة واحدة ولمدّة ساعة فقط. وهو ما كان زمنا طويلا بما يكفي لتنطبع صورتها في ذاكرتي. وبعد أن وجدت نفسي تحت المراقبة، سرعان ما قفزت إلى استنتاج ثاني، وهو أنّ هذا الشّخص لم يكن شقيقي على الإطلاق. وظهر على الفور في ضوء تفكيري المضطرب أنّه بمثابة مخبر يقوم بدور مزدوج. بعد ذلك، رفضت التّحدّث معه ثانية على الإطلاق ومدّدت هذا الرّفض إلى جميع أقربائي وأصدقائي ومعارفي الآخرين. إذا كان الرّجل الّذي قبلته كأخي مزيّفا، فلابدّ وأنّ الجميع كانوا كذلك وهذا كان استنتاجي القاطع. لأكثر من عامين، كنت دون أقارب أو أصدقاء، في الواقع ، دونما عالم ، باستثناء ذلك الّذي خلّفه ذهني من الفوضى الّتي كانت تعمّ بداخله.

بينما كنت في مستشفى جريس، كانت حاسّة السّمع لديّ هي الأكثر اضطرابا. ولكن بعد فترة وجيزة من وضعي بغرفتي في المنزل،

أصبحت «كلّ» حواسّي منحرفة. كنت ما أزال أسمع «الأصوات المزيّفة» الّتي صارت زائفة بشكل مضاعف، لأنّ الحقيقة لم تعد موجودة. لقد لعبت الحيل على حواسّي التّذوّقيّة، كان اللّمس، والشّمّ، والبصر مصدر ألم نفسيّ كبير، إذ لم يكن لأيّ من أطعمتي مذاقه المعتاد.

وسرعان ما أدّى هذا الوهم السّائد بأنّ بعضها يحتوي على السّموم -وليس السّمّ القاتل- لأنّني عرفت أنّ أعدائي يكرهونني كثيرا للدّرجة الّتي يسمحون لي بموت مريح، لكنّ السّمّ كان يكفي لتفاقم انزعاجي. في وجبة الإفطار، تناولت الشّمام، واضعاً عليه قليلاً من الملح. ثمّ بدأ الملح يتكتّل في فمي، واعتقدت أنّه يشبه مسحوق الشبه. عادة، يقدّم مع عشائي شرائح من الخوخ. وعلى الرّغم من وجود السّكّر عليها كنت أضع الملح أيضا. أصبح الملح والسّكّر ومسحوق الشبّة، جميعاً يمثّلون ذات الشّيء بالنّسبة إليّ، واكتسبت المواد المألوفة «إحساساً» مختلفاً. في الظّلام، كانت ملاءات السّرير تبدو في بعض الأحيان كالحرير. وبما أنّني لم أولد وفي فمي ملعقة ذهبيّة أو أيّ من أدوات الرّفاهية الّتي لا طائل منها، فقد اعتقدت أنّ المحقّقين قد وفّروا هذه الملاءات الحريريّة لأغراض معيشتهم الخاصّة. ما هو هذا الغرض، لم أستطع التّخمين، وكانت عدم قدرتي على التّوصّل إلى نتيجة مرضية تحفّز عقلي على حشد كلّ الأفكار المزعجة في قطار تقريبا لا نهاية له. لفحت نسائم وهميّة وجهي برقّة، ولكن دون ترحيب. وكان معظمها من أجزاء في الغرفة حيث لا يمكن أن تكون بها تيّارات جوّيّة محتملة. يبدو أنّها جاءت من الشّقوق الموجودة في

الجدران كما أنّ السقف أزعجني كثيراً. كنت أعتقد أنّها مرتبطة بشكل ما بتلك الطّريقة القديمة للتّعذيب الّتي يسمح فيها بسكب الماء على جبهة الضّحيّة، ويظلّ يهطل فوقه لفترة حتّى يخلّصه من الموت. لفترة من الوقت، زادت حاسّة الشّمّ من متاعبي. ويبدو أنّ رائحة احتراق اللّحم البشريّ وأبخرة مزعجة أخرى كانت تهاجمني بعنف.

وتعرّضت حاسّة النّظر لديّ لعدّة تأثيرات غريبة وغامضة، ودفعت بعضَ الرؤى الخياليّة إلى زيارتي لليالٍ طويلة في مواعيدَ منتظمة لفترة من الزّمن، اعتدت فيها انتظارها وأنا أكبح فضولي. لم أكن على إحاطة تامّة بأنّ عقلي يعاني من خطب مّا. ومع ذلك هذه الأوهام البصريّة استخدمتها لأداء عمل المحقّقين الّذين كانوا يجلسون ليلاً يعذّبون أدمغتهم من أجل تعذيب دماغي وتحطيمه بطرق الاستجواب القاسية وغير العادلة. **الكتابة على الحائط دائما ما تصيب قلوب الرّجال العاقلين بالرّعب.** أتذكّر واحدة من أكثر تجاربي غير السّارّة أنّني بدأت في رؤية كتابات على ملاءات سريري تحدّق في وجهي، وليس أنا فقط، ولكن أيضا الأقارب الزّائفون الّذين كانوا يقفون أو يجلسون بالقرب منّي.

كنت أشرعُ في رؤية الكلمات والجمل والتّوقيعات على نحوٍ متسارعٍ في كلّ ملاءة جديدة كانت توضع فوقي، وكانت كلّها مكتوبة بخطّ اليد. ومع ذلك لم أتمكّن من تفسير أيّ من هذه الكلمات وهو ما أزعجني لأنّني كنت أعتقدُ اعتقاداً راسخاً أنّ أولئك الّذين وقفوا حولي يمكنهم قراءتها كلّها ويجدونها دليل إدانة. تخيّلت كلّ تلك المؤثّرات البصريّة، مع بعض الاستثناءات القليلة، على إنها وُلدت من

فانوس يسيطر عليه بعض من معذبيّ المتعدّدين.

كان الفانوس بالأحرى عبارة عن آلة سينمائيّة تحرّك الصّور، الّتي غالباً ما تكون بارعة الألوان، فترتسمُ على سقف غرفتي حينًا وأحياناً أخرى على ملاءات فراشي. كانت الجثث البشريّة، الممزّقة والدّمويّة، هي واحدة من الصّور الأكثر شيوعاً. ربّما يعودُ ذلكَ إلى يقيني أنّني في صبايَ، كنتُ قد تعوّدتُ على تغذية خيالي على الأخبار اليوميّة المثيرة الّتي تنشر في الصّحف العامّة. وعلى الرّغم من العقوبة الّتي عليّ أن أدفعها الآن مقابل كلّ تلك الأشياء الّتي حلمتُ بها عقلي، أعتقد بأنّ هذا التّساهل غير الحكيم أعطى اتّساعا وتنوّعا لتجربتي النّفسيّة الخاصّة الّتي كانت من ناحية أخرى ستحتاجها. لقد تمكّنت ببراعة جنونيّة تقريبا من الرّبط بيني وبين كلّ جريمة ذات أهمّيّة كنتُ قرأت عنها يومًا. لم تكن الجثث البشريّة وحدها رفاقي في ذلك الوقت. أتذكّر الرؤية التي انتابتني تجاهَ الجمال النّابض بالحياة، أسراب الفراشات والعثّ الكبير الرّائع على الملاءات. لذا تمنّيت أن يستمرّ هذا العمل الذي لم أتعوّد عليهِ في إظهار تلك المخلوقات الجميلة. كما أصابتني رؤية مرضية أخرى، ولكن هذه المرّة حول الشّفق، استمرّت لعدّة أيّام متتالية. يمكنني تتبّعها مباشرة من خلالِ الانطباعات المكتسبة في مرحلة الطّفولة المبكّرة. الصّور الطّريفة الّتي التقطتها «كايت جريناواي» -لأطفال صغار في أثواب جذّابة يلعبون في حدائق قديمة الطّراز- كانت تطفو عبر الفضاء خارج نوافذي.

كانت الصّور مصحوبة دائما بصيحات مبتهجة لأطفال حقيقيّين في الحيّ، قبل أن يرسلهم آباؤهم إلى أسرّتهم للنّوم، يكرّسون آخر

ساعة في اليوم للّعب. كان صراخهم بلا شكّ هو الّذي أثار ذكريات طفولتي الّتي أيقظت هذه الصور. في غرفة فظائعي المتناوبة ومسرّاتي اللّحظيّة، كانت الأحداث الغريبة متكرّرة. لقد اعتقدت أنّ ثمة شخص عند حلول اللّيل يختبئ أسفل فراشي. لا يبدو الأمرُ غريبًا، فالأشخاص العقلاءُ يعانونَ من نفسِ الفكرة من وقتٍ لآخر. لكنَّ زميلي —القابع تحتَ الفراش- كانَ برتبةِ محقّقٍ، يقضي معظمَ وقتِهِ أثناءَ اللّيلِ في وضعِ قطعٍ من الثلجِ على كعبي المصابين كي يعجّل من اعترافي كما ظننتُ حينها. كانت قطعة الثّلجِ التي وضعت في إبريقِ الماء تخبطُ جانب الإبريقِ كلّما ذابت فتصدرُ قرقعةً. كان ذلكَ قبلَ أيامٍ عديدة من بين الأسباب التي دفعتني إلى التّعرف على سبب هذا الصّوت الذي افترضتُ أنّهُ صدرَ عمدًا بواسطة جهازٍ ميكانيكي لجأ إليهِ المحقّقونَ لغرضٍ مّا.

وبالتّالي كان يفترض من هذا الحدث التافه بشدة أن تكون له أهمّيّة كبيرة بالنّسبة إليّ .

الفصل الخامس

بعد بقائي في المنزل لمدّة شهر تقريباً، لم يظهر عليّ أيّ تحسّن في صحّتي النفسية، وعلى الرّغم من أنّني تحسّنت جسديّاً، نُقلت إلى مصحّة خاصّة بعدما تمَّ الكشف عن وجهتي بكلِّ أمانةٍ. ولكنّ عادة تكذيبِ كلّ ما يحيطُ بي أضحت ثابتةً الآن، وقادني ظنّي أنّني في طريقي إلى محاكمة في مدينة نيويورك، لواحدة من الجرائم الكثيرة الّتي وجّهت إليّ اتّهاماتها. كانت عواطفي عند مغادرتي «نيو هافن»، كما أتصوّر، عبارة عن مشاعر مجرم محكوم عليه بالإعدام ولكنّه تاب وينظر إلى العالم للمرّة الأخيرة.

كانَ اليومَ شديد الحرارة، وبينما كنّا نتّجه إلى محطّة السّكك الحديديّة، كانت السّتائر مسدلة على معظم المنازل في الشّوارع الّتي مررنا بها وقد بدت مغلقة. لم يكن سبب ذلك واضحا بالنّسبة إليّ. ظننت أنّني رأيت خطّا غير منقطع من البيوت المهجورة، وتخيّلت أن فرار سكّانها السّابقين كان متعمّداً ومخطّطا له. وبصفتي مواطناً من نيو هافن، افترضت أنّهم كانوا يشعرون بالخجل الشّديد من رجل البلدة المقيت الّذي هو أنا. لأنّه في السّاعات الأولى، كانت الشّوارع عمليّا مهجورة. هذه الحقيقة أيضاً فسّرتها ضدّ مصلحتي. عندما عبرت العربة طريق الأعمال الرّئيسيّ، ألقيت جانبًا ما اعتقدت أنّه آخر نظرة

لي على هذا الجزء من مدينتي الأمّ. تمّ نقلي من العربة إلى القطار في المقعد الأخير بالجانب الأيمن في عربة التّدخين. وكان ظهر المقعد الّذي أمامي مقلوباً، ممّا أتاح لي أن أضع ساقي بشكل مريح، ووضعت أسفلها أحد الألواح الّتي يستخدمها المسافرون للعب الورق كداعم. مع درجة متّسقة من الشّكّ، أوليت اهتماما خاصّا بعلامة زرقاء على وجه تذكرة القطار الّتي يحملها خادمي. أخذتها منه لتكون وسيلة تحديد للهويّة أستخدمها في المحكمة. لقد أثبتت ذاكرة الفرد أنّها واقعة في قبضة اللّاعقلانية ذاتها، من خلال حقيقة أنّ ذاكرتي تحتفظ بانطباع دقيق عن كلّ ما أصابني عمليّا إلّا عندما أكون تحت تأثير مخدّر أو في ساعات فقد الوعي أو خلال النّوم الهادئ. يتمّ الآن بكلّ سهولة وفي كنف الدّقّة تذكّر الأحداث الجسيمة، تذكّر عنّي من المحادثات ومن الأفكار، ولم يكن الأمر كذلك قبل أن يتمكّن منّي المرض؛ إذ أن ذاكرتي حينها تخزّن الأحداث بشكل عاديّ. كنت أتحصّل على أدنى الدّرجات سواء في المدرسة، أو في الكلّيّة، متى تعلّق الأمر بما يحتاج إلى ملكة التّذكر من الدّروس.

يُعلمني الأطبّاء النّفسانيّون أنّ المصابين بمرضي هذا قلّما يحتفظون بانطباعات دقيقة عن تجاربهم. في وسع أيّ شخصٍ عاديّ أن يرى ذلكَ أشبهُ بمعجزةٍ تقريباً ولكنّ الأمرَ مخالفٌ لذلكَ ولا يبدو استثنائيا. إذا افترضنا أنّ ذاكرة شخص مجنون قادرة على تسجيل الانطباعات بشكل مطلق، فمن الضّروريّ أن تنشأ تلك الذّكريات داخل شبكة معقّدة تحيطها الأوهامُ حيثُ لا تخلو من اضطهاد للذّاكرة ومن تعذيب. ويتوافق هذا الاستنتاج مع قانون التّقبّل النّفسيّ القائل

بأنّ الاحتفاظ بالانطباعات في الذّاكرة يعتمد إلى حدّ كبير على حدّة الانطباع ذاته وعلى معدّل تكراره. أعطى خوفي من الكلام، خشية أن أدين نفسي والآخرين، إلى انطباعاتي ما تتطلّبه من حدّة ازدادت مع التكرار اليوميّ لنفس النهج العام للتّفكير.

قبيل السّابعة صباحاً، وفي الطريق إلى المصحّة، مرّ القطار عبر مركز صناعيّ. كان العديد من العمّال يجلسون أمام أحد المصانع، وقد انشغل أغلبهم بقراءة الصّحف. اعتقدت أنّ هذه الصّحف تحتوي على معلومات عن جرائمي، واعتقدت أنّ الجميع على طول الطّريق كانوا يعرفون من أنا وماذا كنت، وأنّني كنت في ذلك القطار. القليلون أبدوا الاهتمام بي، ومع ذلك بدت تلك الحقيقة بالنّسبة إليّ جزء من مخطّط وضع جيّداً من قبل المحقّقين.

كانت المصحّة المقصودةُ تقعُ في أحدِ الأريافِ. عندما بلغنَا المحطّة المعنيّة، تمّ نقلي من القطار إلى العربة. في تلك اللحظة، تلقّيت نظرة من أحد زملائي السّابقين في الكلّيّة، وظننت أنّ مظهره كان يسعى كي يعلمني أن جامعة ييل -الّتي كنتُ أعتقد أنّني جلبت لها العار- كانت واحدة من القوى الّتي تقف وراء تعذيبي.

بعد فترة وجيزة من وصولي إلى غرفتي في المصحّة، دخل المشرفُ ومدّ طاولة بالقرب من السّرير ثمَّ وضع عليها قصاصة من الورق وطلب منّي التّوقيع عليها. اعتبرت ذلك حيلة من المحقّقين للحصول على عيّنة من خطّي. الآن أعرف أنّ توقيع تلك الاستمارة هو مطلب قانونيّ، ويفترض على كلّ مريض الامتثال له عند دخول مثل هذه المؤسّسة- بتوقيعه الشّخصيّ- ما لم يكن قد تمّ إيداعه بحكم من

المحكمة.

لا أتذكر الصّياغة الدّقيقة لهذا «الالتزام الطّوعيّ»، ولكن من حيث المضمون كان عبارة عن اتّفاق على الالتزام بقواعد المؤسّسة- بغضّ النظر عمّن كانوا «هم» -والالتزام بمثل هذا القيد كلّما اقتضت الضّرورة. لو لم أكن أحسّ بثقل العالم فوق أكتافي لاعتقدت أنّ حسّ الفكاهة حينها كان سيجعلني أضحك تماماً لتوقيع مثل هذا الاتّفاق من جانب واحد، كان حتّى في حالة ذهني يمثّل مهزلة. بعد الكثير من التّملّق تمّ إغرائي لأخذ القلم بين يديّ. تردّدت مرّة أخرى. لقد ظنّ المشرف على ما يبدو أنّني قد أوقّع بسهولة أكثر إذا ما وضع الورقة في كتاب. وربّما فعلت لو أنّه اختار كتاباً بعنوان مختلف كي يثير الشّكوك في ذهني، ولكن لم يمكن العثور عليه حتّى في مكتبة الكونجرس. غادرت نيويورك يوم 15 يونيو، وكنت في اتّجاه تلك المدينة الّتي أخذتني رحلتي الحاليّة إليها. اعتبرت تلك خطوة أولى في عودتي تحت رعاية إدارة الشّرطة التّابعة لها. «العودة»، كان عنوان الكتاب الّذي كان مثبتاً أمام وجهي .

بعد رفضي التّوقيع لوقت طويل ضعفت أخيراً ووقّعت الاستمارة، لكنّني لم أضعها في الكتاب. كان فعل ذلك، في رأيي، بمثابة موافقة على التّسليم، و لم أكن في مزاج لمساعدة المحقّقين في عملهم الخبيث. أيّ ثمن كان سيكلّفني توقيع هذه الاستمارة ؟ بالنّسبة إليّ كان فعل التّوقيع بمثابة إعطاء تصريح بموتي.

الفصل السادس

طوال الوقت الّذي استمرّت فيه الأوهامُ المضطَهِدةُ، لم أستطع إلّا احترام ذلك العقل الّذي خطّط بشكل شامل وجذريّ للغاية، لذلك الإنجاز الإبداعيّ الّذي دعيت إلى تحمّله. ولم يمنعني التّواضع الفطريّ (الهارب إلى حدّ مّا منذ حدوث هذه التّجارب الغريبة) من ذكر حقيقة أنّني مازلت أحترم ذلك العقل.

بدأت قوة المعاناة الّتي تحمّلتها خلال شهر أغسطس في منزلي في التّناقص تدريجيّا خلال الثّمانية أشهر الّتي قضّيتها في هذه المصحّة. ومع ذلك، كانت معاناتي خلال الأربعة أشهر الأولى في منتهى الشّدّة. كلّ حواسّي كانت ما تزال خارج السّيطرة. كان إحساسي البصريّ أوّل من فعل ذلك، وهو ما يكفي، على الأقلّ ليختلس من المحقّقين صورهم المتحرّكة. لكن قبل أن يمرّ الفيلم الأخير عبر مخيّلتي، لاحظت فيلماً سأصفه الآن. يمكنني تتبّع تأثير ظهوره مباشرة على ذاكرتي قبل حوالي عامين من انهياري. بعد وقت قصير من الذّهاب للعيش في نيويورك، كنت قد استكشفت «Eden Musee» متحف عدن، ورأيت فيه واحداً من أكثر المناظر رعباً في "غرفة الرّعب" الشّهيرة وكانت تمثّل غوريلا، تحمل بين ذراعيها جسم امرأة ملطّخ بالدّماء.

كان ذلك هو الانطباع الّذي أعيد إحياؤه في ذهني الآن. لكن من

خلال عمليّة صارمة تتّفق مع نظرية داروين، أصبحت غوريلا متحف عدن رجلاً في مظهر لا يختلف عن الوحش الّذي ألهمني فكرتي المشوّهة. كان ذلك الرّجل يحمل خنجراً دامياً أقحمه في صدر امرأة مراراً وتكراراً.

لم يخفني ظهور ذلك الشّبح على الإطلاق. لقد وجدت الأمر في الواقع مثيراً للاهتمام، لأنّني نظرت إليه على أنّه ابتكار من المحقّقين. لم أتمكّن من فهم هدفه، لكنّ هذه الحقيقة لم تزعجني، حيث أدركت أنّه لا توجد تهم جنائيّة إضافيّة ضدّي يمكن أن تجعل من وضعي أكثر سوءاً ممّا كان عليه بالفعل.

لمدّة شهر أو شهرين، واصلت «الأصوات الزّائفة» إزعاجها. وإذا كان ثمّة جحيم فقد أدير وفقاً لمبادئ جحيمي المؤقت، وسيتمنى مروّجو الشّائعات أو أصحاب الأصوات الزائفة يوماً لو أنّهم التزموا بأمورهم الخاصّة وابتعدوا كثيراً عن هذا الجحيم. هذا ليس اعترافاً. فأنا لست مروّجاً للشّائعات على الرّغم من أنّني لا أستطيع إنكار أنّني قمت بذلك في بعض المناسبات. وكان هذا هو عقابي: يبدو أنّ الأشخاص في الغرفة المجاورة يكرّرون نفس الأشياء الّتي كنت أقولها عن الآخرين في هذه المناسبات. لقد افترضت أنّ هؤلاء الّذين تحدّثت عنهم قد عثروا عليّ بطريقة ما، ويعتزمون الآن الانتقام.

أصبحت حاسّة الشّمّ لديّ أيضا طبيعيّة، لكنّ تعافي حاسّة التّذوّق كان بطيئا. كان السّمّ هو«الجزء الأساسيّ» في كلّ وجبة ولم يكن من المستغرب أن أقضي مدّة ساعة أو ساعتين أو ثلاث في وجبة واحدة وغالباً ما كانت تنتهي بعدم أكلها على الإطلاق.

ومع ذلك، فقد كان هناك سبب آخر لرفضي تناول الطّعام بشكل متكرّر ، ففي اعتقادي أنّ المحقّقين قد لجؤوا إلى طريقة أكثر دقّة للتّحرّي. وهي أنّهم ينوون اقتراح رمز معيّن لكلّ صنف غذائيّ، وكان من المتوقّع أن أدرك أنا ذلك الرّمز المقترح. وأنّ الإدانة أو التّبرئة كانت تعتمد على تفسيري الصّحيح لتلك الرموز، وكان تفسيري عن طريق تناول أو عدم تناول أصناف الطّعام المتعدّدة الّتي كانت توضع أمامي. إن أكلت طبقة محروقة من الخبز قد يكون اعترافاً بإشعال الحريق، لماذا؟ ببساطة لأنّ الطّبقة المتفحّمة تقترح وجود النّار، والخبز يعني دعامة الحياة، ألن يكون افتراضاً حتميّا هنا أنّ ثمّة حياة قد دمّرت- دمّرتها النيران- وأنّني أنا ذلك الفاعل؟ أن أتناول في يوم وجبة طعام من صنف معيّن فذلك يعني اعترافاً. في اليوم التّالي، أو الوجبة التّالية، كان رفض الطّعام يعني اعترافاً أيضاً. هذا التعقيد في المنطق جعل الصّعوبة مضاعفة بالنّسبة إليّ لأتحمّل الابتعاد عن تجريم نفسي والآخرين. كان من السّهولة رؤية أنّني قد خيّرت بين أمرين أحلاهما مرّ. أن أتناول الطّعام أو ألّا أتناوله أزعجني أكثر من المشكلة الّتي نقلت في عدّة كلمات قصيرة قالها أمير ملعون، عاش بعد بضعة قرون (خارج الكتاب)، ربّما أجبر على دخول مملكة حيث الملوك والأمراء فيها يتمّ تجهيزهم أو عدم تجهيزهم في مهلة قصيرة. في الواقع، ربّما تكون إمبراطوريّته بالكامل، أو على الأقلّ، رعاياه، لأنّه عندما أتيحت لي الفرصة لاحقا، لاحظت أنّ التّردّد الّذي يتسبّب فيه العقل المنفلت لمن يجلسون على العرش ويحكمون العالم لمثل هؤلاء الملوك الّذين قاموا بالاستيلاء على العرش، يجعلهم يحظون بالقليل من

الاحترام من أقلّ أعضاء المحكمة ثراء.

كنت أتناول القليل من الطّعام لعدّة أسابيع. وبالرغم من أنه لم تكن لديّ أيّ رغبة في الأكلِ، إلّا أنّ ذهني (ذلك الكلب الّذي يدير الأمر) رفض السّماح لي بإسكاتِ جوعي. وقد كانَ مصدرَ إفادةٍ لتملّقِ المرضين وقناعتهم، كانت القوة أقلّ من المعتاد، لكنّ التّهديد بتغذيتي بالسّوائل عن طريق فتحتي الأنف كان دافعاً لتفعيل فطنتي الّتي لم تُفقد تماماً، إنّني لم أستطع اختيار أقلّ الاثنين من الشّرور. ما نظرت إليه على أنّه حيلة طعام من المحقّقين جعلني أتمكّن أحياناً من التّغلّب على خوفي من الأكل. كان الآيس كريم يُقدّم كل يوم أحد مع العشاء، في بداية الوجبة يوضع هرم كبير منه أمامي في عدّة صحون بأحجام صغيرة . كنت أعتقد أنّها لن تكون لي حتّى أتناول الوجبة الأساسيّة أوّلاً. وإذا تأخّرت في تناول الوجبة، فإنّ هذا الهرم اللّذيذ سوف يذوب تدريجياً، ويملأ الصّحن الصّغير ببطء، الّذي كنت أعرف أنّه لن يستطيع الاستمرار في الاحتفاظ طويلا بمحتوياته الأصليّة. مع ازدياد ذوبان الآيس كريم، لم أعد مبالياً بمصيري النّهائيّ، وكنت دائما قبل أن تسقط قطرة من هذه المكافأة الثّمينة خارج الصحن، أتناول ما يكفي من العشاء لإثبات ملكيّتي للحلوى المغرية. علاوة على ذلك لم أتعرّض أثناء التّمتّع بها إلى مثقال ذرّة من الاتّهامات أو الإدانة لكلّ الجرائم الموجودة في القائمة. هذه الحقيقة أقلّ تفاهة مما تبدو عليه، لأنّها تثبت قيمة الإستراتيجية بوصفها نقيض القوّة الوحشيّة والقاسية في بعض الأحيان، وسأذكر في الحين بعض الأمثلة الموضّحة لها.

الفصل السابع

مما يؤسف له أن إمكانية اختيار مصحّة من قبل النّاس الّذين يمتلكون وسائل محدودة شيء محدود للغاية. وعلى الرّغم من أنّ أقاربي يؤمنون بأنّ المصحّة الّتي تمّ الزّجُّ بي فيها كانت على الأقلّ تدار بشكل جيّد، فإنّ الأحداث أثبتت عكس ذلك. كانت بدايتها متواضعة، ومنذ سنوات قليلة كانت تمتدُّ فيزدادُ حجمها اتّساعًا. تمّ إيواء حوالي مائتين وخمسين مريضًا أو أكثر في عشرات المباني الصّغيرة التي توحي بأنّها مستعمرة تقعُ خارج حدود المدينة بإشراف سيّء، يعود جزئيًا إلى القوانين الخاطئة، فقد قام صاحب هذه المستوطنة الصّغيرة بنصب عشّ حقيقيّ من شراك الحرائق بحيث كان المرضي العاجزون مضطرّين إلى المخاطرة بحياتهم. وكان هذا الإجراء ضروريّاً إذا أراد المالك الحصول على دخل باهظ من استثماراته. وهي الرّوح الاقتصادية والتجارية نفسها الّتي سادت في المجتمع بأكمله. ومن أسوأ مظاهرها توظيف متواضعي الإمكانات، من الرّجال المستعدّين للعمل بأجر تافه في الشّهر يقدّر بثمانية عشر دولارا. ونادراً ما كان الأشخاص الأكفاء يوافقون على العمل هناك، وإذا حدث ذلك فبسبب ندرة فرص العمل المربحة في أماكن أخرى .

بالنّسبة إليّ كانت العناية الإلهية ترعاني، إذ جاء إلى مكان الحادث،

هذا الشّابّ الّذي بقي يعمل لصالح المالك-المشرف، وقد كان واحداً من أفضل موظفيه على الإطلاق. ومع ذلك، فيما عدا ورقة نقديّة من فئة الخمسة دولارات، أرسلها إليّ أحد الأقرباء في عيد الميلاد رفضت أن أقبلها، لأنّها في اعتقادي كانت مزيفة مثل أقربائي. وأخرى نقديّة، سلّمها أخي إلى الشّخص الّذي يقوم برعايتي، والذي لم يتلقّ أيّ مكافآت ماليّة إضافيّة. ولأنّ مكافأته الرّئيسيّة كانت تكمن في وعيه بحقيقة أنّه كان يحميني ضدّ الظّلم، فمن المؤكّد أنّ ذلك سيكونُ دافعًا لزيارتي لو أنّه ترك منصبه وتركني إلى رحمة المالك ومساعديه الجهلة .

اليوم، مع تقدير عميق، أقارن المعاملة الّتي تلقّيتها على يديه بما عانيت منه خلال الأسابيع الثّلاثة الّتي سبقت ظهوره على السّاحة. خلال تلك الفترة، ساهم مالا يقلّ عن سبعة مشاركين في بؤسي. وعلى الرّغم من أنّ بعضهم ربما كانوا زملاء محترمين بما فيه الكفاية خارج غرفة المرض إلّا أنّه لم يكن من الصّواب أن يقدم أيّا منهم الرّعاية إلى مريض في مثل حالتي.

لم يقم الاثنان اللّذان كانا مكلّفين برعايتي في أوّل الأمر بضربي أو تهديدي بالقيام بذلك، لكنّ كان التّعذيب يكمن في قلّة وعيهم بالاهتمام براحتي وراحة بالي. كانا نموذجاً مثاليًا لمقدّمي الرّعاية الّذين يتقاضون ثمانية عشر دولارا بالشّهر. كما لعنني موظف آخر من مقدّمي الرّعاية، في مناسبة مّا، بطريقة وحشيّة أفضّل ألّا أتذكّرها وأتفه من أن يتمّ ذكرها. وبعد بضعة أيّام، كان الختام عندما قام ممّرض آخر بارتكاب فعل شنيع قد يجعل رجلاً عاقلاً يُقدم على الانتحار. لقد كان رجلاً من النّوع الغليظ. كان من الممكن أن تكون يداه

مفخرة لرجل طويل القامة، بأصابع معقوفة، تبلغُ تقريبًا ضِعف الحجم العاديّ. ولأنّني رفضت الانصياع لأوامر قطعيّة في ذلك الوقت، ونتيجةً للرّفضِ الذي كان من عادتي ورغمَ ألم التّعذيب، رفضتُ تنفيذَ الأوامر أو التكلّم وكان هذا الغاشم لا يسبّني فقط بل كان يبصق عليّ. لقد كنت غير مؤهّل عقليّاً ولكن مثل العديد من الآخرين الّذين هم في وضع مماثل، كنت على درجةٍ من التطابقِ مع جذوري العائليّة وكانَ التّدريب منفذًا كي أتحوّل إلى رجل نبيل. أمّا النّقد فلم يكن من الممكن أن يكوي عمق روحي أكثر ممّا كان يفعله سمّ هذه الأفعى الإنسانيّة التي تنامُ في روحي!!

وبما أنّني أصبحت عاجزاً عن الكلام بسبب الأوهام، لم يكن بإمكاني قول الكثير من الكلمات الاحتجاجيّة.

لكنّني على ثقة من أنّ الوقت لم يفت بعد الآن للاحتجاج نيابة عن الآلاف من المرضى الغاضبين في المستشفيات الخاصّة والمستشفيات الحكوميّة على مثل هذه الإهانات الّتي لم يقع تدوينها بعدُ.

وعن استعداد المالك عديم الضّمير لتوظيف ممرّضين دائمين غير مؤهّلين، سأقدّم توضيحاً مهمّا. لقد أعطاني الموظّف القدير الّذي كان يتصرّف كحارسي في هذه المصحّة إفادة خطّيّة تجسّد بعض الحقائق الّتي، بالطبع، لم أكن أعرفها وقت حدوثها. جوهر هذه الإفادة الّتي تمّ أداءُ اليمين عليها كما يلي: يوماً مّا اقترب رجل–على ما يبدو أنّه كان متشرّدا– من المبنى الرّئيسيّ للمصحّة واستفسر عن المالك. وسرعان ما وجده وتحدّث معه لبضع دقائق، وبعد ساعة أو ما يقرب كان يجلس بجانب سرير رجل مسنّ عاجز.

كان هذا المريض المسنّ قد التحق مؤخّراً بالمؤسّسة من قبل الأقارب الّذين عملوا تحت ستار من الخداع ودفع مبلغاً كبيراً من المال كلّ أسبوع يضمن علاجًا ملائمًا. عندما ظهر هذا المتشرّد لأوّل مرّة، كان يحمل كلّ ممتلكاته في حزمة صغيرة تحت إبطه. كان في منتهى القذارة رثّ الثّياب، لذا فقد تلقّى حمّامًا إجباريًا ولباسًا آخر قبل تكليفه بالعمل. بدأ في كسب أربعة دولارات وخمسين سنتاً في الأسبوع مقابل الجلوس عدّة ساعات في اليوم في غرفة الرّجل المسنّ والمرضى الّذين يحتضرون، وسرعان ما بدأ يتحدّث مع حارسي. فماذا عرف حارسي؟ أوّلاً، إنّ هذا الشّخص الغريب لم يسبق له أن تجاوز حدود المستشفى. وأنّ وظيفته الأخيرة كانت عضوًا في فرع عصابة تعمل على خطّ سكّة حديديّة. ومن السّكّة الحديديّة إلى سرير رجل موشك على الموت، كان ذلك في الواقع تغييراً يفرض مقداراً من التّكيّف لكونه متعدّد الجوانب. ولكن وعلى الرغم من خشونته، إلّا أنّ هذا الأشعث المبتدئ لم يسئ استخدام سلطته إلّا في عدم قدرته على تفسير الرّغبات أو توقّعها، الأمر الّذي ساهم في ألم الرّجل المريض. لقد لاحظت أثناء الفترةِ الّتي أمضيتها، أنّ المريض كان يعاني بسبب الحاجة إلى الاهتمام والمهارة، ويقضي جزء من وقته في غرفة كئيبة، مفتوحة على غرفتي. ثمّ جاءت النّهاية. لاحظ ممرضي الذي كان قد تلقّى تدريباً علامات لا لُبسَ فيها على الموت الوشيك. أخبر مالك المصحّة على الفور أنّ المريض في حالة احتضار، وحثّه (الطبيب) على زيارته فورًا. لكنّ الطّبيب رفض الإذعان للطّلب على اعتبار أنّه في ذلك الوقت «مشغول للغاية». وعندما ذهب أخيرا إلى

الغرفة، كان المريض قد مات .ثم جاء المشرف الّذي تولّى مسؤولية الجثّة. وبينما كان يجرى نقلها من الغرفة، قال المشرف «الممرض الماهر» للمالك: لقد غادر أفضل مريض كان يدفع للمؤسّسة «وكان الطّبيب» يعني المالك، يحصل على خمسة وثمانين دولارا في الأسبوع يتمّ دفع عشرين دولارا على الأكثر من هذا المبلغ في ما يمكن اعتباره «تكلفة صيانة» والخمسة والستون دولاراً المتبقّين كانت تذهب مباشرة إلى جيب المالك. لو كان الرّجل سيعيش لمدّة عام، ربّما كان المالك قد استلم (لهذه الحالة فقط) ربحاً صافياً بما يقدّر بثلاثمائة وثمانين دولاراً. وماذا كان يتلقى المريض في المقابل؟ امتيازات العيش والموت مهملاً.

الفصل الثامن



في الأسابيع القليلة الأولى بعد وصولي إلى المصحّة، تلقّيت الرّعاية من قبل اثنين من الممرّضين، أحدهما كان مكلّفاً برعايتي في النّهار والآخر في اللّيل. كنت ما أزال أشعر بالعجز، فلم أكن أتمكّن من تحريك قدمي من الفراش أو وضعها على الأرض، وكان من الضّروري أن أُراقب باستمرار خشية أن أهرب. بعد شهر أو ستّة أسابيع، أصبحت أقوى، ومنذ ذلك الوقت تمّ تكليف شخص واحد فقط برعايتي. كان يظلّ معي طوال النّهار وينام معي بالغرفة نفسها ليلاً.

كان التّخلّص سريعاً من أحد المرافقين لي مناسبًا لميزانية الأسرة، ولكن هكذا أوجه القصور في العلاج السّائد لمرضى العقل، وهو أنّ التّخفيض في أحد الاتّجاهات غالباً ما يسبّب السّوء في اتّجاه آخر. وما أن خُفضت المصروفات حتّى كنت هدفاً لنوع مقيت من السّيطرة الّتي وصلت إلى حدّ التّعذيب. ولحراستي أثناء اللّيل وحتّى يتمكّن الحارس من النّوم كانت يداي تقيّدان ب«قفّاز أسطوانيّ «Muff» من الفرو»، يبدو من البراءة بما يكفي لأعين أولئك الذين لم يرتدوا مثله أبدًا. فهو في الواقع من بقايا محاكم التّفتيش. إنّه أداة لضبط النّفس كانت تستخدم منذ قرون وحتّى الآن ما تزال تستخدم في العديد من

المستشفيات العامّة والخاصّة. كان القفّاز الّذي ارتديته مصنوعا من القماش، وقد اختلف في تكوينه الدّاخليّ عن الّذي كان مصمّمًا لاستخدامه في أغراض الموضة، كان من نسيج غليظ يفصل بين اليدين حتى يسمح لهما بالتّشابك في النّهايات. وفي كلتا النّهايتين كان ثمّة حزام يربط بإحكام حول المعصم يتمّ قفله. عندما أعلن الطّبيب المساعد أنّني سأخضع لهذا التّقليد أثناء اللّيل، بلّغني النّبأ بطريقة لطيفة.. لطيفة جدّاً للدّرجة الّتي لم أعرف حينها ما يعنيه ذلك، أو أخمّن لعدّة شهور ماذا سيفعل بي هذا الشّيء. وبالتّالي كان ذلك دافعاً لي حتّى أقوم باستنتاجاتي الخاصّة الّتي لم تُضف الكثير إلى عذابي .

كان مصباح الغاز في غرفتي يقع بعيداً، وكانت هناك حاجة إلى إضاءة أقوى للعثور على ثقوب لقفل القيد ولضبطه. ومن ثمّ كان أحد المرافقين يقف حاملاً شمعة مضاءة. جلس الطّبيب على جانب السّرير وقال: «لن تحاول أن تفعل مرّة أخرى ما فعلته في نيوهفن، أليس كذلك؟» والآن، قد يكون المرء قد فعل الكثير من الأشياء في مدينة عاش فيها لعدّة سنوات لذا ليس بمستغرب أن أخفق في فهم مغزى سؤال الطّبيب. لم يكن الأمر إلّا بعد عدّة أشهر من الحيرة الغامضة حتّى اكتشفت في النّهاية أنّه كان يشير إلى محاولتي الانتحاريّة. لكنّ الشّمعة المحترقة في يد المرافق، والتّشابه بين اسم الطّبيب واسم رجل كانت محاكمته بسبب الحريق المتعمّد وكنت قد حضرتها بدافع من الفضول الخفيّ، قد قادتني إلى تخيّل أنّني كنت على اتّصال بطريقة ما بهذه الجريمة. كنت مقتنعاً بشدّة طوال أشهر أنّني متّهم كشريك في الجريمة.

كان وَضعُ القفّاز المقيّد في يدي هو الحدث الأكثر إذلالاً في حياتي. لقد كانت حلاقة شعر رجلي ووضع لاصق كعلامة شيئا مهيناً، ولكنّ تلك التّجارب لم تسحق قلبي كما فعلت تلك المحنة المريرة. لقد قاومت بضعف، وبعد أن تمّ ضبط القفّاز وتقييدي، بكيت لأوّل مرة منذ انهياري العقليّ.

وأتذكّر بوضوح لماذا بكيت؟ كان المفتاح الّذي يغلق قفل القفاز يبدو في مخيّلتي أنّه لباب المنزل في نيوهيفن الذي اعتقدت أنّني ألحقت به العار ويبدأ قلبي ينفتح للحظة، ليزجّ بي إلى عذاب الألم الذهني، وإلى لحظة من التعقّل، والعاطفة المدركة تماماً، حتّى شعرت بعاري المتخيّل.

تركّزت أفكاري على والدتي. كنت أستطيع أن أرى هي(وغيرها من أفراد الأسرة) بوضوح وأرى المنزل في حالة من الحزن واليأس على ابنها القاسي المسجون. ارتديت القفّاز كلّ ليلة طوال عدّة أسابيع وفي اللّيالي القليلة الأولى تكرّرت الومضات التّعيسة عن المنزل المدمّر لتزيد من معاناتي. لم يكن يتمّ استخدام القفاز المقيّد دائماً كأداة للسّيطرة فحسب. وإنّما كان فضلاً عن ذلك يُستخدم كوسيلة من وسائل التّأديب للعصيان المفترض للمتمرّدين. في كثير من الأحيان كان يتمّ التّغلّب عليّ من قبل اثنين من الممرّضين الّذين كانا يقيّدان يدي ويجبراني على فعل أيّ شيء أرفض القيام به. كانت ذراعي ويدايّ هما أسلحتي الدّفاعيّة الوحيدة. كانت قدماي ما تزالان في الجبس، وكان ظهري مصاباً بجروح بالغة تستلزم استلقائي مسطحاً في معظم الأوقات. وهكذا كنت أخوض معركة غير متكافئة. ولم أكن حتّى

متمتّعاً بالقدرة على التّلفّظ، لأنّني كنت عاجزاً عن الكلام. كان الممرّضون، مثل أغلب المتمين لهذه المؤسّسات، غير قادرين على فهم طريقة عمل ذهني، ومن النّادر أن يتحمّلوا مسؤوليّة ما لم يستطيعوا فهمه. ومع ذلك لم يكن كلّ اللّوم عليهم، لأنّهم ببساطه كانوا ينفّذون أوامر الأطبّاء. أن تطلب من مريض في مثل حالتي أن يأخذ قليلاً من دواء سكّري يبدو أمرا منطقيّا. لكن من وجهة نظري، كان رفضي مبرّرا، فقرص السّكّر البريء المظهر بالنسبة إليّ يبدو مشبعا بدماء الأحبّاء، وبقدر ملامسته كان سفك دمائهم- ربما على ذات المنصّة الّتي كان مقدّرا لي أن أموت فوقها. عن نفسي لم أكن مهتماً، لقد كنت متلهّفاً لأموت، وكنت سألتقط القرص السّكّريّ لو كان لديّ أدنى اعتقاد بأنّه سمّ قاتل. كلّما أسرعت بالموت وكنت منسيّاً، كان ذلك أفضل لجميع الّذين كنت على صلة بهم. إنّ استمراري في العيش ببساطة يعني أن أكون أداة غادرة في يد المحقّقين عديمي الضّمير، الحريصين على إبادة أقربائي وأصدقائي الأبرياء، إذا أمكن لهم حفظ شهرتهم في سجلّ أعمالهم.

لكنّ نادراً ما تتشابه الأفكار المتعلّقة بتناول الدّواء مرّتين، إذ قبل تناول الدّواء يحدث شيء يجعلني أتذكّر أمّي وأبي وبعض الأقارب الآخرين أو صديقاً، فأتخيّل أنّ الامتثال لذلك سيؤدّي إلى فُضح، إن لم يكن في نهاية الأمر سيدمّر ذلك الشّخص المعيّن. من الّذي لا يقاوم عندما يكون القبول اعترافا بالحكم على أمّه أو أبيه بالسّجن، أو الذّلّ، أو الموت؟ لقد كنتُ أهانُ من أجل هذا السّبب، من أجل هذا، خضعت للتّقييد الوحشيّ. لقد ظنّوا أنّني شخص عنيد بالمعنى الدّقيق

للكلمة. الرّجال والنّساء العنيدين الحقيقيّون في هذا العالم عقلاء، ويمكن تقدير مدى انتشار الصّحّة العقليّة تقريبا عن طريق عناد المجتمع ككلّ. فعندما يمتلك المرء قوّة الاعتراف بأخطائه ويستمرّ في التّمسّك باعتقاد مجانب للعقل، فهذا هو العناد. لكن بالنّسبة إلى رجل يفتقر إلى العقل ويتمسّك بفكرة تبدو له صحيحة تمامًا لأنّه حرم من وسائل اكتشاف خطئه، فذلك لا يسمّى عناداً. إنّه أحد أعراض مرضه، ويستحقّ حينها التّساهل بصبر، إن لم يكن التّعاطف الحقيقيّ. بالتّأكيد، المبتلى لا يستحقّ العقاب. كما يعاقب بانتفاخ الخدّ الّذي يشوّه النّكاف. المرافق الّذي كان يجنّبني معظم الوقت في المصحّة كان من ذلك النّوع الّذي سبق ذكره. ومع ذلك، كنت أنظر إليه على أنّه مخبر، أو بالأحرى، أحد المحقّقين، الّذين كان أحدهم يراقبني في النّهار، والآخر- عميل مزدوج مثاليّ - في اللّيل. لقد كان عدوّا، وكان تعاطفه المعلن - الّذي أعرف الآن أنّه كان أصليّا- قد جعلني أكره أكثر. ولأنّه كان يجهل أساليب العلاج في مستشفيات الأمراض العقليّة، فقد تجرّأ قبل أسبوع على تعريض وظيفته للخطر بزعم أنّه كان يحميني من أوامر غير حكيمة من الأطبّاء. ولكن عندما أفاق أخيراً على الوضع، تدخل مراراً وتكراراً نيابة عنّي. وأكثر من مرة هُدّد بالفصل من طرف الطّبيب الّذي كان المالك والمشرف على حدّ سواء، بتهمة التّجاوز والتّدخّل في شؤون الآخرين.

لكنّ الحكم الصّائب كان دائما ما يكبح جماح غضب الطّبيب، لأنّه أدرك أنهُ لم يكن المرافق الوحيد فقط من بين المئات وأنّهُ لم يكن مؤهّلًا لتولّي موقعهِ. ولم يكتف المرافق الودود باستعراض حكمته أكثر من

المشرف، لكنّه امتثل أيضا لإملاءات الضّمير أكثر من رئيسه، الطّبيب المساعد. في ثلاث مناسبات، عاملني هذا الرّجل بسوءِ اهتمام ملحوظ، وفي حالة واحدة على الأقلّ كان شرّيراً. وعندما وقع الحادث الأخير كنت عاجزًا جسديا وذهنيًا، كانت قدماي متورّمتان وما تزالان في الضّمّادات الجصّيّة. كنت عاجزًا عن الكلام، أنطقُ فقط ببعض ببعضِ الكلمات حينَ أُجبرتُ على القيام بأعمال ضدّ إرادتي.

في صباح أحد الأيّام، دخل طبيب بلا اسم (يمثل نوعاً من الأطباء) غرفتي.

"صباح الخير! كيف حالك؟" سألني.

لا إجابة.

"ألا تشعر بتحسّن؟"

لا إجابة.

"لماذا لا تتحدث؟" سألني بتوتّر.

ما زالت لا توجد إجابة، ربّما باستثناء نظرة ازدراء عادة ما تكون معبّرة جدّا. فجأة ودون سابق إنذار، كما لو أنّ طفلاً غاضبا ومحبوسا في غرفة العصيان تعامل مع وسادة، فقد أمسك الطّبيب بذراعي ورمى بي من فوق السّرير. لقد كان من حسن حظّي أنّ عظام كاحلي وأصابع قدمي لم تصب. وكان ذلك هو تصرّف الرّجل الّذي قيّد يدي حتّى لا أقوم بإيذاء نفسي!

"لماذا لا تتحدّث؟" سألني مرّة أخرى.

وعلى الرّغم من ردّي البطيء نوعاً مّا، سيسعدني أن أقوم بإرسال

نسخة من هذا الكتاب- جوابي – لهذا الطبيب إذا أراد ذلك، لكن عليه أن يرسل إليّ عنوانه.

ليس من الواجبات الّتي تسعد المرء أن يؤدّيها أن تقوم بوصم أيّ طبيب بالقسوة وعدم الكفاءة، لأنّ أسوأ من عاش على الإطلاق دون شكّ قام بعمل الكثير من الأعمال الصّالحة دون شكّ. ولكنّ هذا النّوع من الرّجال تسبب في صنع الفوضى في عقل مختلّ لا حول له ولا قوة. ويمثّل المالك النّوع الّذي له أرباحاً طويلة جداً من خلال مصائب الآخرين.« ادفع الثمن أو خذ قريبك إلى مصحّة حكوميّة!» ذلك كان هو العبء الّذي تحمله كلماته المنفّرة قبل الالتزام. «ادفع أو تطردا» ذلك أيضاً هو العبء الّذي يُضعه على أكتاف الأسرة عندما يعلم أنّ مواردها الماليّة قد نفدت. علمت أنّ هذا المالك الطّماع قد تفاخر مؤخّراً بتحقيقه أرباحا قدرها 98.000 دولارا في عام واحد. بعد حوالي عشرين عاماً، ترك ممتلكات تقدّر بحوالي 1.500.000 دولاراً. ومع ذلك، بعض من هذه الأموال، الّتي استُلبت من المرضى وأقاربهم في الماضي قد يستفيد منها بعض المصابين في المستقبل، ففي ظلّ وصيّة المالك سوف يذهب في نهاية الأمر مئات الآلاف من الدّولارات كهديّة للمؤسّسة.

الفصل التاسع

تمَّ علاجُ كاحليّ في المصحّة حيث عادا إلى ما كان عليه من قبل إلى حدّ مّا. لقد خضعا لدورة من العلاج القويّ، لكنّهم سمحوا لي بالمشي اليوميّ، أو الرّكض، أو الرّقص، أو لعب التّنس والجولف، مثل هؤلاء الّذين لم يكونوا معاقين من قبل، ساعات تعذيبي الّتي تعرّضت لها في أولى محاولات المشي يسعدني تذكّرها. بعد حوالي خمسة أشهر من إصابتي، سمح لي، أو أرغمت على وضع قدميّ على الأرض ومحاولة المشي.

كان كاحليّ ما زالا منتفخين وحسّاسين بشكل حادّ لأدنى ضغط. من الوقت الّذي أصيبا فيه حتّى بدأت في الكلام مرّة أخرى -بعد عامين- لم أُسأل سؤالا واحداً حول احتماليّة تمكّني من استعادة استخدامهما. في الواقع، لم أتوقّع أبدًا أن أمشي بشكل طبيعيّ مرّة أخرى. رغبة الأطبّاء في التّريض معي اعتقدت أنّها مدفوعة برغبة المحقّقين في الواقع، افترضت أن يكون الطّبيب نفسه هو واحد منهم. لو كان ثمّة اعتراف، فإنّني على يقين من أنّه كان من الممكن الصّراخ به تحت ضغط هذا التّعذيب المطلق. ملايين الحقن الّتي سبقت انهياري العقليّ، بدت وكأنّها تنخر عقلي، الآن تركّز اهتمامها غير المرحّب به على باطن قدمي. ولو كانت الأرضيّة معبّدة بأحذية

صغيرة، فإنّ معاناتي ما كانت لتكون أقلّ شدّة من ذلك. لعدّة أسابيع كان احتياجي للمساعدة في كلّ محاولة للسّير أمراً ضروريّاً، وكانت كلّ محاولة عذابًا في حدّ ذاته. تجمُّعات حبّات العرق على كلتا القدمين، اعتصرت من دمائي بسبب الألم. معتقدا أنّها مسألة وقت حتّى تبدأ محاكمتي وإدانتي، وإعدامي من أجل واحدة من جرائمي المتعدّدة، كان الدّافع وراء محاولة شفائي من الإعاقة في أيّامي القصيرة المتبقّية راجعاً لأيّ شيء آخر سوى عمل الخير.

كان من الممكن أن يبرهن المشرف على أنّه أكثر إنسانيّة لو أنّه لم يوجّه الأمر إلى مرافقي بأن يتوقّف عن استخدام الدّعم، كان مستمرّاً حتّى تمّت إزالة الضّمّادات الجصّيّة، كان يمُكّنني من الحفاظ على ساقي في وضع أفقيّ كلّما جلست. كان أمره إليّ أن أضع قدمي على الأرض وأبقيها هكذا، سواء كان الأمر مؤلماً أم لا .

بطبيعة الحال، صار الألم شديداً عندما بدأ الدّم يتدفّق بحرّيّة مرّة أخرى من خلال الأنسجة الّتي لم يسبق تعرّضها لهذا الضّغط الكامل، وكان واضحاً للغاية أنّ المرافق قد تجاهل أمر الطبيب وساعدني سرّاً .

كان يقوم بإزالة الدّاعم الممنوع لبضع دقائق فقط في كلّ مرة، ممّا يؤدّي إلى إطالة أمد الفاصل الزّمنيّ تدريجيّاً إلى أن تمكّنت أخيراً من القيام بذلك دون الحاجة إلى الدّعم مطلقًا.

بعد فترة طويلة، كلّ يوم ولعدّة أسابيع أُجبرت على التّحرّك وأخيراً المشي في الغرفة ذهاباً وإياباً ومن ثم العودة إلى السّرير.

زادت المسافة التي أتحركها وتقلّص الألم نوعاً ما. حتّى تمكّنت من المشي دون المزيد من الألم الذي لم يكن أكثر من إحساس طفيف نسبيًّا

بالعرج. لمدّة شهرين على الأقلّ بعد أن وطئت قدماي الأرض لأوّل مرّة، كان يجب حملي إلى الطّابقين السّفليّ والعلويّ، ولعدّة أشهر كنت أسير بعرج في قدمي.

أوهام الاضطهاد-الّتي شملت «أوهام المرجعيّة الذّاتيّة»- على الرّغم من كونها مصدرًا للإزعاج في الوقت الّذي كنت فيه في حالة غير نشطة، أزعجتني ووتّرتني، أكثر وأكثر، خاصة عندما بدأت في التّحرّك واضطررتُ إلى التّواصل مع المرضى الآخرين. بالنّسبة إلى عقلي، لم يكن الأطبّاء والمراقبون المرافقون فقط، كان كلّ مريض بالنّسبة إليّ محقّقاً وكانت المصحّة بأكملها جزء من عملية التّحقيق معي. ونادرًا ما لم أقم بتحريف أيّ ملاحظة أثناء وجودي وتحويلها إلى إشارة خفيّة، إلى شيء يتعلّق بي. في كلّ شخص استطعت أن أرى شبهًا بأشخاص كنت أعرفهم، أو المسؤول، أو ضحايا الجرائم الّتي تخيّلت نفسي متّهما بها. رفضت أن أقرأ، لأنّ قراءة التّهم المفتعلة والفشل في تأكيد براءتي كانا تجريباً لنفسي وللآخرين. لكنّي نظرت برغبة شديدة إلى جميع الموادّ المطبوعة، كما كان فضولي مثارًا بشكل مستمرّ، وازداد ذلك الامتناع القسري وأصبح لا يمكن تحمّله.

أصبح من الضّروريّ لمحفظة الأسرة مرّة أخرى أن يتمّ توفير كلّ المدّخرات الممكنة. وبناء على ذلك، نُقلت من المبنى الرّئيسيّ حيث كانت لديّ غرفة خاصّة ومشرف خاصّ، إلى جناح مختلط تحت إشراف كلّيّ، مع خمسة عشر أو عشرين مريضًا آخر. ولم يكن لديّ مرافق خاصّ في النّهار، على الرّغم من أنّ أحدهم كان ينام بغرفتي أثناء اللّيل. من هذا الجناح سمعت تقارير مفزعة - وكانت من شفاه

العديد من المرافقين. كنت منزعجاً للغاية من ذلك اقتراحُ نقلي إلى مصحة أخرى. ولكن، تمّ تنفيذ النّقل بعد بضعة أيّام وأحببت مكاني الجديد أكثر من المكان السّابق. طوال الوقت الّذي بقيت فيه في المصحّة، كنت أكثر تأهّباً ذهنيّاً ممّا أعطيت دليلا على ذلك. ولم يكن إلّا بعد إقصائي إلى هذا الجناح، حيث كنت أترك لساعات وحدي كلّ يوم، حتّى تجرّأت على إظهار تيقّظي الذّهني. تجاوبت في مناسبة واحدة على سبيل المزاح مع المرافق المسؤول. كان يحاول إقناعي بأخذ حمّام. رفضت ذلك، أساساً لأنّني لا أحبّ منظر الحمّام الّذي يشبه بأرضيّته الإسمنتية ومصرفه المركزيّ، الغرفة الّتي تغسل فيها المركّبات في الإسطبلات الحديثة.

بعد كلّ ذلك، حاول المرافق تمثيل دور المتعاطف.

قال: "الآن أعرف كيف تشعر، يمكنني أن أضع نفسي في مكانك".

"حسناً، إذا أمكنك، افعلها واستحم بنفسك." كان ذلك ردّي الحاسم.

كانت هذه الملاحظة رائعة وعلى نقيض من مصدر الكآبة الّتي هربت. «هربت» هي الكلمة المناسبة، للخوف من أنّه عليّ أن أعجّل محاكمتي من خلال عرض قدر كبير من الصّحّة العقليّة أو البدنيّة، الذي كان على عاتقي بالفعل، ويسيطر بشدّة على الكثير من سلوكي، خلال الأشهر المتعاقبة من الاكتئاب.

الآن بعد أن أصبحت غير مضطرّ إلى ذلك، كنت أقضي ساعات عديدة في غرفتي، وحيداً، ولكن ليس بمفردي، لأنّ أعين المخبرين بطريقة مّا كانت ترقبني على الدّوام. بيد أنّ العزلة منحتني الشّجاعة،

وسرعان مّا بدأت في القراءة، بغضّ النّظر عن العواقب.

أثناء فترة الاكتئاب كلّها، كان كلّ منشور مكتوب يبدو أنّه طبع من أجلي، ولي وحدي. الكتب، المجلّات، والصّحف، بدت كلّها إصدارات خاصّة من أجلي. كنت أعرف جيّداً كم ستكون باهظة كلفة مثل هذا الإجراء حيث لم أشك بأيّ حال من الأحوال في اعتقادي بذلك. في الواقع، كانت فكرة أنّني أكبّد الأشخاص الّذين يضطهدونني مقدارا رائعًا من الأموال هي مصدر للرّضا السّرّيّ لديّ. لقد عزّز إيماني بذلك أنّ الطّبعات الخاصّة من الصّحف كانت تبدو تافهة للغاية بحيث لا يوجد مبرّر لنشرها إلّا في طبعات تصدر لغرض خاصّ. أتذكّر إعلان سخيف بشكل ملحوظ، ظهرت فيه عبارة «سمك أخضر مزرق». في ذلك الوقت لم أكن أعلم أنّ كلمة «أخضر» كانت تعبيراً يستخدم للدّلالة على شيء «جديد» أو «غير مملح». خلال المراحل المبكّرة لمرضي، كنتُ قد فقدتُ القدرة على حساب الوقت، والتّقويم لم يصحّح نفسه حتّى اليوم الّذي استعدت فيه قدراً كبيرا من تعقّلي. في هذه الأثناء كان تاريخ كلّ صحيفة، حسب إدراكي، أسبوعين سابقين. وهو ما أكّد اعتقادي في شأن الطّبعات الخاصّة كجزء من التّحقيق. يعتقد معظم الأشخاص العقلاء أنّه لا يمكن لأيّ شخص أن يتحدّث بطريقة منطقية. لكن هذا ليس هو الأمر. فمعظم الاستدلالات المنطقيّة مبنية على مقدّماتٍ مخالفة للمنطق، في الوقت الّذي كان وضع عقلي أكثر حالاته اضطراباً. أعتقد لو أنّ الصّحف الّتي قرأتها كانت في الأوّل من فبراير تحمِل تاريخ يناير، ربّما لم أكن لأعتقد لوقت طويل بفكرة الطّبعات

الخاصّة. ربّما كان ينبغي عليّ استنتاج أنّ الطّبعات المنتظمة قد تمّ تأخر وصولها. ولكنّ الصّحف الّتي قرأتها كانت مؤرّخة قبلَ أسبوعين. والآن لو أنّ شخصًا عاقلاً تلقّى في الأوّل من فبراير صحيفة مؤرّخة 14 فبراير، فسيكون ذلك مبرّراً تماما للتّفكير في أنّ ثمّة شيء خاطئ، سواء كان في المنشور أو في نفسه. لكنّ التّقويم المسبق الّذي زرع في ذهني كان يعني لي الكثير كما يفعل التّقويم الحقيقيّ لأيّ رجل أعمال عاقل.

خلال سبعمائة وثمانية وتسعين يومًا من الاكتئاب، قمت باستدلالات خاطئة لا حصر لها. ولكنّها كما كانت خاطئة، كانت استدلالات، ولا يمكن تحدث تلك العمليات أساساً إلّا في عقل منتظّم.

على الرّغم من أنّ ازدياد حيويّتي تدريجيّاً زاد هذا من خوفي من المحاكمة، إلّا أنّه دفعني إلى خوض مخاطر جديدة. لقد بدأت أقرأ ليس فقط الصّحف ولكن أيضاً الكتب الّتي وضعت في متناول يدي. مع ذلك لو لم يتمّ وضعهم هناك، كنت سأذهب من دونهم، لأنّني لم أكن لأسأل حتّى عمّا كنت أرغب فيه بشدّة وأعرف أنّني أستطيع أن أطلبه. مهما كان حبّي للأدب، لديّ الآن تواريخ تتعلّق بذلك الوقت الّذي كنت فيه غير مؤهّل عقلياً وحبيساً في مصحّة. كان كتاب لجورج إليوت ملقى على الرّفّ في غرفتي لعدّة أيام، كنتُ ألقي عليه نظرات متشوّقة وأخيراً امتلكتُ الشّجاعة لأتناوله وأقرأ منه القليل من آن لأخر. كان ذلك جيّداً للغاية لأنني أصبحت جريئاً وبدأت أخيراً في قراءة الكتاب بشكل مُكثف. لقد ترك هذا الكتاب في ذلك الوقت أثرًا

ضعيفًا على ذهني، لكنّني فعلاً استمتعت به. قرأت أيضًا بعض مقالات أديسون ، كنت محظوظاً بما يكفي وفي وقت مبكر من حياتي لأتعرّف على مثل هذه الأمور ، ربّما تجنّبتُ وهمَ أنّهُ يمكنني اكتشاف الأدوار المتغيّرة لمن يضطهدونني من خلال العديد من الفقرات.

حاول المرافق الودود، الّذي انفصلت عنه، أن يرسل خدماته إليّ في مقرّي الجديد. في البداية، جاء شخصيّاً لرؤيتي، لكنّ المراقب سرعان ما منع ذلك وأمره أيضا ألّا يتواصل معي بأيّ شكل من الأشكال. كان هذا بسبب الخلاف الّذي ينشأ بشكل طبيعيّ بين طبيب ومرافق، وسرعان ما أدّى هذا الخلاف المقيت إلى فصل الأخير عن العمل. لكنّ «الفصل» ليست هي الكلمة الصحيحة، لأنّه كان كثير الاشمئزاز من المصحّة، وقد عمل لوقت طويل فيها ولكن صبره وصمته كان بسبب اهتمامه بي. وعند مغادرته، أبلغ المالك أنّه سرعان ما سيعمل على إخراجي من المصحّة.

هذا ما فعله. لقد غادرت المصحّة في مارس 1901 ، وبقيت لمدّة ثلاثة أشهر في منزل ذلك الرّفيق المتواضع، الّذي كان يعيش مع جدّته وخالته في والينجفورد، وهي مدينة ليست بعيدة عن نيوهيفن. وللأسف أنه لا يمكن الاستدلال على أنّني تمتّعت بأيّ عاطفة تجاه حارسي الودود. لقد واصلت اعتباره عدوّا، وأصبحت حياتي في منزله جولة رتيبه من الاستياء. كنت أتناول وجباتي الثّلاث اليوميّة وأجلس بلا حراك لساعات في المنزل. ويوميّا كنت أذهب –بمرافقته بالطّبع– لنزهات قصيرة حول المدينة، لم تكن ممتعة. فقد كنت أعتقد أنّ الجميع على دراية بالسّجلّ الأسود ويتوقّعون أنّني سوف أعدم. في

الواقع، كنت أتساءل لماذا لا يلعنني المارّة أو يلقون الأحجار عليّ. ذات مرّة كنت متيقّناً من أنّني سمعت فتاة صغيرة تنعتني «بالخائن!» أعتقد أنّ ذلك كان «الصّوت الزّائف» في عقلي، لكنّه جعل هذا الانطباع بأنّني يمكنني حتّى الآن تذكّر بوضوح ظهور تلك الطّفلة المروّعة. وأيضاً لم يكن أبداً من المستغرب إلي أنّ قطعة من الحبل، قديمة ومهترئة، قد ألقاها شخص ما بلا مبالاة على سياج مقبرة كنت أمرّ عليها في بعض الأحيان، تمثل أهمّيّة كبيرة بالنّسبة إليّ.

خلال هذه الأشهر الثّلاثة، رفضت مرّة أخرى قراءة الكتب، رغم أنّها كانت في متناول يدي، لكنّني أحياناً كنت اقرأ الصّحف. ومع ذلك، لم أكن أتحدّث، إلّا في ظلّ حدوث بعض التّوتّر العاطفيّ غير العاديّ. المرّة الوحيدة الّتي أخذت فيها زمام المبادرة الحديث، كان وقت إقامتي بالمنزل مع مرافقي، كان يوماً بارداً وثلجيّاً للغاية عندما تجرّأت أن أخبره بأنّ الرّيح قد أوقعت البطّانية من فوق الحصان الّذي كان يقف لوقت طويل أمام المنزل. كان المالك قد جاء إلى الداخل ليجري بعض الأعمال مع أقارب المرافق. حينها ذكّرني مظهره بالعمّ الّذي أهديت إليه هذا الكتاب. تخيّلت أنّ الزّائر الغامض كان ينتحل شخصيّته واستنتجت من خلال إحدى عمليّاتي العقليّة الفضوليّة أنّه كان من واجبي أن أفعل للحيوان الغبيّ الّذي يقف في الخارج، تماماً كما كنت أعرف أنّ عمّي كان سيفعل لو عرف بمحنته. كنت أعتقد أنّ شعوري باللّياقة كان قد تلاشى وإلى الأبد. لكنّني لم أستطع التّحمّل، في هذه الحالة، أن أكون غير جدير بقرابتي لعمّي، الّذي اشتهر بين الّذين عرفوه بعطفه وإنسانيّته. كان مرافقي وأقاربه طيّبون جدّاً،

وصبورون جدّا، لأنّني كنت لا أزال أعيش حالة مستعصية على الحلّ. لكنّ جهودهم جعلتني أشعر بالرّاحة، وبقدر ما كان لها تأثيرها، جعلت رغبتي شديدة في قتل نفسي.

لقد تملّصت من الموت، لكنّي كنت أفضّل أن أموت بيدي وأن يلقى باللّوم عليّ، بدلاً من أن أعُدم وأعرّض عائلتي وأصدقائي للعار وربّما أضيف لهذا العار جامعتي «ييل». لأنّني أدركت أنّ الآباء في المدينة سوف يمنعون أبناءهم من الالتحاق بالجامعة الّتي يعد هذا الكائن الدّنيء من بين خرّيجيها. لكن بعيداً عن أيّ عمل مأساويّ كنت مقيّدا من خلال الوهم الّذي ولّد لديّ هذه الرّغبة.

الفصل العاشر

أنا في وضع لا يختلف عن «رجل ظهر اسمه في سجلّ الوفيّات قبل موتهِ». قليل هم الّذين لديهم فرصة أفضل منّي لاختبار عاطفة أقربائه وأصدقائه. هذا المنجّم من الأصدقاء والأقارب قام بواجبه طوعًا وهو بطبيعة الحال مصدر دائم للرّضا بالنسبة إليّ. في الواقع، أعتقد أنّ هذا التواصل المستمر والتّفاني هو أحد العوامل الّتي جعلت من الممكن بالنّسبة إليّ أن أعود مرّة أخرى لأداء واجباتي في المجالين الاجتماعيّ والتّجاريّ بارتياح مستمرّ. أستطيع الآن، في الواقع أن أرى ماضيّ بصفته أمراً واقعاً كما هو الحال بالنّسبة إلى الّذين عاشوا حياتهم بشكل منتظم وهادئ.

لقد رأيت عدداً كبيراً من المرضى الّذين أهملهم أقاربهم، ممّا جعلني أشعر بامتنان أعظم، وخاصّة بسبب صعوبة التّواصل الودود الّذي تمّت المحافظة عليه خلال السّنوات الثّلاث الّتي كنت مريضًا فيها. حيث كان الأقارب والأصدقاء يزورونني بشكل متكرّر لرؤيتي. حقيقة، إنّ هذه الزّيارات كانت محاولة من الجميع لإبداء اهتمامهم، لكنّني لم أتحدّث إلى أحد ولا حتّى مع أمّي وأبي. على الرّغم من أنّهم ظهروا جميعا كما اعتادوا أن يظهروا، إلّا أنّني تمكّنت من اكتشاف بعض الاختلاف الطّفيف في الشّكل أو الإيماءة أو نبرة الصّوت، وكان هذا كافياً لتأكيد اعتقادي بأنّهم منتحلون لشخصيّتهم ومشاركين في مؤامرة، ليس لمجرّد إيقافي ولكن لتجريم أولئك الّذين انتحلوا شخصيّتهم. لذا لم يكن من المستغرب أنّني رفضت قول أيّ

شيء لهم أو السّماح لهم بالاقتراب منّي. لقد قابلت المرأة الّتي كانت والدتي، لكنّني كنت أعتقد أنّها متآمرة فيدراليّة، وهو ما كان يمكن اعتباره خيانة. كانت هذه المقابلات من أصعب ما يكون بالنّسبة إلى أقاربي وأصدقائي أكثر منّي. لكن حتّى بالنّسبة إليّ، كانت محنة، وعلى الرّغم من أنّني عانيت في هذه اللّحظات أقلّ ممّا عاناه زائريّ، فقد كان حجم معاناتي أكبر، لأنّني كنت أتوقّع استمرار هذه الزّيارات غير المرغوب فيها، ولكنّها كانت مفيدة في نهاية المطاف. لنفترض أنّ أقاربي وأصدقائي ظلّوا بمنأى خلال هذه الفترة الميؤوس منها، ماذا ستكون مشاعري تجاههم اليوم؟ دع الآخرين يجيبون.

لأكثر من عامين، اعتبرت كلّ الرّسائل مزوّرة. ومع ذلك، جاء اليوم الّذي أقنعت نفسي بصدقهم وبصدق محبة أولئك الّذين أرسلوها إليّ. ربّما وجد الأشخاص الّذين لديهم أقارب بين أكثر من ربع مليون مريض في مؤسّسات هذا البلد بعض الرّاحة في هذه الحقيقة. ولكي تكون في الجانب الآمن والإنساني، دع كلّ قريب وصديق للأشخاص المصابين يتذكّر هذه القاعدة الذّهبيّة، التي لم تُعطل مطلقاً فيما يتعلّق باحترام الشّخص المجنون. «اذهب لرؤيتهم. عاملهم برويّة. اكتب إليهم. أبقهم على علم بما يحدث في البيت. لا تدع ولاءك يضعفُ، ولا تقبل أيّ صدّ».

كان الإجماع على أنّه من غير المحتمل أن تتحسّن حالتي على الإطلاق، وكانت مسألة إيداعي في مؤسّسة ما حيث توضع الحالات غير القابلة للعلاج مطروحة من أجل اتّخاذ قرار. وبينما كان يجرى النّظر في الأمر، ظلّ مرافقي يؤكّد لي أنّه لن يكون ضروريّا وضعي

بمصحّة عقلية إذا أظهرت بعض التحسّن. لذلك، اقترح مراراً أن أذهب إلى نيو هيفن وقضاء يوم في البيت. في ذلك الوقت، أتذكّر أنّني كنت صامتاً، لذا كنت غير قادر على الخداع عبر حديثي، فقد دبّر مرافقي صباح يوم من الأيّام قميصاً أكثر أناقة من الّذي أرتديه عادة، وأخبرني أن أرتديه إذا تمنّيت القيام بهذه الزّيارة. في ذلك اليوم، استغرق الأمر وقتاً طويلاً على نحو غير معتاد لارتداء الملابس، ولكن في النّهاية ارتديت الملابس المخصّصة. وهكذا خدع ذلك الجزء من عقلي الجزء الآخر. هكذا ببساطة اخترت بين أقلّ الشّرين. كان الشّرّ الأكبر أن أجدني مرّة أخرى نزيلاً بالمصحّة. لا شيء آخر كان سيحثّني على الذّهاب إلى نيوهفن. لم أكن أرغب في الذّهاب. حسب علمي واعتقادي، لم يكن لديّ بيت هناك، ولا أيّ أقارب أو أصدقاء للتّرحيب بي عند عودتي. كيف يمكنهم التّرحيب بي، حتّى لو كانوا ما يزالون أحراراً، كيف سيقتربون منّي وأنا محاط بالمخبرين؟ ثمّ أيضاً، كانت لديّ شكوك كامنة حولَ أنّ عرض مرافقي كان فقط لاعتقاده أنّني لن أجرؤ على قبوله. بإلزامه بكلمته، أدركت أنّه ستكون على الأقلّ ثمّة فرصة لاختبار حقيقة العديد من التّصريحات بخصوص بيتي القديم.

لقد أصبحت الحياة غير قابلة للدّعم، وعبر موافقتي على إجراء هذه الزّيارة التّجريبيّة كانت الرّغبة في تحدّي المحقّقين في عرينهم، بغضّ النّظر عن العواقب. مع هذا والعديد من الانعكاسات الأخرى الّتي بدأتها في القطار. كانت أحداث الرّحلة التّالية سريعة. سرعان ما وصلنا إلى محطّة نيوهفن، وكما توقّعت، لم يكن هناك قريب أو صديق

للتّرحيب بنا. هذه اللّامبالاة الظّاهرة، دعمت شكوكي في أنّ مرافقي لم يخبرني الحقيقة، لكنّني وجدت القليل من الرّضا في كشف خداعه، فكلّما ازداد خداعه أثبت أنّه شخص كاذب، كان الأمر الأسوأ سيكون تعهّدي. مشينا إلى واجهة المحطّة ووقفنا هناك لنحو نصف ساعة. تسبّبت الصّيغة المؤسفة، والبديهيّة للسؤال في التّأخير.

«حسناً، هل نذهب إلى البيت؟» قال مرافقي.

كيف يمكن أن أقول،"نعم"؟ لم يكن لديّ بيت. كنت متأكّداً من أنّني يجب أن أقول في النّهاية"لا"، وحيث أنّه طرح السّؤال بهذا الشّكل، بوعي أو دونه، فقد نبّه للأمر.

«هل نذهب إلى 30 شارع ترمبل؟» هذا ما كنت أنتظره. بالتّأكيد، كنت سأذهب إلى البيت المقصود بالرّقم. لقد جئت إلى نيوهيفن لأرى ذلك البيت، وكان لديّ أمل ضعيف أنّ مظهره ومظهر السّاكنين فيه ربّما يكون مقنعاً.

في البيت، كانت زيارتي بمثابة مفاجأة كاملة. لم أستطع أن أصدّق أنّ أقربائي، إذا كانوا أقربائي، لم يتمّ إخبارهم عن وجودي بالمدينة، وأكّدت كلماتهم وأفعالهم عند وصولي ما ساورني من شكوك فأطفأوا الأمل الضّعيف الّذي كنت أتمسّك به لفترة وجيزة .

كان المضيفون ببساطة نفس المضطهدين القدامى الّذين كان لديّ الكثير لأفعله بشأنهم. بعد فترة وجيزة من وصولي، تمّ تقديم العشاء. جلست في مكاني القديم على الطّاولة، وأعجبت سرّاً بمهارة الشّخص الّذي تلا الصّلاة لتقليده صوت الأب. لكن لماذا عن خسارة الأسرة! – لقد تخيّلت أنّ أقاربي قد تمّ نفيهم ووضعهم بالسّجن وأنّ البيت القديم قد تمّت مصادرته من الحكومة!

الفصل الحادي عشر

على الرّغم من أنّ ساعاتي القليلة في المنزل فشلت في إثبات أنّني لم أعد أنتمي إلى المصحّة، إلّا أنّها خدمت غرضًا واحدًا جيّداً. إذ أن بعض الأقارب الّذين عارضوا إيداعي في المصحّة وافقوا الآن على أنّه لا يوجد بديل، وبناء على ذلك، فإنّ شقيقي الأكبر عيّن نفسه ليكون "الوصيّ عليّ". كان يفضّل منذ وقت طويل اتّخاذ هذا الإجراء، ولكنّ أقارب آخرين كانوا قد نصحوه بالتّأخّر. لقد عمد هؤلاء إلى الرّدع عن طريق الفزع الفطريّ من رؤية أحد أفراد العائلة يتمّ وصفه قانونيًا بعدم الكفاءة العقليّة، وإلى حدّ ما، وصمهم بالسّلوك العامّ وغير المبرّر تجاه المرض العقليّ والمؤسّسات الّتي تعامل فيها الحالات العقليّة .

كانت الفكرة ذاتها منفّرة، وإحساس خاطئ بالواجب -وربّما اقتراح بالفخر- يقودهم إلى أن يتمنّوا خروجي من مثل هذه المؤسّسة لأطول فترة ممكنة. ورغم أنّه في الوقت الّذي كنت أخاف من إيداعي في المصحّة، كان أفضل شيء محتمل يمكن أن يحدث لي. أن أكون، كما كنت، في العالم ولكن لست جزء منه، كل هذا كان شيئاً مثيراً للسّخط. الاحتكاك المستمرّ الّذي لا مفرّ منه في ظلّ هذه الظّروف - ظروف مثل وجودي في منزل مرافقي- لا يمكن إلّا أن تؤدّي إلى تفاقم الاضطراب العقليّ. خاصّة لهؤلاء الّذين يعانون من أوهام الاضطهاد.

مثل هذه الأوهام تتضاعف مع تعقيدات الحياة الّتي تسيّرها. حتّى الرّوتين المستمرّ للحياة المؤسّساتيّة الّذي يوفّر التّأثير الهادئ الّذي لا غنى عنه، شرط أن ينفذ هذا الروتين بشكل جيّد، ولا يفشل من قبل الإزعاج الّذي يفرضه الجهلاء أو الأطبّاء والمرافقين غير الأكفاء.

تمّ إيداعي في 11 من يونيو عام 1901، داخل مصحّة خاصّة مستأجرة ولكنّها غير ربحية، وكانت تعتبر واحدة من الأفضل في نوعها وكانت ذات موقع جيّد. على الرّغم من أنّ الموقع والمنظر كان محدوداً، إلّا أنّ مساحات شاسعة من العشب كانت تحيط بها مجموعة من الأشجار مثل غابة قديمة، أعطت المكان طابعاً كان له تأثير على علاجي. كان مكان إقامتي مريحاً، وبعد وقت قصير تأقلمت مع بيئتي الجديدة.

وجبة الإفطار كانت تقدّم حوالي السّابعة والنصف، على الرّغم من أنّ الوقت قد يتغيّر بطريقة ما وفقا للموسم، إذ كان أبكر في موسم الصّيف ومتأخّراً في فصل الشتاء. في الرّبيع، والصّيف، والخريف، عندما كان الطّقس مواتياً، كان يتمّ أخذ القادرين على الخروج من الأبواب بعد الإفطار للمشي داخل الأراضي أو حيث سمح لهم بالتّجوّل في الحديقة والجلوس تحت الأشجار حيث يظلّون ساعة أو ساعتين في كلّ مرّة.

كان يتمّ تقديم العشاء عادة بعد الظّهر بقليل، وحينها يتمّ إخراج المرضى النّشطين مرّة أخرى من الأبواب، حيث يبقون ساعة أو ساعتين يفعلون الكثير ممّا يحلو لهم، ولكن تحت عيون المراقبة. وحوالي الثّالثة والنّصف يعودون إلى عنابرهم، ليبقوا هناك حتّى اليوم التّالي-

باستثناء أولئك الّذين كانوا حريصين على حضور المراسم الدّينيّة الّتي كانت تعقد بعد ظهر كلّ يوم تقريبا مع جوقة تراتيل موهوبة .

في جميع المصحّات، يذهب المحجوزون في مختلف العنابر إلى الفراش في ساعات مختلفة، وينام المرضى المؤدعون في أفضل العنابر عند السّاعة التّاسعة أو العاشرة. وأمّا الّذين هم في العنابر الّتي تعالج فيها الحالات الأكثر إزعاجاً، فيعودون إلى الفراش عادة في السّاعة السّابعة أو الثّامنة. أمّا أنا، أثناء خضوعي للعلاج، فقد كنت أنام في جميع الأوقات، حتّى أكون في وضع أفضل لأتمكّن من وصف كلّ ما هو غامض، بطريقة ما، واحدة من أعظم الجمعيّات السّرّيّة في العالم. سرعان ما اعتدت على الرّوتين المتّفق عليه إلى حدّ ما، وحيث أنّني لم أكن مثقلاً بالأوهام الّتي جعلتني أسيراً للشّرطة ، وأبقتني غريباً عن عالمي القديم، كان يجب أن أستمتع على الرّغم من كلّ شيء بوجودي السّعيد نسبيّا .

لم يتحقق هذا الشّعور الجديد بالرّضاء المقارن من خلال أيّ تحسّن ملحوظ في الصّحّة. لقد كان ناتجاً مباشرة وبالكامل عن البيئة أكثر ممّا هو نتاج توافقه مع عقلي الضّعيف. وبينما كنت محاطا بالعقلاء كان نقصي العقليّ واضحا بشكل مؤلم بالنسبة إليّ، وكذلك للآخرين. كان شعوراً بالتّفوق يؤكّد وجوده هنا، لأنّ العديد من شركائي كانوا، في رأيي أقلّ شأناً منّي. لكنّ هذا التّحفيز لم يؤثّر عليّ مرّة واحدة. لعدة أسابيع، اعتقدت أنّ المصحّة ستمتلئ من قبل محقّقين، يتظاهرون بالجنون. كانت الحكومة ما تزال تدير تحقيقاتها على نطاق واسع. ومع ذلك، سرعان ما توصّلت إلى استنتاج مفاده أنّ المؤسّسة كانت ما

ادّعته، ومع ذلك بقيت محافظا على فكرة، أنّ بعض المرضى والملحقين بها كانوا مخبرين.

لفترة من الوقت بعد وصولي، تركتُ مرّة أخرى عادة القراءة. لكن وبمجرّد أن تأقلمت مع محيطي الجديد أصبحت أكثر جرأة واستأنفت قراءة الصّحف وبعض الكتب الّتي كانت في المتناول. كانت في الجناح خزانة، مليئة بالأعداد القديمة من الدّوريّات الإنجليزيّة، فيما بينهم كانت: «ويستمنيستر ريفيو، إدنبرة ريفيو، مجلّة لندن الفصليّة ، وبلاك وود».

كان هناك أيضاً نسخ من «هاربر» و«أتلانتيك الشهرية»، الّتي يرجع تاريخها إلى جيل أو أكثر قبل حتّى أن أتمكن من القراءة. في الواقع، كان تاريخ بعض التحليلات يرجع إلى خمسين عاماً، لكن كان عليّ أن أقرأ محتوياتها الثّقيلة أو أذهب دون قراءة لأنّني لن أطلب شيئا ولو كنت أرغب فيه بشدّة. في غرفة أحد المرضى كان هناك ثلاثون أو أربعون كتاباً له. مررت تكراراً على باب غرفته وألقيت نظرة متشوّقة على تلك الكتب، الّتي لم يكن لديّ في البداية شجاعة طلبها أو أخذها؛ لكن خلال الصّيف، وفي الوقت الّذي كنت أشعر فيه باليأس، تمكّنت أخيراً من استدعاء الشجاعة الكافية لأخذهم خلسة. كان ذلك عندما كان صاحب الكتب يحضر القدّاس اليوميّ في الكنيسة حيث يتمّ تدوير مكتبه. ربّما تركت محتويات الكتب الّتي قرأتها انطباعاً أعمق في ذاكرتي عن معظم الكتب الّتي تثير عقول القرّاء العاديّين. لكي أؤكّد لنفسي تلك الحقيقة، لقد أعدت قراءة

«الحرف القرمزيّ»[2] باستمتاع وتعرّفت عليها مثل صديق قديم.

يبدو أنّ الجزء الأوّل من القصّة بالكاد يترك أيّ انطباع، على الرّغم من أنّ هوثورن يصف عمله كموظّف في مكتب الجمارك ويصوّر شخصيته الأدبيّة. وهذا يرجعُ إلى عدم اهتمامي الكامل في ذلك الوقت بالكُتّاب وأساليبهم. لم يكن لديّ أيّ رغبة في تأليفِ كتاب، أو أيّ فكرة للقيام بذلك. نظرت إلى رسائلهم بشكّ. لم أقرأها مطلقًا وقت استلامها. لم أكن سأفتحها حتّى، لكن بشكل عامّ، بعد أسبوع أو في بعض الأحيان بعد شهر، كنت سأفتحها سرّا وأقرأ ما جاء فيها من تزوير المحقّقين. كنت ما أزال رافضاً للتّحدّث، وأظهرت نشاطاً بدنيّاً فقط عندما كان يتمّ إخراج المرضى للخارج. كنت أجلس لقراءة الكتب أو الصّحف لساعات أو دون فعل أيّ شيء ظاهرياً، لكنّ ذهني كان في حالة نشطة وحسّاسة جدّاً. وكما أثبت الحدث، فإنّ كلّ شيء تقريباً فعل أو قيل في نطاق حواسي كان بمثابة انطباعات لا تمحى، وعلى الرّغم من أنّ هذه الأحداث في ذلك الوقت كانت في كثير من الأحيان من قبيل التّكرار، فقد واجهت صعوبة كبيرة في محاولة تذكّر الحوادث الّتي اعتقدت أنّني قد أجدها مفيدة في وقت مثولي في المحكمة.

لم يستعد كاحليّ أيّا من قوّتهما السّابقة. وكانتا تؤلماني عند المشي. لعدّة شهور استمررت في المشي عاري القدمين. لم أتمكّن من الحفاظ على اتّزاني عند رفع كعبي من على الأرض. عند النّزول إلى الطّابق

(2) . الحرف القرمزي (1850) هي رواية كتبها ناثانيال هاوثورن ، و تعد واحدة من الروائع التي كتبها. تدور أحداث الرواية في القرن السابع عشر في مدينة بوسطن المتزمتة. وتحكي قصة هستر براين التي أنجبت بعدما ارتكبت خطيئة الزنا ، ثم تتوب وتحاول أن تعيش حياة كريمة .(المترجم)

السّفليّ كان عليّ وضع مشط قدمي على حافّة كلّ درجة من السّلّم أو أخطو درجة واحدة في كلّ مرّة، مثل الطّفل. معتقداً أنّ المحقّقين كانوا يدلّلونني لأكون في حالة ممتازة، كما يجهّز الجزّار حيوانا للذّبح ، كنت أتعمّد أن أظهر نفسي أضعف ممّا كنت عليه في الحقيقة، ولم تكن قلّة نشاطي راجعة إلى رغبتي في إطالة أمد حياتي المريحة إلى حدّ ما، عن طرق تأجيل وقت المحاكمة والخزي المترتّب عليها إلى أطول وقت ممكن. ولكن كانت تقع كلّ يوم أحداث مؤلمة. فكلّما كان مطلوبا من المرافقين الحضور إلى المكتب، كان يدقّ الجرس الكهربائيّ. خلال الأربعة عشر شهرا الّتي بقيت فيها في هذه المستشفى بحالة الاكتئاب، كان الجرس يدقّ في جناحي عدّة مرّات. لم تفشل أصوات هذه ألاجراس أبدا في إصابتي بصدمة خفيفة من الرّعب، لأنّني كنت في كلّ مرّة أتخيّل أنّ السّاعة قد حلّت وأقتربت لنقلي إلى المحكمة. وقتها كان سيتمّ استدعاء الأقارب والأصدقاء إلى الجناح - عن طريق إعلانهم، بالطّبع، بواسطة جرس الإنذار - لتعقد المقابلات الصّغيرة في غرفتي حيث يقوم الزّائرون بإجراء كلّ المحاورات. أخي الأكبر، الّذي سأشير إليه فيما بعد بصفته الوصيّ عليّ، كان يُدعى في كثير من الأحيان، ونادراً ما كان يستعمل عبارة واحدة لا تصيبني بالقلق.«أنت تبدو أفضل وتزداد قوّة»، وقد يقول شيئا كهذا «مازال علينا معالجتك».

«معالجتك» كانت عبارة غامضة قد تشير في النهاية إلى حبل الجلّاد أو إلى صدمة كهربائيّة مميتة.

لقد فضّلت أن أكون بمفردي، وبعد عدّة محاولات غير مجدية

لاشراكي في أيّ محادثة، تفهّم الطبيب المسؤول صمتي المتواصل. ولأكثر من عام كان حواره الوحيد معي هو التّحية التّقليديّة المقتضبة. لكنّ بعض الأحداث اللّاحقة جعلتني أتشكّك في سياسته الحكيمة معي.

لم يتمّ توجيه أيّ اهتمام تجاهي لمدّة سنة أو أكثر بما يزيد عن التأكّد من تناولي الوجبات الثّلاث في اليوم، والعدد المطلوب لمرّات استحمامي، والقدر الكافي من التّمارين الرّياضيّة. على الرّغم من ذلك، كان يتمّ تحفيزي من قبل المرافقين على كتابة رسالة إلى بعض الأقارب، لكن بالطّبع كنت أرفض. وكما أنّه سيكون لديّ الكثير من الأشياء الصّعبة لأقولها عن المرافقين بشكل عامّ، يسعدني أن أشهد، أنّه طوال فترة بقائي في حالة سلبيّة، كان هؤلاء الّذين يعملون بتلك المؤسّسة طيّبين وأحيانا حتّى حكماء. لكن جاء وقت أصبحت فيه العلاقات الدّبلوماسيّة مع الأطبّاء والمرافقين متوتّرة للغاية لدرجة أنّ الحرب تلت ذلك.

وما كان هناك شك في التّحسّن التّدريجيّ الذي كنتُ أشهدهُ، لكنّ التأكّد من تحسّن حالتي الجسديّة الّتي كان يعتمد عليها الأطبّاء في عودتي إلى طبيعتي في نهاية المطاف، كانت تخلو من الضّمانات.

بطريقة ما، أصبحت أقلّ إثارة للرّيبة، لكنّ ثقتي المتزايدة كانت راجعة إلى القدر المتزايد من اللّامبالاة تجاه مصيري فيما يتعلّق بتحسين صحّتي. وكانت ثمّة علامات أخرى على تحسّن النّشاط الذّهنيّ. ومع ذلك، كنت ما أزال أترقّب فرصة لإنهاء حياتي، ولكن بسبب مجموعة من الملابسات السّعيدة، لا أشكّ في أنّ خيّاري من بين كل هذه

الشّرور كان سيجد تعبيراً مأسويّاً في القيام بفعل علنيّ .

بعد أن أقنعت نفسي بأنّ معظم زملائي كانوا مجانين حقّاً، وبالتّالي (كما اعتقدت) غير مؤهّلين كشهود مختصّين في المحكمة، كنت أقوم أحياناً بإجراء محادثة مع عدد قليل من الّذين تراءى لهم أنّ عدم كفاءتهم تجعلهم موثوقاً بهم لدي. كان الأوّل من الّذين تمّ إيداعهم في المؤسّسة العقليّة خلال حياته أكثر من مرّة، كان مُهتمًّا بشكل واضح للغاية واستمرّ في التّحدّث معي غالباً ضدّ إرادتي. بدا فضوله المتواصل لدعم تصريحاته إنّه كان يعمل في السّابق وكيلاً ناجحا للتّأمين على الحياة. وفي النّهاية اكتسب ثقتي إلى درجة أنّه قبل محادثتي للآخرين بشهور سمحت لنفسي بالتّحدّث بانتظام معه- لكن فقط عندما نكون في مكان آمن للهروب من المراقبة. كنت أتحدّث معه حول أيّ موضوع تقريباً، لكنّي لم أكن أتحدّث عن نفسي. ومع ذلك، بعد فترة، استطاع استمراره المثير للإعجاب أن يتغلّب على تحفّظي.

خلال محادثة جرت معه في يونيو 1902، قال فجأة: « أنا لا أستطيع أن أفهم لماذا أنت محتجز هنا. على ما يبدو، أنّك عاقل مثل أيّ شخص. إنّك لم تقل معي مطلقاً إلّا تعليقات متعقّلة». لعدّة أسابيع، كنت أنتظر فرصة لإخبار هذا الرّجل بأفكاري. لقد توصّلت إلى تصديق أنّه صديق حقيقيّ لن يخونني.

قلتُ: "وإذا كان عليّ أن أخبرك أشياء، من الواضح أنّك لست على علم بها، سوف تفهم لماذا أنا حذر هنا".

ألحّ قائلا: "حسناً، أخبرني".

-"هل تعدني ألّا تنقل ما أقول لأيّ شخص آخر؟"

-"أعدك ألّا أقول كلمة واحدة".

-"حسناً، أبديت ملاحظة قائلاً: "لقد رأيت بعض الأشخاص الّذين جاؤوا إلى هنا، معلنين أنّهم أقارب لي".

-"نعم، وهل هم أقاربك، أليسوا كذلك؟"

-"إنّهم يشبهون أقاربي، لكنّهم ليسوا كذلك،" كان ذلك ردّي.

انفجر صديقي الفضوليّ في الضّحك ثمّ قال: «حسناً، إذا كنت تعني "هذا"، فعليّ أن أتراجع فيما قلته للتّوّ. أنت حقّا أعته من قابلت، وقد التقيت بالعديد».

-"سوف تفكر بطريقة مختلفة يوماً ما"، أجبته، لأنّي كنت أعتقد أنّه عندما تبدأ محاكمتي، سوف يقدّر أهمّيّة ملاحظتي. لم أخبره أنّني أعتقد أنّ هؤلاء الزائرين مخبرون، ولم ألّمح إلى أنّني فكّرت أنّني محتجز في أيدي الشّرطة.

في غضون ذلك، خلال شهري يوليو وأغسطس 1902، ضاعفت نشاطي في وضع الخطط الانتحاريّة. أعتقد الآن أنّ حالتي البدنيّة مرضيّة لأعدائي وكنت متأكّدا أنّ تجربتي لا يمكن تأجيلها بعد الافتتاح المقبل للمحاكمة في سبتمبر. حتّى أنّني توسّعت في الحديث مع أحد المقيمين، وكان طالباً في الطّبّ، عمل خلال الصّيف كمساعد في المستشفى. اقتربت منه بحذر. في البداية طلبت منه شراء كتاب«**الرّسالة القرمزية**»، و«**المنزل ذو الجمالونات السّبعة**»[3]، وغيرها

(3). المنزل ذو الجمالونات السبعة، The House of the Seven Gables رواية للكاتب ناثنيال هوثورن عام 1851 وهي رواية رمزية حيث (المنزل المتداعي)يرمز إلى عائلة في مدينة سالم ويشير إلى البناء نفسه في ذات الوقت وموضوع الرواية يدور حول لعنة موروثة والتخلص منها بواسطة الحب. (المترجم).

من الكتب، ثمّ تحدّثت عن الطّبّ وطلبت منه في النّهاية أن يقرضني كتاباً عن التّشريح الّذي عرفت أنّه في حوزته. وهذا ما فعله عندها، لقد حذّرني من أن أترك أحداً يعرف أنّه فعل ذلك. وبمجرّد أن أصبح الكتاب بين يدي، لم أضع الوقت لتفحّص الجزء الّذي يوصف القلب ووظائفه، وخاصّة موضعه الدّقيق في الجسم. بالكاد كنت قد بدأت القراءة، عندما عاد الشّابّ وأخذ منّي الكتاب، متعلّلاً بأنّ المرافق لا يحقّ له أن يسمح للمريض بقراءة عمل طبّي. ربّما هي العناية الألهية التي دفعته لتغيّر رأيه

في هذه المؤسّسات وكما هو المعتاد، فإنّ جميع السّكاكين والشّوك وغيرها من الموادّ الّتي يمكن أن يستخدمها مريض ربما لغرض خطير، يتمّ إحصاؤها من قبل المرافقين بعد كلّ وجبة وبشكل دقيق.

لقد كانت لهذه المعلومة تأثيرًا رادعًا عليّ، ولم أتجرّأ لحظة على أخذ واحدة. على الرّغم من أنّني قد أقوم بشنق نفسي في أيّ وقت خلال اللّيل، إلّا أنّ هذه الطّريقة لم تكن تروق لي، ولكن وضعتها في الاعتبار كطريقة وحلّ أخير. كانت رغبتي هي حيازة بعض الأدوات "كخنجر حادّ" يمكن أن أطعن قلبي بها في أيّ لحظة. لقد شعرت حينها وبواسطة هذا السّلاح بأنّني أستطيع أن أسلب من المحقّقين نصرهم.

خلال أشهر الصّيف، يقضي الموظّف وقته بأكمله في قصّ العشب باستخدام آلة كبيرة تجرّها الخيول، وعند الإنتهاء من استخدامها، يتمّ تركها غالباً خارجاً في الهواء الطّلق. لقد كان ثمّة صندوق خشبي مربّع يوضع فوقها يحتوي على بعض الأدوات الضّرورية، وكان من

بينها أداة حادّة شبيهة بالرّمح، تستخدم غالباً في تنظيف أنابيب الزّيت عند انسدادها. كان طول الجزء الفولاذيّ هذا ستّ بوصات تقريباً، ويأخذ شكل مسنّ مثل سنّ القلم الرصاص. ولمدّة لا تقلّ عن ثلاثة أشهر، نادراً ما كنت أذهب للخارج إلّا بنية تفحص ذلك الرّمح الحديديّ. كنت جاد على الاحتفاظ به في غرفتي لليوم الّذي كان المتوقّع فيه الذّهاب إلى السّجن.

لقد كانت أوهامي تحميني من المصير الّذي دفعني إلى المحاكمة. ولأنني لم أكن اعتقد أنّ أعين المخبرين كانت ترقبني في كلّ لحظة، كان يمكنني الحصول على ذلك الرّمح في وقت قياسيّ. وغالباً، في الوقت الّذي لا يستخدام فيه، كنت كل مرة أسير إلى جوار جزازة العشب وأضع يدي على صندوق الأدوات. لكنّني لم أكن أجرؤ على فتحه. مشاعري كانت أشبه بتلك المشاعر تجاه صندوق الآلة. ومع ذلك، في حالتي كان الصّندوق الذي نظرت إليه طويلاً بتشوّق، كان لا أمل معه أو بداخله. ربّما أدركت ذلك غريزيّا، لأنّني لم أكن قد رفعت الغطاء.

في أحد الأيّام، عندما كان المرضى يعودون إلى عنابرهم، رأيت مباشرة في طريقي (يمكنني حتّى الإشارة إلى المكان)، السّلاح المرغوب فيه مُلقى على الأرض. لم أر شيئا أرغبه من قبل أكثر من ذلك. كان الأمر من السّهولة بحيث كان يمكنني أن أنحني والتقطه دون الكشف عنه، كنت أدرك، كما أدرك الآن، أنّه تمّ إسقاطه بلا مبالاة، والعجيب في الأمر لم يكن هناك شيء يمكن أن يمنعني من القيام بأخذه ودسه في جيب معطفي وربّما استخدام تأثيره المميت.

لكنّ اعتقدت أنّه موضوع هناك بشكل متعمّد وكاختبار، من قبل أولئك الّذين تكهّنوا بهدفي الانتحاريّ. كانت عين المخبر المتخيّل - وما أميل إلى الإيمان به- كعين الإله الحقيقيّ الّتي كانت ترعاني، فعلى الرّغم من أنّي خطوت مباشرة فوقه، لكن لم ألتقط ذلك الشّيء المميت.

الفصل الثاني عشر

حينَ توصّلتُ إلى يقين مفادهُ أنّ فرصتي في تأمين الخنجرِ الصّغير كانت غير مؤكّدة، في الوقت نفسه فكرت وخططت بـ«الغرق» كطّريقة جديدة تؤدّي بي إلى الموتِ السريع. كان في الجناح حوض استحمام كبير، يمكن الوصول إليه في أيّ وقت، باستثناء الفترةِ المسائية، بين السّاعة التّاسعة مساء (عندما يكون المرضى محتجزين في غرفهم في اللّيل) وحتّى صباح اليوم التّالي. كانت كيفيّة بلوغ ذلكَ المكان في اللّيل هي المشكلة الّتي واجهتني. كان من المفترض أنّ يتفقّد المرافق المسؤول كلّ مريض في غرفته قبل أن يغلق بابها. وكان من النّادر أن يحدث أن يكون المرضى خارج غرفهم في الوقت المحدّد، وأن يهمل المرافقون المسئولون إغلاق الأبواب دون تفقّد الدّاخل.

قد تجد «ليلة سعيدة»، وهي تحيّة خالية من المشاعر استجابة، أو لا تجد، وغياب الاستجابة من المريض قد يثير الشّكوك، خاصّة في حالة مثل حالتي، لأنّي غالباً أرد بقول «ليلة سعيدة»، لكنّ خطّتي السّهلة والبسيطة كانت هي الاختباء وراء قطعة من الأثاث في الممرّ والبقاء هناك إلى أن يغلق المرافق أبواب الغرف ويذهب إلى الفراش .

حتّى الآن تقدّمت في خطّتي لاختيار زاوية ملائمة تبعد حدود عشرين قدماً عن غرفتي الخاصّة. وإذا توجّب على المرافق المسؤول،

عندما يقترب من الباب اكتشاف غيابي يجب عندها على الفور أن أترك مخبئي وعندها يكون من السّهل إقناعه أنّني فعلت ذلك الشّيء كاختبار ليقظته.

من ناحية أخرى إذا لم يتمّ اكتشافي، سيكون لديّ حينها تسع ساعات، يجبُ أن يتلاشى الخوف من فرضية أن هناك أحد سوف يقاطعني في تنفيذ خطّتي.

صحيح، أنّ المراقب وبشكل دوري يمرّ في الجناح مرّة كلّ ساعة. بينما الموت عن طريق الغرق يتطلّب وقتاً ليس أطول من ذلك الوقت المطلوب لإنضاج بيضة. لقد حسبت كم من الوقت يستغرق من أجلِ ملء الحوض بالماء. وللتّأكّد من النتيجة النهائيّة، كنت قد أخفيت قطعة من الأسلاك الّتي كنت أخطّط لاستخدامها بحيث لا يمكنني رفع رأسي، وبمجرّد أن تكون تحت الماء، لا يمكن بأيّ احتمال أن ترتفع إلى السّطحِ أثناءَ صراعكَ المحتوم مع الموت .

لقد قلت مراراً لنفسي إنّني لا أرغب في الموت، ولم أفعل. ولو كان المحقّقون المفترضون قادرين على إقناعي بأنّهم يحفظون كلمتهم، لكنت وقّعت معهم عن طواعية اتّفاقاً أتعهّد فيه: «أنّني يجب أن أعيش بقيّة حياتي في الحجز ولا ينبغي لهم أبدًا محاكمتي على جريمة».

لحسن الحظّ، خلال هذه الاستعدادات الكئيبة، لم أفقد الاهتمام بالمخطّطات الأخرى الّتي ربّما أنقذت حياتي. في هذا الأمر، لعب الزّميل الّذي فاز بثقتي دور التحرّي الخاصّ بي، حيث يمكن لكلانا مجتمعان أن نهزم القوى المجتمّعة ضدّي، وهو ما كان يبدو كاحتمال يمكن تحقيقه، ولكن يبدو أنّ استحالة القيام بذلك لم تؤدّ إلى الالتزام

به. صديقي الّذي بالطّبع لم يدرك أنّه كان متورّطاً في القتال مع الخدمة السّرّيّة، سُمح له بالذّهاب إلى حيث كان سعيداً عند حدود المدينة الّتي يقع فيها المستشفي. وبناء عليه، قرّرتُ أن أحصل على القليل من خدماته. خلال شهر يوليو، وبناء على اقتراحي وطلبي، حاول الحصول على نسخة من بعض الصّحف الّتي تصدر في نيوهيفن، والّتي صدرت منذ تاريخ محاولتي الانتحاريّة والتّواريخ العديدة التي تلتها هذه المحاولة مباشرة. كان هدفي هو معرفة الدّافع خلف محاولة انتحاري. لقد كنت على يقين أنّ الأوراق ستحتوي على الأقلّ على تلميحات فيما يتعلّق بطبيعة التّهم الموجّهة إليّ. لكنّي لم أفش لصديقي بهدفي هذا. وفي الوقت المناسب، أفاد أنّه لم تكن هناك نسخ من التّواريخ المحدّدة. لقد أثبت ذلكَ أنّ السّعي لهذا لأمر لم يكن مثمراً، حينها أرجعت الفشل في إستراتجيتي لسيطرة لعدوّ.

في هذه الأثناء، لم يتوقّف صديقي عن محاولة إقناعي بأنّ من يتظاهرون أنّهم أقاربي وأنهم لم يكونوا مزعجين البتة، لذا قلت له في يوم: «إذا كان أقربائي ما يزالون يعيشون في نيو هيفن، فإنّ عناوينهم يجب أن تكون في أحدث دليل في نيوهفن. وها هي لائحة تحتوي على أسماء وعناوين سابقة لأبي وأخي وعمّي. هذه كانت عناوينهم في عام 1900. في الغد، عندما تذهب للخارج، أرجو منك الاطّلاع على ما إذا كانت موجودة في دليل نيو هيفن لعام 1902. هؤلاء الأشخاص الّذين يقدّمون أنفسهم على أنّهم من الأقارب يتظاهرون بأنّهم يعيشون في هذه العنوان. إذا كانوا يقولون الحقيقة، فإنّ دليل 1902 سيؤيّدهم. سيكون لي أملٌ عندئذ في أن تصل أيّ رسالة أرسلت إلى

أيّ من هذه العناوين وستصل إلى الأقرباء وبالتّأكيد حينها سيبدي بعضهم الاهتمام».

في اليوم التّالي، ذهب التّحرّي الذي عينته إلى دار نشر محلّيّة حيث يمكن الاطّلاع على أدلّة المدن المهمّة في جميع أنحاء البلاد. بعد فترة وجيزة من ذهابه إلى هذه المهمّة، ظهر الوصيّ عليّ. وجدني أتمشّى حول العشب، واقترح أن نجلس. منحني التّأكّد من استطاعتي إنهاء حياتي قبل أن تأتي الأزمة، الجرأة للتّحدّث معه بحرّيّة، أجبت على العديد من أسئلته وطرحت العديد منها عليه أيضاً. علّق الوصيّ عليّ، ولم يكن يعرف أنّني شككت في هويّته، بسرور واضح على تجاوبي الجديد مع الكلام. ولو أنّه قد تمكّن من قراءة ما في عقلي كان سيصبح أقلّ سعادة.

بعد فترة من رحيل الوصيّ عليّ، عاد زميلي المريض وأخبرني أنّ أحدث دليل في نيوهيفن يحتوي على الأسماء والعناوين الّتي أعطيتها له. هذه المعلومات على الرّغم من أنّها لم تثبت أنّ زائري الصّباحيّ لم يكن مخبراً، لم تقنعني أنّ أخي الحقيقيّ مازال يعيش حيث كان عندما غادرت نيوهيفن قبل عامين .

الآن، بعد أن ضعفت أوهامي، ومكّنني سبب عودتي من بناء مخطّط عبقريّ، أعتقد أنّه أنقذ حياتي، لأنّني لم أسترجع إلى حدّ كبير السّبب الذي يقفُ خلفَ ذلك «حينَ قمت به» فأنا أميل إلى الاعتقاد بأنّ ذهني الفظيع كان سيدمّر نفسه و يدمّرني، قبل أن تتمّ استعادته من خلال العمليّة البطيئة للتّعافي.

كتبت أوّل خطاب خلال ستّة وعشرين شهراً بعد ساعات قليلة

من قيام مخبري الشّخصيّ بإعطائي المعلومات الّتي كنت أرغب في الحصول عليها. عندما ترسل الرّسائل، فإنّها تكون منفصلة بذاتها. لم أتجرّأ على طلي الحبر، لذلك كتبت بقلم رصاص. زميل آخر من المرضى كنت أثق به، قام بكتابة العنوان على مغلّف الخطاب، لكن لم يكن خافياً عليه محتواه. كان ذلك إجراء احترازيّ إضافي، لأنّني ظننت أنّ رجال الخدمة السّريّة قد اكتشفوا أنّ لديّ تحرّياً خاصّاً، وأنّهم سوف يصادرون أيّ رسائل مرسلة منّي أو منه .

صباح اليوم التّالي، أرسل التّحرّي الذي عينته الرّسالة. هذه الرّسالة مازالت معي، وأعتزّ بها مثل اعتزاز أيّ رجل بريء محكوم عليه بالإعدام وتم العفو عنه. يجب أن يقتنع القارئ بأنّه في بعض الأحيان، يستطيع الشّخص المختلّ عقلياً -حتّى الّذي يعاني من الأوهام- التّفكير والكتابة بوضوح. هاهي نسخة طبق الأصل – أهم رسالة أتوقع أنّني دعيت لكتابتها- أعرضها هنا.



29أغسطس 1902

عزيزي جورج:

في صباح الأربعاء الماضي، ادّعى شخص أنّهُ جورج م. بيرز من مدينة نيوهيفن، وأنّه شقيق لي، ويعمل كاتباً في مكتب مدير مدرسة شيفيلد العلميّة، وقد حضر لزيارتي.

قد يكون ما قاله صحيح، ولكن بعد أحداث العامين الماضيين، أجد نفسي أميل إلى الشّكّ في حقيقة كلّ ما قاله لي. لقد قال إنّه سيأتي لزيارتي مرّة أخرى في وقت ما الأسبوع القادم، وأرسل إليك هذه

الرّسالة كي تتمكّن من إحضارها معك كوثيقةِ مرورٍ تثبتُ أنك الشّخص الّذي كان هنا الأربعاء الماضي. إذا لم تكن أنت الّذي زارني كما هو مذكور، فيرجى عدم قول أيّ شيء حول هذه الرّسالة إلى أيّ شخص، وعندما يصل منتحل شخصيّتك، سأخبره بما أعتقد بشأنه. أودّ أن أرسل إليك رسائل أخرى، ولكن عندما تكون الأمور كما يفعلون الآن فإنّ الأمر يصبح مستحيلاً. لقد جعلت شخصاً آخر يكتب العنوان على الظرف من الخارج لخوفي من ألّا تصلك الرّسالة.

المخلص، كليفورد. و. ب.

على الرّغم من أنّني كنت واثقاً إلى حدّ معقول بأنّ هذه الرّسالة قد تصل إلى أخي، ولكن لم أكن على يقين من ذلك. لكنّني كنت متأكّدا من أنّه إذا حصل عليها، فإنّه لن يسلّمها تحت أيّ ظرف من الظّروف إلى أيّ شخص يقف ضدّي .

عندما كتبت الكلمات: «عزيزي جورج»، كان شعوري يشبه كثيراً شعور الطّفل الّذي يرسل رسالته إلى سانتا كلوز بعد أن اهتزّ إيمانه الطّفوليّ، مثل الطّفل المتشكّك، شعرت ليس هناك ما أخسره، كلّ شيء يمكن تحقيقه. لقد عبّرت كلمة «المخلص» تماماً عن المودّة للأقارب، وبسبب الاعتقاد بأنّني عرّضت عائلتي للعار، أو ربّما للدّمار، فقد دفعني ذلك إلى التّحايل في استخدام اسم عائلتي عند التّوقيع.

لم أفكّر في أنّني قد أتّصل قريباً بعالمي القديم. عموماً، لم يكن لديّ إيمان قوي بأنّني سأعيد تأسيس علاقاتي السّابقة معه، وما كان لديّ

من إيمان قليل فقد تمّ هدمه صباح يوم 30 أغسطس 1902، عندما وصلت رسالة قصيرة مكتوبة على ورقة لاصقة، تمّ إيصالها إليّ عن طريق المرافق. وكان فحواها «أنّ الوصيّ عليّ قد يقوم بزيارتي هذا المساء». اعتقدت أنّها كذبة. شعرت حينها بأنّ شقيقاً لي لن يتكلّف عناء إرسال ردّ على خطاب أكتبه له منذ أكثر من عامين. إنّ التفكير في أنّه لم يكن لديه وقت للقيام بذلك، وأنّ هذه الرّسالة يمكن أن تكون قد وصلت عن طريق الهاتف لم يخطر ببالي. ما اعتقدته أنّ رسالتي قد تمّت مصادرتها. وسألت أحد الأطبّاء أن يقسم على شرفه أنّه حقّا أخي الّذي كان يأتي لزيارتي. وهو ما فعله. لكنّ الشّكوك غير العاديّة سرقت شرف كلّ الرّجال في عينيّ مهما كانوا، ولم أكن مطمئنّا تماما. في فترة ما بعد الظّهر، تمّ إخراج المرضى من الأبواب كالعادة، وأنا من بينهم. تجوّلت في الحديقة وألقيت نظرات متكرّرة وحسابيّة تجاه البوّابة، واعتقدت من خلالها أنّ الزّائر المرتقب سوف يمرّ قريباً. ظهر في أقلّ من ساعة، فنظرت إليه لأوّل مرّة من على بعد ثلاثمائة قدم، وزرع الفضول أملا أكبر للتّقدّم إلى مقابلته. « أفكّر ما ستكون الكذبة هذه المرّة »، كان ذلك جوهر أفكاري.

كان الشّخص الذي يقترب منّي هو نظير أخي كما أتذكّره. ومع ذلك، لم يكن يبدو أنّه أخي، أكثر ممّا كان عليه في أيّ وقت خلال السّنتين السابقين. كان ما يزال مخبراً. هكذا كان عندما صافحت يده. بمجرّد أن انتهت هذه المراسم، قام بتقديم محفظة جلديّة. عرفت أنّها على الفور تلك الّتي كنت أحملها لعدّة سنوات قبل حلولِ عام 1900 الذي مرضتُ فيه. وكان هذا يعني أنّه قد استلم رسالتي الأخيرة.

قال:" ها هي وثيقة مروري".

أجبته، بينما كنت ألقي نظرة عليها وأصافح يده الّتي كانت هذه المرّة يد أخي: " من الجيّد أنّك أحضرتها معك".

سألني: " ألا تريد أن تقرأها؟"

"ليست هناك حاجة لذلك ، أنا مقتنع".

بعد رحلتي الطّويلة من الاكتشاف في غابة الخيال المتشابكة، انتهت أخيراً بعثوري على الشّخص الّذي بحثت عنه لفترة طويلة، اختلف سلوكي قليلاً عن العالم العظيم الّذي كان مليئا بالشّكوكِ بعد رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر عبر أدغال حقيقيّة، وجد الرّجل الّذي بحث وأمسك بيده، واستقبله بكلمات بسيطة وتاريخيّة، «أفترض أنّهُ الدكتور ليفينجستون؟»

حينَ لمحت رسالتي في يد أخي، تغيّر كلّ شيء. الآلاف من الانطباعات الخاطئة المحفوظة خلال السّبعمائة وثمان وتسعين يوماً من اكتئابي بدأت على الفور تصحّيح نفسها. أصبح الكذب حقيقة. عاد جزء كبير من عالمي القديم مرة أخرى إليّ. في النّهاية، يبدو أنّ عقلي وجد نفسه، لأنّ الشّبكة الهائلة من المعتقدات الزّائفة الّتي كان كلّ شيء فيها مختلّفاً على نحو ميؤوس منه، أدركت على الفور أنّها كانت شركًا من الأوهام. إنّ معضلة التّعذيب العقليّ الّذي يجب أن يتمّ استئصاله والتّخلّص منه بالنّظرة المجرّدة للعين الرّاغبة هو مثل المعجزة. ومع ذلك، عدد ليس بالقليل من المرضى الّذين يعانون من أشكال معيّنة من الاضطراب العقليّ، يستعيدون درجة عالية من البصيرة في حالتهم العقليّة فيما يمكن وصفهُ بوميض من التّنوير

الإلهيّ.

على الرّغم من أنّ استعادة البصيرة على ما يبدو لحظة من أكثر الأعراض المشجّعة، إلّا أنّه لا يمكن بطبيعة الحال، استعادة القدرة على التّفكير بشكل طبيعي في جميع الموضوعات على وجه السّرعة. كانت سلطتي الجديدة على التّفكير بشكل صحيح في بعض الموضوعات هي ببساطة علامة على الانتقال من الاكتئاب إلى الابتهاج بالانتقال إلى مرحلة أخرى منه. والتّوضيح من الناحية الطّبيّة، يمكن القول إنّني كنت ما أزال مضطربا عقليّاً كما كنت من قبل، لكنّني كنت سعيداً!

قد تشبه ذاكرتي أثناء الاكتئاب فيلم فوتوغرافيّ طوله سبعمائة وتسعة وتسعون يوم. يبدو أنّ كلّ انطباع قد تمّ تصويره بطريقة سلبيّة ومن ثمّ، في جزء من الثّانية، تمّ تطويره وجعله إيجابيّاً. من بينِ المئات من الانطباعات الّتي ظهرت خلال تلك الفترة الّتي كنت مكتئباً فيها لم أكن واعياً من قبل، ولكن منذ اللّحظة الّتي وجد فيها عقلي نفسه، إن لم يكن إدراكي التّامّ، فقد برزا كلاهما بشكل واضح. ليس ذلك فقط، بل الانطباعات الأخرى المسجّلة خلال السّنوات السّابقة أصبحت أكثر تجلياً. ومنذ 30 أغسطس، الّذي أشير إليه باعتبارهِ عيد ميلادي الثّاني (الأوّل كان في الثّلاثين من شهر آخر)، أظهر عقلي صفات كانت قبل ذلك الوقت، كامنة إلى درجة لا يمكن تمييزها. ونتيجة لذلك، أجد نفسي قادراً على القيام بأشياء مرغوبة لم أكن أحلم بها من قبل- كتابة هذا الكتاب كانت واحدة منها .

ومع ذلك، لم أتمكّن من إقناع نفسي في 30 أغسطس، عندما حضر

أخي لرؤيتي، أنّه لم يكن جاسوساً. أنا على يقين أنّه كان ينبغي لي أن أطوّق الدّمار بداخلي في غضون الأيّام العشرة التّالية، اعتقدت أنّهُ في الشّهر القادم سيتمُّ إعلان وقت المحاكمة النّهائيّة. سأتذكّر أنّ الموت غرقاً كان على وشك الحدوث. لقد شبّهت خلاصي بعمليّة غرق مطوّلة. آلاف من الدّقائق من السّبعمائة وثمانية وتسعين يوماً- كان هناك أكثر من مليون منها، وقد تحمّلت خلالها الأوهام المرهقة التي كنت أتوهّمها، مثل الدّقائق الأخيرة من الوعي الّتي يختبرها الأشخاص المقبلون على الغرق. العديد من الّذين نجوا بصعوبة من هذا المصير يمكن أن يشهدوا على الحماسة الّتي تنطلق من خلالها الانطباعات الطيّبة والسّيّئة لحياتهم بأكملها في عقولهم المشوّشة، ويقبضون عليها في رعب حتّى يغلّفها اللّاوعي اللّطيف. عشتُ مثل هذه اللّحظات، لكنّ اللّا وعي الوحيد الّذي قضى على عقلانيّتي خلال هذين العامين البائسين كان النّوم ذاته. على الرّغم من أنّني نمت جيّدا في معظم الأوقات، كان من النّادر أن يكون نومي بلا أحلام. كانت الكثير من أحلامي أشدُّ صعوبة من تحمّل أوهام النّهار، ولأنّ القليل من التّعقّل الّذي كان لديّ هو العطل أثناء النّوم. في كلّ ليلة تقريباً كان عقلي في مباراة مع الأفكار الغريبة. وإذا لم تكن كلّ أحلامي مرعبة، فإنّ هذه الحقيقة بدت فقط لأنّ العقل المنحرف والمرتدّ، حتّى لا يفقد صاحبه القدرة على المعاناة، كان يعرف كيف يبقي الأمل حيّاً برؤى تدعم التّباين الضّروريّ للتّقدير الشّديد.

لا يمكن لأيّ إنسان أن يولد مرّة أخرى، لكنّني أعتقد أنّني اقتربت من ذلك كما لم يفعل إنسان من قبل. أن تترك خلفك ما كان في

الواقع جحيماً، وعلى الفور تحصل على هذه الأرض الخضراء الجيّدة بانتصار أكثر مما يراه معظم البشر، كان أحد الامتيازات التعويضية التي تدفعني إلى الشعور بأن معاناتي كانت تستحقُّ ذلكَ .

لقد سبق وأن وصفت الإحساس الغريب الذي هاجمني في يونيو 1900 ، عندما فقدت إدراكي. في ذلك الوقت شعرت بعقلي كما لو كان يتم وخزه بملايين من الإبر في حرارة بيضاء. في 30 أغسطس 1902، بعد فترة وجيزة من استعادة إدراكي بقدر كبير، كان لديّ إحساس آخر متميّز في عقلي. لقد بدأ أسفل جبيني وانتشر تدريجيّا حتّى تأثّر السّطح بأكمله. لقد كان مخاض ميلاد إدراك عقل ميت عذابًا قاسيًا. تولّدت الأحاسيس كما لو أنّ إدراكي الميّت ولد من جديد وكان الأمر مبهجاً. بدا الأمر كما لو أنّ أنفاساً منعشة لآلهة الحكمة كانت تهبّ بلطف على سطح عقلي. كان إحساساً لا يختلف عن ذلك الّذي ينتجه قلم منثول يمسح بلطف فوق حاجب محموم. كانت تلك الكلمات رهيبة وحزينة ومبهمة للغاية في محاولتي لوصفها. بعض التّجارب، إن وجدت، يمكن أن تكون أكثر متعة. إذا كان الانسجام الّذي يتولّد من بعض المخدّرات هو شي من هذا القبيل، يمكنني بسهولة أن أفهم كيف تستعبد بعض العادات الخبيثة أولئك الّذين يعقدون اتّفاقاً معها. لكن بالنّسبة إليّ كانت هذه التّجربة بمثابة تحرّر وليست استعباداً.

الفصل الثالث عشر

بعد سنتين من الصّمت، لم أجد سهولة في التّواصل مع أخي عبر محادثة مستمرّة. لقد كان التّرابط الصّوتيّ لديّ ضعيف بسبب عدم الاستخدام إلى درجة أنّي كنت أستريح أو أهمس، بين الفينة والأخرى. وعندما حاولت أن أضمّ شفاهي وجدت نفسي عاجزاً عن الصّفير، بغضّ النّظر عن الاعتقاد السّائد، المستمدّ من ذكريات غامضة لصبيّ صغير، كان ذلك الفنّ غريزيّ. أولئك الّذين كانوا يتحدّثون في حياتهم بشكل طبيعيّ لن يستطيعوا تقدير المتعة الّتي وجدتها في استخدام قدرتي المستعادة على الحديث.

عدت إلى الجناح على مضض، ولم أنتظر موعد رحيلِ أخي إلى المنزل، محمّلاً بالكثير من محادثاتي الّتي استغرقت معظم وقته المتاح خلال اليومين التّاليين لإخبار العائلة بما قلته خلال ساعتين.

بدوت طبيعيّاً خلال السّاعات الأولى القليلة. لم يكن لديّ أيّ من الأوهام الاضطهاديّة الّتي كانت لديّ في السّابق، ولم أقم بتطوير أيّ من الأفكار الموسّعة أو أوهام العظمة، الّتي سرعان ما بدأت تضغط عليّ. كنت أبدو طبيعيّاً وأنا أتحدّث إلى أخي حتّى أنّه اعتقد أنّه يجب عليّ العودة إلى المنزل في غضون بضعة أسابيع. دونَ حاجة إلى القول إنّني كنت أتّفق معه. لكنّ الأمور تغيّرت كثيرا. العقل البشريّ آلة معقّدة للغاية لتتمكّن من الاعتراف بأيّة تعديلات كاملة من هذا القبيل في أيّ لحظة. يقال إنّه يتكوّن من عدّة ملايين من الخلايا، وهذه

حقيقة معترف بها، إنّه يبدو آمناً لتقول هذا كل يوم، ربّما كلّ ساعة، إنّ مئات وآلاف الخلايا العقليّة كانت بصدد العودة إلى حالة من النّشاط المتجدد. كنت عاقلاً وقادراً على إدراك الحقائق المهمة للحياة، كنت ما أزال مجنونا في مرآةِ العديد من تفاصيلها العمليّة. كان إصدار الأحكام مُلكاً لمملكة الأفكار، ولم يكن الأمر مفاجئا، فقدرتي على إصدار الأحكام فشلت في أغلب الأحيانِ في أن تأخذَ القرار الصّائب تجاهَ الأسئلة العديدة الّتي عَرضتها عليها الموضوعات التّواصليّة غير الطّبيعيّة.

في البداية، بدا لي أن أعيش طفولة ثانية. لقد فعلت ذلك بسعادةٍ، أشياء كثيرة تعلمت لأوّل مرّة أن أفعلها كطفل، بقدر ما كان من الضّروريّ بالنّسبة إليّ أن أتعلّم مرّة أخرى كيفيّة تناول الطعام والمشي، والآن الحديث. كان لديّ الكثير من الوقت للتّعويض، ولبعض الوقت، يبدو أنّ طموحي الوحيد هو أن أنطق بأكثر من ألف كلمة في اليوم قدر الإمكان. إنّ زملائي المرضى الّذين شاهدوني أتجوّل في صمت لمدّة أربعة عشر شهراً في صمت عميق وعنيد لدرجة أنّني نادرا ما كنت أنتبه إلى تحاياهم الوديّة فوجؤوا - بطبيعة الحال - برؤيتي في مزاجي الجديد من الثّرثرة المطلقة والفكاهة الجيّدة. باختصار، وصلت إلى تلك الحالة غير الطّبيعيّة الّتي يُعرّفها الأطبّاء النّفسانيّون على أنّها«حالة من الابتهاج».

أعتقد أنّني لعدّة أسابيع لم أنم أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات في اللّيل. هكذا كانت حالتي من الابتهاج. عموماً، كانت كلّ علامات الإرهاق غائبة تماماً، وكان النّشاط الذّهني والبدنيّ غير

الطّبيعيّ مستمرّاً ولم يترك على ذاكرتي سوى الانطباعت الممتعة. على الرّغم من التّخيّل، فإنّ المسرّات التي ترافقُ بعض أشكال الاضطراب العقلي تكون حقيقيّة. بعض العقلاء القليلون إن وجدوا سيهتمّون باختبار الأمر مقابل سعر مرتفع جدّا، لكنّ هؤلاء الّذين على دراية ب«رسائل تشارلز لام» لابدّ أن يعرفوا أنّ لامب نفسه قد خضع لعلاج الأمراض العقليّة[4]. في رسالة إلى كوليردج مؤرّخة في 10 يونيو 1796، يقول: «في وقت ما في المستقبل، سوف أحاسبكم حتى يتحول الحساب إلى متعة بقدر ما تسمح به ذاكرتي من التقلّبات الغريبة لجنوني. أعيد النّظر إليها مرّة أخرى بنوع من الحسد في أحيانٍ كثيرة، وسطَ استمرارية تلك الحالة، كان لديّ الكثير من ساعات السّعادة النّقيّة. لا تحلم يا كوليردج بتذوّق كلّ عظمة التوهم ووحشيّته حتّى تصبح مجنوناً! يبدو كلّ شيء بالنسبة لي الآن مبتذلاً نسبياً جدّا».

أما بالنّسبة إليّ، فقد بدأت المشاريع الإنسانيّة الضّخمة، وإن كانت مبهمة للغاية في اللّيلة الأولى، في تشكيل نفسها داخل عقلي بسعادة. بدت حديقة أفكاري مليئة بالزّهور الشبيهة في أغلب الأحيان بزهور الصّبّار الّتي تزهر سريعاً ليلاً. إنها صورة لوهم العظمة الذي يتملك جميع النّباتات المزهرة الّتي تعتقد أنّها مبالغة في إسرافها إذا كشفت عن جمالها للقمر! مع ذلك كان القليل من خيالاتي الجريئة، يصعب

(4) . تشارلز لام (Charles Lamb) ولد في 10 فبراير 1775 وهو كاتب إنجليزي اشترك مع أخته ماري في كتابة "قصص من شيكسبير أو Tales from Shakespeare" عام 1807. اشتهر في مجال النقد بكتابه نماذج شعراء الدراما الإنجليز. من أشهر مؤلفاته مقالات ايليا، التي جمعت ما بين 1823 و1833، وحشد فيها كثيرًا من ذكرياته وخبراته.(المترجمة).

الإمساك بها وغير مبالغ في روعتها.

إنّ الفطرة الدّينيّة موجودة في الإنسان البدائيّ. ليس من الغريب أنّ الجانب الدّينيّ من طبيعتي في ذلك الوقت أوّل من أظهر نشاطاً لا يمكن مقاومته. سواء كان هذا راجعاً إلى إنقاذي من حالة الموت وأنا حيّ، وتقديري الفوريّ لنعمة الرب عليّ وعلى أولئك الأقارب المخلصين الّذين قاموا بجميع الصّلوات خلال السّنتين السّابقتين هذا لا يمكنني أن أصرّح به.

لكنّ الحقيقة تعلن عن نفسها. في حين أنّني عندما كنت أشعر بالاكتئاب، علقت أهمّية شرّيرة لكلّ شيء تمّ القيام به أو أيِّ شيء قيل في وجودي، الآن أقوم بتفسير أكثر الأحداث تفاهة على أنّها رسائل من الله. بعد يوم من هذا التّحول ذهبت إلى الكنيسة. كانت أوّل مراسم لي خلال سنتين ولم أكن أحضرها رغماً عني.

تركت قراءة المزمور–ال45– انطباعاً دائماً عليّ، وكان التّفسير الّذي وجدته له بمثابة المفتاح لموقفي خلال الأسابيع الأولى من الابتهاج. بدا الأمر لي وكأنّه رسالة مباشرة من السّماء.

بدأ القسّ خطبته قائلا: «فاض قلبي بكلام صالح. متكلّم أنا بإنشائي للملك. لساني قلم كاتب ماهر». أيّ قلب غير قلبي؟ والأشياء الّتي طواها، ما هي إلّا مشاريع الإنسانيّة الّتي ازدهرت في حديقة أفكاري أثناء اللّيل؟ متى، عندما وجدت نفسي بعد بضعة أيّام أقوم بكتابة رسائل طويلة جدّاً بأداة غريبة، وأصبحت مقتنعاً أنّ لساني كان يثبت نفسه «بقلم كاتب ماهر». في الواقع، أنا عبر هذه الكلمات التنبّئية أتتبّع بداية رغبة لا تقاوم، ويعدّ هذا الكتاب أوّل ثمارها.

«أنت أكثر عدلاً من بني البشر، انسكبت النّعمة في شفتيك» كانت تلك هي الآية التّالية الّتي قرأتها (أنا والمجاميع)، التي ردّ عليها القسّ، "لذلك باركك الرب إلى الأبد"، كانت تلك هي فكرتي "بالتّأكيد لقد تمّ اختياري كأداة يتمّ بها إصلاحات كبيرة"، (معَ دخولِ الطّحينِ إلى طاحونة العقل المبتهج، حتّى الأناشيد الإلهيّة تبدو أنّها لا تستحقّ ذلكَ).

«تقلّد سيفك على فخذك، أيّها الجبّار، جلالك وبهاءك. وبجلالك اقتحم. اركب: من أجل الحقّ والدّعة والبرّ».

أجاب القسّ:" فتريك يمينك اليمنى مخاوفك"- كان ردّا آخر.كنت أستطيع قول الحقيقة. كنت أعرف ذلك. **"الدّعة"** لم أتمكّن من الاتّفاق مع ذاتي، باستثناء أنّه خلال السّنتين السّابقتين عانيت الكثير من الإهانات دون ضغينة واضحة.«نبالك المسنونة في قلب أعداء الملك، شعوب تحتك يسقطون». نعم، قد يكون لساني حادّا كسهم، ويجب أن أكون قادرا على الوقوف ضدّ أولئك الّذين يقفون في طريق الإصلاح مرّة أخرى: «أحببتُ البرّ وكرهتُ الإثم، من أجل ذلك مسّدكَ الرب بدهنِ الابتهاج أكثر من رفقائك». لم أطبّق الجملة الأولى على نفسي، ولكن بعد ذلك، كما افترضت، فإنّ استعادة رجل لنفسه، كان من السّهل أن تشعرني بأنّني قد تمّ تمسيدي بدهن الابتهاج لأسمو فوق رفاقي. دهن السّعادة هو في الحقيقة عبارة مناسبة ليصف بها حالة الابتهاج.

قال القسُّ: «لقد أكّدت آخر آيتين من المزمور الرّسائل الموجودة في الآيات السابقة. أذكر اسمك في كلّ دور فدور، من أجل ذلك سوف تحمد الشّعوب إلى الأبد». كان ذلك هو الجواب الّذي قرأته. هذا يعني شهرة خالدة بالنّسبة إليّ، ولكن بشرط أن أكون على وشك

الانتهاء من مهمّة الإصلاح وهو التزام وضعه الرب على عاتقي عندما أعاد إليّ إدراكي.

عندما شرعت في مسيرة الإصلاح، كنت مدفوعا إلى ذلك بدوافع جزئيّة مثل تلك الّتي كان يمتلكها دون كيخوت عندما أتى كما يقول سيرفانتس: «إنّهُ يعرّض نفسه للخطر والتّهديد من أجل تصحيح كلّ أنواعِ الأخطاء، ومن خلال ذلكَ سيبلغُ شهرة أبديّة». وبتشبيه نفسي ببطل سيرفانتيس المجنون، لم يكن هدفي سوى دفع هذه الذّات نحوَ دائرة مسحورة من الفروسيّة. ما تمنّيت فعله هو أن أجعل الأمر واضحا، وأن يتمكّن رجل مجنون من التأرجح دون مقاومة بأفضل ما لديهِ من غرائز، وبما أنّهُ لم يزل في مرحلة من سحر التّمجيد ومثاليّة المكانة، قد لا يكون مستعداً فحسب، بل وحريصاً على تحمّل المخاطر وتحمّل الصّعاب الّتي كان سيتولّاها على مضض، في ظلّ الظّروف الطّبيعيّة، إذا تولّى أمرها إلى الأبدِ. ولكي أكون عادلاً مع نفسي، لاحظتُ أنّ خطّتي للإصلاح لم تفترض مطلقًا عدمَ جاذبيتها، وبالتّالي انخفضت نسبة عدم قابليّتها للتنفيذ. في فترة وجيزة أصبحت أميل إلى طواحين الهواء. وأصبح القلم سلاحي بدلاً من المشرط المستعمل للهجوم والدفاع، وبالنّسبة إلى هذه النّقطة كنت على يقين أنّهُ عليّ الدّفع بضميري المدنيّ ذات يوم نحوَ المشاركة في الأنشطة الإنسانيّة، وبذلك فتحَ الحقل المهمل لي البابَ أمام الرّجال والنّساء الجادّين الّذين عليهم أن يتصرّفوا كالفرسان من أجل آلاف المنكوبين الّذين هم أقلّ قدرة على القتال من أجل أنفسهم.

الفصل الرابع عشر

لم أجد أيّ وقت كي أحاولَ مرّة أخرى التّواصل معهم بما أنّني كنتُ بلا أقارب ولا أصدقاء لأكثر من عامين. على الرّغم أنّي استجبت إلى طلب الوصيّ عليّ، بأن أوفّرَ له يومين أو ثلاثة أيّام في البداية، حتّى يطّلع فيها المقرّبون على المنحى الجديد الّذي آلت إليهِ شؤوني. كتبت العديد من الرّسائل خلال الجزء الأخير من الأسبوع الأوّل. وفي الواقع، سرعان ما استنفدت الكثير منها إمدادات القرطاسية، والتي كانت قد وضعت تحت تصرّفي بناء على اقتراح من الوصيّ عليّ، الّذي رتّب بحكمة أحقّيّتي في الحصول على ما أريد، إذا كان مناسباً .

بناء على اقتراح شخصيّ منّي، أعطاني المشرف عليّ أوراقاً كبيرة من أوراق التغليف. حيث شرعت في تقطيعها إلى شرائط بطول قدم. فواحد من هذه الشّرائط بطول أربعة أقدام سيكفي فقط ل«رسالة غرامية»، أمّا الرّسالة الحقيقيّة في العادة فتتطلب عدّة شرائط من هذا النّوع يتمّ لصقها معا. كتبت رسائل بطول عشرين أو ثلاثين قدما أكثر من مرّة، وفي إحدى المرّات، تراكمت ليوم أو يومين نتيجة للإنتاجيّة المفرطة، وعندما بُسِطت على الأرض، امتدّت من طرف الممرّ حتّى بلغت الطّرف الآخر على بعد حوالي مائة قدم. كان إنتاجي كلّ ساعة

يقدر بحوالي اثنا عشر قدما، بمتوسّط قدرة مائة وخمسين كلمة للقدم. يشعرُ المرءُ بالفخرِ وهو يقومُ بكلّ شيء في زمن قياسيّ ودافعةُ البهجةَ في ذلكَ. رغمَ سرعتي، لم تكن رسائلي متشظّية. كانت ببساطة تميل إلى الاستطراد، وهو أمر متوقّع، حيث أنّ ابتهاج النّفس يُغلّفُ «هدف المرء» بالضّبابيّة. رغمَ انطلاق هذه الرّسائل الضّخمة، إلّا أنّ قلّة منها بلغت عناوين أصحابها، لأنّ الوصيّ عليّ كان قد أصدرَ حكمهُ بأن يتمّ إرسال إنتاجي الأدبيّ وشحنه إليه. كان تصرّفه مثيرا للغضب، لكنّني أدركت لاحقا أنّه قدّم لي معروفا عظيما عندما وضع حكمه بين عقليّتي السّاخنة والعقول الباردة لعالم مبتذل. غير أنّ هذا التّدخّل فيما اعتبرته من حقوقي، أثبت أنّه الخطوة الأولى في التّجاوز العامّ لها من قبل المرافقين غير اللّبقين، وبصفه خاصّة من قبل طبيب مساعد معيّن. لطالما أبديت ميلا قويّا إلى الإشراف. ونتيجة لذلك، كان من الطّبيعيّ، في حالتي البائسة، أن يكون لديّ فائض من الدّوافع الرّياديّة. ومن أجل تقليص هذا الضّغط الرّياديّ، شرعت في تحمّل المسؤوليّة الكاملة عن هذا المستشفى الّذي حدث أنّني كنت محتجزا داخلهُ حينها. ما أصدرته في نهاية الأمر كأوامر حتميّة كان يتمّ تقديمها في البداية كاقتراحات مهذّبة. وحينَ لا تلقى اقتراحاتي احتراما وتنفّذُ مطالبي في الحال، تكونُ قد استكملت بإنذارات نهائيّة. لقد كانت ذات حدّين، فبقدر ما لحقني من مشاكل بسببها، تمكّنت أن أظفر بما كنت أصبو إليه من غايات.

أدركت من الطبيب المساعد المسؤول عن حالتي، أنّه لم يستطع تنفيذُ جميع طلباتي، لأنه وبشكل غير حكيم قام برفض معظمها. لو

كان لبقًا، لكان بإمكانه اتّخاذ نفس الموقف دون إثارة عدائي. كما أنّه يعاملني بعدم الاكتراث الّذي تطوّر أخيراً إلى ضغينة، والتي أدّت إلى الكثير من المشاكل لنا معاً .

خلال الشّهرين العصيبين التّاليين، كان كلّ من المدير والمشرف يدفعاني للقيام بأيّ شيء تقريباً عن طريق طلب ذلك الأمر ببساطة. فإذا تمكّن رجلين من أصل ثلاثة أشخاص من السّيطرة عليّ بكلّ سهولة خلال هذه الفترة من الإثارة العقليّة، فهل من غير المعقول أن نفترض أنّ الرّجل الثّالث، الطّبيب المساعد، كان يمكنه بالمثل، السّيطرة عليّ لو كان يعاملني باحترام؟ لقد كانت غطرسته العلنيّة هي الّتي ولّدت احتقاري له. في رسالة كتبتها خلال أسبوعي الثّاني من مرحلة الابتهاج، أعربت عن رأيي الّذي مفاده أنّه ينبغي علينا أن نتّفقا بشكل جيّد. لكن كان ذلكَ قبل أن أكون مزعجا بما يكفي لاختبار صبر الرّجل. ومع ذلك، فإنّ الأمر يشير إلى أنّه كان من الممكن أن يوفّر على نفسه ساعات من الوقت والقلق اللّاحق، لكان حينها قد التقى مقدما بحالتي الودّية في الرّوح الملائمة، لأنّها نوعية القلب بذات مقدار العقل هي الّتي تسعد المجانين.

لقد تملّكني الدّافع الأدبيّ للدّرجة الّتي عندما جلست أوّل مرّة لكتابة رسالة، رفضت صراحة أن أتوقّف عن الكتابة والذّهاب إلى الفراش عندما أمرني المرافق بذلك. كان يراني هذا الرّجل صامتا ووديعا لأكثر من عام ، ثمّ كان التّغيّر المفاجئ والمذهل من الطّاعة السّلبيّة إلى الاستقلال الّذي لا يلين، والّذي حيّره بطبيعة الحال.

هددني بسحبي إلى غرفتي، لكنّ الغريب أنّه قرّر عدم القيام بذلك.

بعد نصف ساعة من محاولات الإقناع العقيمة، تصاعد الدّم إلى عقله خلال تلك الفترة، وقد أثبت ذلك العضو المندهش امتنانه من خلال إنجابه لفكرة معقولة في الوقت المناسب. وبحيلة غير معتادة، بأن تم قطع إمدادات الضّوء في المفتاح الكهربائيّ، حيث قام بوضع الجناح بأكمله في الظّلام. لقد أعجبت سرّا بما فعل، لكنّ كلماتي في تلك المناسبة على الأرجح لم تعبّر عن فكرة الاستنكار الّذي كمن في داخلي. ذهبت إلى الفراش بعد ذلك، ولكن ليس إلى النّوم. لقد جعلت نشوة الابتهاج كلّ ساعة من الوعي ساعة من السّعادة الجذلى، ولم تعرف ذاكرتي يوما مشرقًا كأشعّة الشّمس أكثر من تلك اللّيالي. كانت بوّابات الفكر مفتوحة على مصراعيها. وكانت الغيرة بين الأفكار بعضها البعض بدت تقفزُ فوق بعضها في سعيها المجنون لتقديم نفسها إلى غروري الّذي استعاد مجده.

كنت توّاقًا بطبيعتي إلى الرّفقة، لكن لم يكن هناك الكثير من المرضى الّذين كنت أهتمّ بالحديثِ معهم. لكنّي رغبت كثيرا في إشراك الطّبيب المساعد في محادثة، حيث كان رجلا يتوفّرُ على درجة من التّعلّمِ وعلى علم بتاريخ حالتي. لقد حاول هذا الرّجل أن يحثّني على الكلام حين قيّدت الأوهام لساني. عندما كنت على أتمّ الاستعداد للتّحدث معه، نادرا ما كان يصغي إليّ، بدا أنّ تجنّبه المدروس لم يعمّق من رغبتي في إعاقته. كان ذلك في الأسبوع الثّاني تقريباً، حيث بلغت عقليّتي الإصلاحيّة درجة من الحدّة. كان الجناح الّذي كنت محتجزا فيه مؤثّثا على شاكلة المنزل. ورغم ذلك وكي أكون عادلا لم يكن التّشابه كبيراً. وحول ما يسمّى بالجناح العنيف، كان لديّ أفكار

مناسبة أقلّ بكثير. على الرّغم من آنني لم أتعرّض للإيذاء الجسديّ خلال الأربعة عشر شهرا الأولى من إقامتي هنا، إلّا آنني رأيت قوّة غير ضروريّة.. قوّة وحشية يستخدمها المرافقون هنا في التّعامل مع العديد من المرضى الّذين يطلق عليهم لقب «مرضى خطيرون»، وهم الّذين تمّ إيداعهم عند وصولهم، في الجناح الّذي كنت فيه. كنت قد سمعت أيضا إشاعات مستترة حول المعاملة القاسية للمرضى المستهترين في الجناح العنيف.

قرّرت ذات مرّةً إجراء تحقيق شامل في المؤسّسة. ولكي أتمكن من إثبات أنّ عملي المقصود كان متعمّدا، كانت أوّل تحرّكاتي هي إخبار واحد أو اثنين من المرضى الآخرين بأنّي يجب أن أقوم قريباً بانتهاك بعض القواعد الّتي تستلزم نقلي إلى الجناح العنيف. في البداية فكّرتُ في كسر بضعة ألواح من الزّجاج، لكنّ أنجز هدفي بطريقة أخرى وفي وقت أقرب ممّا كنت أتوقّع، إذ قام الوصيّ عليّ، في أثناء وجودي، بإخبار الطّبيب المساعد أنّ الأطبّاء قد يسمحون لي بأن أتّصل به كلّما رغبت في ذلك. وكانت لديّ الرّغبة في اختبار الطّبيب غير الودود من قيامه بتلبية أيّ طلب لي في التّحدث مع الوصيّ عليّ، لذا في صباح ذلك اليوم طلبت الإذن للاتّصال به لاحقا. في ذلك الصّباح كنت قد تلقّيت رسالة من أخي. وهذا ما عرفه الطّبيب، لأنّني عَرضتُ عليه الرّسالة ولكنني لم أعرض محتوياتها. استندتُ في مطالبي على هذه الرّسالة، رغم أنّ أخي لم يودّ حتى أن يتحدّث معي، ومع ذلك، لم يكن لدى الطّبيب أيّ وسيلة لمعرفة أنّ ما أقوله غير صحيح. وكان رفض طلبي ببساطه إحدى نزواته المتهوّرة، وقام بالرّفض المقتضب

والاحتقار المعتاد. تقبّلت رفضه بهدوء وقمت بنقد حادّ لشخصيته. فقال: «إذا لم تتوقّف عن الكلام بتلك الطّريقة سأقوم بتحويلك إلى الجناح الرّابع». (كان هذا هو جناح مرضى العنف) .

«ضعني في المكان الّذي يعجبك» كان ذلك ردّي، «سأضعك في الحضيض قبل أن أذهب». نفّذ الطّبيب تهديده عند هذا الحدّ وأرسلني مع الحارس الّذي رافقني إلى جناح العنف وهو في الواقع يحرص على السّجين.

لقد تمّ تأثيث الجناح الّذي أنزل فيه الآن (13 سبتمبر 1902) بأبسط الطّرق. كانت الأرضيّات من الخشب الصّلب، والجدران عارية. وفيما عدا ساعة تناول المريض لطعامه أو خارج الأبواب مع الممارسة الرّياضيّة اليوميّة المعتادة، عادة ما يسترخى المرضى في غرفة واحدة كبيرة، حيث يتمّ استخدام دكاكة ثقيلة من الخشب، إذ يعتقد أنّ المقاعد في أيدي المرضى العنيفين قد تصبح تهديدا للآخرين. مع ذلك، كانت ثمة مقاعد من النّوع الكبير في غرفة الطّعام للمرضى الّذين نادرا ما يندفعون وقت الأكل. ومع ذلك، فإنّ أحد هذه المقاعد في غرفة الأكلِ سرعان ما سيكون له تاريخ.

بما أنّ عقوبتي صدرت عليّ في وقت قصير، فقد فشلت في التّزوّد بعدد من الأشياء الّتي أرغب فيها الآن. كان طلبي الأوّل هو أن يتمّ إمدادي بأدوات للكتابة. إلّا أنّ المرافقين رفضوا أن يمنحوني طلبي بلا شك بناء على أوامر الطّبيب، ولم يعطوني قلم رصاص، وهو لحسن الحظّ الأمر الّذي لم أكن في حاجة إليه، لأنّني حصلت على واحد. على الرّغم من رفضهم، تمكّنت من الحصول على بعض

الأوراق، الّتي سريعا ما انشغلت في كتابة الملاحظات عليها لمن هم في السّلطة. وتمّ تسليم بعض من هذه الملاحظات (كما علمت في وقت لاحق)، ولكن لم يتمّ إبداء أيّ اهتمام لها. لم يكن أيّ طبيب يقترب منّي حتّى حلول المساء، عندما قام الطّبيب الّذي قام بنفيي يقوم بجولاته التّفتيشيّة المعتادة. عندما ظهر، استأنفت محادثة الصّباح الّتي قطعت – وقد كانت من قبلي وبنفس المنوال. طلبت مرّة أخرى الإذن بالاتّصال الهاتفيّ بالوصيّ عليّ. ورفض الطّبيب مرّة ثانية، وبالطّبع، مرّة ثانية أخبرته عن رأيي به.

لقد أسعدني سجّاني. كنت في المكان الّذي تمنّيت أن أكون فيه، وشغلت نفسي بظروف التّحرّي وكتبت ملاحظات عقليّة .

ولأنّه كان يمكن للطّبيب المساعد منح صلاحيّات للمرافقين، الّذين كان لديه صلاحيّات فصلهم، فقد كانوا يطيعون أوامره واستمرّوا برفض معظم طلباتي. وعلى الرّغم من موقفهم غير الودود، تمكّنت من إقناع المشرف، الّذي كان رجلا طيّبا معي طوال السّنين، لإيصال ملاحظاتي إلى المسؤول في المستشفى. طلبت منه ذلك الأمر مرّة واحدة، لأنّني كنت أتمنّى التّحدّث معه. لكنّ المسؤول، الّذي كنت أعتبره صديقا، لم يردّ على ملاحظتي، ولم يقم بزيارتي. اعتقدت أنّه أيضا قد تجاهلني عن قصد. وكما علمت فيما بعد أنّه والمشرف كانا غائبين في ذلك اليوم، ولعلّني ما كنت سأعامل بطريقة أقلّ فوقيّة من الطّبيب المساعد، الّذي لم يكن غائبا.

صباح اليوم التّالي، بعد تجديد طلبي وتكرار رفضه، طلبت من

الطّبيب أن يرسل إليّ «سفر المزامير»[5]. الّذي تركته في غرفتي السّابقة. وعلى الرّغم من ذلك فقد امتثل الطّبيب، معتقدا أنّ بعض التّديّن على الأقلّ لن يكون منه ضررا عليّ. ربما قرأت المزمور المفضل لديّ وهو المزمور ال45، لكنّ معظم الوقت قضيته في الكتابة على الصّفحات الخالية فيه، المزامير الخاصّة بي. وإذا كانت قيمة المزمور تقاس بشدّة الإحساس الموصوف، فإنّ مؤلّفاتي في ذلك اليوم كانت تنتمي بحقّ إلى كتابات الملك داود.

لقد وجّهت المزامير الّتي كتبتها إلى أولئك المسؤولين الموجودين في المستشفى، وفي وقت لاحق قام المشرف الّذي أثبت أنّه صديق لي في مناسبات عديدة بنقل الكتاب إلى المقرّ الرّئيسيّ.

وضعني الطّبيب المساعد، الّذي خلط بين لغتي المتلاعبة التي اعتبرها نوعا من العنف، في عزلة منعتني من حضور القدّاس الّذي أقيم في الكنيسة ذلك الأحد بعد الظّهر. والوقت الّذي كان يجب أن أقضيه في الكنيسة، قضيته بدلا من ذلك في إتقان خطّة مبتكرة إلى حدّ ما للتّواصل مع المسؤول. في ذلك المساء، عندما ظهر الطّبيب مرّة أخرى، اقتربت منه بطريقة ودّيّة وكرّرت طلبي بأدب. لكنّه مرّة أخرى رفض تحقيقه لي.

قلت في حالة من الاستسلام: «حسنا، يبدو أنّه لا جدوى من مناقشة هذا الأمر معك، وكما تمّ تجاهل الملاحظات الّتي أرسلتها لآخرين حتّى الآن، أودّ، بعد إذنك الكريم، أن أحفر حفرة في المبني

---

(5) . كتاب المزامير أو سفر المزامير The Book of Psalms هو الجزء الثالث من الكتاب المقدس العبري وكتاب العهد القديم المسيحي. وتنسب المزامير ككل إلى الملك داود.(المترجم).

القديم لأهرب وأقدّم نفسي غدا إلى المسؤول في مكتبه».

«تهرب!» قالها بسخرية. ثمّ دخل بعد ذلك الجناح المجاور، حيث ظلّ هناك لمدة عشر دقائق. إذا كنت سترسم في عقلك، أو على الورق حرف "L" والسّماح للجزء الرّأسي من الحرف أن يمثّل غرفة طولها أربعين قدما، والجزء الأفقيّ من الحرف يمثّل عشرين قدما، وإذا كنت سوف تتخيّلني واقفا عند مدخل في منطقة تقاطع هذين الخطّين -من الباب إلى غرفة الطّعام- والطّبيب يقف خلف باب آخر في الجزء العلويّ من الخطّ العموديّ، على بعد أربعين قدما، سيكون لديك حينها رسم بيانيّ لجيوش المعارضة قبل أوّل هجوم حقيقيّ لها فيما اتّضح بعد ذلك أنّه حصار لمدّة سبعة أسابيع .

اختفيت عبر المرور من بابي إلى غرفة الطّعام في اللّحظة الّتي عاد فيها الطّبيب إلى الجناح، كما كان عليه أن يفعل للعودة إلى المكتب. ثمّ قمت بعد ذلك بالسّير بطول الغرفة والتقطت أحد المقاعد الخشبيّة الثّقيلة، الّتي تمّ اختيارها لتحقيق هدفي بينما كان الطّبيب ومسؤوليته الودعاء في الكنيسة. استخدمت المقعد كمصدّ للضّرب، ودون أيّ سعادة لئيمة في قلبي - تعمّدت دفع اثنين من أرجل المقعد إلى الجزء العلويّ والجزء السّفليّ من نافذة زجاجيّة ذات أربعة ألواح. كان سوء التّقدير الوحيد الّذي فعلته هو الفشل في وقوفي مباشرة أمام النّافذة، وعلى مسافة مناسبة حتّى أتمكّن من كسر كلّ الأجزاء الأربعة. كان هذا مصدر الأسف بالنّسبة إليّ، لأنّني كنت دائما أكره أن أترك كلّ جزء من عمل مدروسًا بشكل جيّد دون الانتهاء منها.

لقد أدهش حطام الزّجاج المتساقط الجميع فيما عداي. خاصّة أنّه

قد أخاف المريض الوحيد الّذي صادف أن كان في غرفة الطّعام في ذلك الوقت فهرب. لم يتمكّن الطّبيب والمرافق الّذي كان في الغرفة المجاورة من رؤيتي، أو معرفة ما هي المشكلة، لكنّهما لم يضيّعا أيّ وقت في معرفة ذلك. ومثل القاتل الّذي يقف بدم بارد فوق جثّة ضحيّته بهدوء وفي يديه سلاح الجريمة منتظرا الاعتقال، وقفت أنا وبدرجة معقولة من رباطة الجأش منتظراً هجوم الطّبيب والمرافق اللّذين سرعان ما أمسكا بي. لقد أمسك كلّ واحد منهما ذراعا وساروا بي إلى غرفتي. لم يأخذ ذلك أكثر من نصف دقيقة، لكنّ الوقت قصير إلى الحدّ الّذي يمنعني من إيصال توصيفي الشّخصيّ لذلك الطّبيب. وعدم قدرتي على تذكّر الوصف حرفيّا لا يترتّب عليها أيّ خسارة في العمل الأدبيّ. لكنّ ملاحظة واحدة أدلى بها الطّبيب هي ما استحوذ عليّ بالرّغم من أنّها لم تكن شيئا عفويّا. "حسنا، دكتور". قلت، "أعرف أنّك رجل صادق، ولقد فعلت ما وعدت به". وكما بدا هذا الفعل دون معنى، فقد كان نتيجة تفكير منطقي. كان المسؤول مسؤولا بالكامل عن المبني وأمر بجميع الإصلاحات اللّازمة. ولقد كان هو الّذي رغبت في رؤيته أكثر من رؤية الآخرين لذا اعتقدت أنّ كسر بضعة ألواح زجاجيّة (التي كان من المفترض أن أدفع ثمنها لاحقا) سيجذب انتباهه على أساس اقتصاديّ إذ لم يكن على أساس الصداقة الّتي أعتقد أنّه تخلى عنها .

في وقت مبكر من صباح اليوم التّالي، كنت آمل، أن يظهر المسؤول. لقد اقترب منّي بطريقة وديّة (كما كان حاله)، ولقد قابلته بطريقة مماثلة.

قال ذلك بشكل طبيعيّ للغاية: "أتمنّى أن تغادر المبنى قليلا".

- "سأترك كلّ شيء، وسأكون سعيداً إذا أوليت الاهتمام لرسائل".

- "لو لم أكن خارج المدينة، لكنت قد أتيت لرؤيتك على الفور".

كان هذا التّفسير الصّادق الّذي تقبّلته. أخبرت المسؤول عن سلوك الطّبيب المساعد في رفض رغبتي في الاتّصال الهاتفيّ بالوصيّ عليّ. فوافق على عرض الأمر أمام المدير الّذي كان قد عاد في ذلك الصّباح. وكدليل على الامتنان، وعدت بتعليق الأعمال العدائيّة حتّى أنتهي من التّحدث إلى المدير. لقد جعلت الأمر واضحا تماما، مع ذلك فإنّه إذا فشل في الحفاظ على كلمته، فسأرغب في المزيد من التّسهيلات لتهوية الجناح العنيف. إذ لم أكن بعد قد استعدت إيماني الكامل بالبشريّة.



الفصل الخامس عشر

بعد بضعة ساعات، ودون أن ألحظ أيّ شيء ذا أهمّيّة خاصّة، باستثناء ما أصابني، نُقلت إلى جناحي القديم. وسرعان ما ظهر المدير الّذي أمر بإعادة التّأهيل هذا، وأجريت معه حواراً مقنعاً. لقد جعلني أفهم أنّه سيقوم بنفسه في المستقبل بمتابعة حالتي، لأنّه أدرك أنّ مساعده يفتقر إلى اللّباقة والإدراك اللّازمين للتّعامل مع مزاجي - ومع ذلك، اختفت رغبتي في الاتّصال بالوصيّ عليّ.

والآن، لا يرغب أيّ طبيب في المؤسسة أن يأخذ من هذا المساعد المزاجي الجناح الّذي يديره، والسبب كشفي لسلوكياته وتعامله الغير لائق، حتّى بشكل غير مباشر، وبدون شكّ، لقد اهتزّ كبرياء الرّجل حيث أنّ عدم كفاءته صارت واضحة. بعد ذلك، وفي كل كرة يمرّ على الجناح، كانت ثمّة تراشق بيننا (أنا وهو). ليس فقط لأنني لم أفوّت أيّ فرصة للتّقليل من شأنه في حضور المرافقين والمرضى فحسب، بل لأنّني اختلقت مثل هذه الفرص متعمّداً، لهذا لم يمرّ وقت طويل حتّى بدأ في محاولة تجنّبي كلّما أمكنهُ ذلك. لكنّه كان نادراً ما يتمكّن من ذلك. لقد كانت المقابلات معه واحدة من الملاذات الرّئيسية بالنّسبة إليّ. من حين لآخر كان من غير الحكمة أن يَثبتَ في مكانه لعدّة دقائق، وكانت حجته في مثل هذه الأوقات تؤدي فقط إلى

حتمية أن تكون أعصابي أكثر سخونة. إذا كانت هناك أية صفات لم أطلقها عليه خلال الأسابيع اللاحقة من مزامنتي معه، فلا بد من أنه تم اختراعها منذ ذلك الحين .

هذا المزيج الغريب من التعقل الذي أبديته، بالرغم من حالتي الجنونية أحياناً، كان شيء يستطع هذا الطبيب فهمه. فالملاحظات التي أبديتها، والتي قلل هو منها أو تجاهلها، قد ألحقت ألماً كألمٍ وإهانةِ عقل رجل عاقل وحرّ. وقد أدّى رفضه الحادّ والعشوائيّ لمعظم طلباتي إلى إطالة أمد إثارتي العقليّة .

بعد عودتي إلى جناحي القديم، بقيت هناك لمدّة ثلاثة أسابيع، وفي ذلك الوقت كنت شخصاً مهووساً بنفسه. لقد جعلت من مجموعتي الكبيرة والمتنوّعة أوهام من العظمة كلّ شيء كان يبدو من خلالها وفيها ممكناً. وكانت تصاحبها بعض المشكلات والمعارك مع الاستفزاز الكافي الذي كنت أقوم به تجاه المرافقين، لكن كانت مثل هذه المشاكل والمعارك الّتي شاركت فيها فيما بعد إمّا من أجل الحصول على حقوقي أو حقوق الآخرين.

على الرّغم من أنّني تصالحت وتفاهمت جيّداً مع المرافقين منذ فترة طويلة، فقد كان الأمر يلاقي صدى جيّداً مع الطّبيب المساعد، فسرعان ما أصبح الأمر واضحاً أنّ هؤلاء الرّجال قد تملّكهم شعور أنّه كلّما عرفوني أكثر كلّما أحبّوني أقلّ. والسبب بسيط هو افتقارهم إلى القدرة والكفأة على أداء العمل المطلوب منهم، فقد تمكنت بكل يسر أن أسبّب لهم إزعاجاً لا نهاية له.

كنت أودّ أن أخبر المرافقين في مرّات عديدة خلال ساعات اليوم

بما يجب ومالا يجب عليهم القيام بفعله، وأخبرهم بما يجب أن أفعله إذالم تتمّ الاستجابة إلى مطالبي أو اقتراحاتي أو لم تنفّذ طلباتي على الفور. لقد شاهدوني لمدّة عام وأنا في حالة سلبيّة والتي كانت أيضاً خالية من الكلام تقريباً، وبالتّالي كانوا غير قادرين على فهم عدوانيّتي غير المرغوب فيها. كنتُ أهدّدهم بأنّني قد أعاقبهم على أيّ عصيان لأوامري، وكانوا ينظرونَ إليه على أنّه دعابة كبيرة. لم يطل بهم الظّنّ حتّى جاء يوم تهدّمت فيه تلك الدّعابة على رأس أحدهم.

لقد بدأ الأمر بهذه الطّريقة: في وقت مبكر من أكتوبر، أُدخل رجل إلى الجناح، والسبب في جنونه كان جزئه الأكبر العائد إلى العطش المفرط لجرعة خمر. كان عمره أكثر من خمسين عاماً، وذا تعليم جيّد، متمرّسا بالأسفار، مهذّبا ولديه مزاج فني. كانت الصّحبة المتجانسة نادرة في المكان الّذي كنت فيه، لذا سرعان ما اندمجنا في صداقة متفاهمة. كان هذا الرّجل محتجزًا في المؤسّسة بسبب أقاربه. وكما كان شائعاً في مثل هذه الحالات، كان ثمة العديد من الأكاذيب«البيضاء» الّتي تمّ اللّجوء إليها من أجل توفير المتاعب لجميع المعنيّين، الجميع ما عدا المريض نفسه. أن يتم أخذك دون سابق إنذار ومن خلال الخداع، وتُوضع في جناح مع خمسة عشر رجلاً آخرين، جميعهم يعانون من الجنون بدرجات متفاوتة. إنّها محنة قاتلة وفي وسعِ المرءِ أن يتخيّل وحشتها. لقد كانت تجربة هذا الرّجل محنة بدورها. رجل حرّ في يوم ما، وجد نفسه محروما من حرّيّته في اليوم التّالي، حاملاً صفة بما يمكن اعتباره عاراً لا يمكن تحمّله.

كان السّيّد بلانك (كما يجب أن أدعوه) فاقدًا للثّقة في نفسه تماماً.

ولأنّه كان غريباً في عالم غريب ومؤسسة غريبة أعرفها جيداً بعد مرور كل هذا الوقت، فقد أخذته تحت جناحي الواقي والرّحب. لقد فعلت كلّ ما استطعت لأدخل البهجة عليه، وحاولت أن أوفّر له الاحترام الّذي بدا بالنّسبة إليّ ضروريًا لرفاهته. لم يتمّ إجبار المرضى في حالته الصّحيّة أبداً، عند ممارسة تمارينهم والسّير مع المرضى الآخرين. لم أر في أيّ وقت من الأوقات خلال الأشهر الأربعة عشر السّابقة مريضاً جديداً يجبر على ممارسة الرّياضة ضدّ إرادته. كان المعترض يغادر الجناح مهما حدث، أو كان يتمّ إبلاغ رفضه للطّبيب قبل اتّخاذ أيّ إجراء آخر. لا يحتاج أيّ إنسان عاقل إلى أن يعمل خياله حتّى يدرك مدى الإهانة لهذا الرّجل والتي سيسببها السّير مع حشد يشبه إلى حد كبير"عصابة مقيدة". كانوا يسيرون إثنين إثنين، تحت الحراسة. كان هؤلاء الرّهائن لسوء الحظّ يحصلون على المشية الطّويلة الوحيدة بما تسمح بها حرّيتهم المقيّدة. بعد مناسبة أو مناسبتين عندما سار هذا الرّجل مع العصابة، كنت قد تأثّرت بالفكرة غير المعقولة كلّيًا بأنّ التّمارين البدنية لن تعوّض بأيّ طريقة الاضطراب العقليّ الّذي يسبّب الشّعور بالذّل والعار والّذي يجعله في معانة مستمرة. كان من السّهل عليّ أن أتدخّل بالنّيابة عنه، وعندما جاء إلى غرفتي باكياً بمرارة، مهتاجاً من احتمال حدوث مثل هذا الإذلال، أكّدت له أنّه ينبغي عليه ممارسة تمارينه في اليوم الذي أمارس فيه تماريني. فقد كانت أوّل خطوة لتحقيق النّتيجة المرجوة هي «الاقتراب»، وبطريقة وديّة طلبت من المرافق المسؤول أن يسمح لصديقي الجديد أن يسير معي عندما أسير في المرّة المقبلة.

فقال إنّه لن يفعل شيئا من هذا القبيل، وإنّه يعتزم أخذ هذا الرّجل للتّمرين عندما يقوم بأخذ الآخرين.

«نحنُ وأنتَ في هذا الجناح منذ أكثر من عام ، لم أر أيّ رجل في حالة السيد بلانك يجبر على الخروج للتّريض في الخارج».

«لا يمثّل الأمر أيّ فرق. سوف يخرج سواء رأيت ذلك أم لم تر».

«هل تسأل الطّبيب المسؤول عمّا إذا كان بإمكان السّيد بلانك السّير مع مرافقي الخاصّ عندما أذهب أنا للتّمشية أم لا؟»

«لا، لن أفعل. علاوة على ذلك، فإنّ الأمر ليس من شأنك».

«إذا لجأت إلى القوّة الجسديّة وحاولت أخذ السّيد بلانك مع المرضى الآخرين، فسوف تتمنّى لو أنّك لم تفعل». قلت ذلك بينما سرت مبتعدا.

عند هذا التّهديد، ضحك الرجل بازدراء. بالنّسبة إليه لا يعني الأمر شيئا. لقد كان يعتقد أنّني أستطيع أن أقاتل فقط بلساني، وأنا أعترف بأنّني كنت أشكّ في قوّتي القتاليّة. عندما عدت إلى غرفتي، حيث كان السيد بلانك في الانتظار، دعمت شجاعته المتداعية وأكّدت له ثانية أنّه سوف يعبر هذه المحنة المرعبة. وأمرته أن يذهب إلى غرفة معينة في الطّرف الأبعد من القاعة وأن ينتظر هناك التّطورات - إذا كان ثمّة قتال، يكون خطّ المعركة طويلا ولهذا أطاعني.

في خلال دقيقة أو دقيقتين، كان المرافق متوجّها إلى هذه الغرفة. تابعته عن كثب وسرتُ في أعقابه، ومازلت أهدّد بمهاجمته إذا تجرّأ على صبّ غضبه على صديقي. وعلى الرّغم من أنّني لم أكن على دراية

بذلك، إلّا أنّني كنت متبوعا بمريض آخر، وهو رجل على الرّغم من حالتة العقليّة، كانت لديه أبعاد واضحة وقلب مخلص دائما. لقد بدا مدركًا لمتاعب مختمرة ولاحتمالية لجوئي إلى طلب المساعدة. وبمجرّد أن بدأت الحرب الكلاميّة في الغرفة، كان صديقي الحسّاس قد فقد الثّقة في نفسه، وكان يقف بالجوار وينظر على نحو متلهّف.

قلت لهذا المرافق: "إنّني أحذّرك مرّة أخرى، إذا قمت بلمس السّيد بلانك، سوف أقوم بضربك بشدّة حتّى أنّك سوف تتمنّى لو أنك لم تفعل". تمثّلت إجابة المرافق في محاولته الفوريّة لإخراج السّيد بلانك من الغرفة بالقوة. لا شيء يمكن أن يكون أكثر تلقائيّة من أفعالي في ذلك الوقت. في الواقع، حتّى هذا اليوم لا أتذكّر أداء الفعل نفسه. ما أتذكّره هو العزم على القيام به والأدلّة اللّاحقة على أنّني قمت بتنفيذه. في جميع الأحوال، كنت قد قرّرت بالفعل أن أفعل شيئا محدّداً إذا فعل المرافق شيئا مّا.

لقد قامَ بشيء مّا وقمتُ أنا بفعلِ شيء آخر. وقبل أن يلمس شخص السّيد بلانك تقريباً، تلقّى ضربة قويّة في عينه اليسري من قبضتي اليمنى. عندها أصبحت محلّ انتباه المرافق –لكن ليس انتباهه الكامل– لأنّه كان يخنقني، عندها تقدّم حليفي الّذي لم يكن متوقّعا قدّم وقام بخنق المرافق بالمثل. كنت قد ألقيتُ على الأرض أثناء المشاجرة وكانت قبضة المرافق فوق حلقي. وقبضة زميلي المزدوجة على حنجرة المرافق. وهكذا تمّ تشكيل سلسلة ذات صلة ضعيفة، إن لم تكن مفقودة، في المنتصف. تخيّل، إذا صحّ التّعبير، رجل مجنون يجرى خنقه من قبل شخص يفترض أنّه عاقل، وهو بدوره يتمّ إنقاذه

من قبل صديق مجنون مؤقّت للمريض الّذي يتم الاعتداء عليه، وسوف يكون لديك باختصار مشهد انتقاميّ لم يتمكن خبير بلاغيّ من صياغته بعد. لقد أثبتت العلامات المتروكة على حلقي من إبهامه أنّني خنقت بقوة. وأميل إلى الاعتقاد بأنّ منقذي، الّذي كان رجلا قوياً جداً، ترك أيضا علامة قاتلة على حلق مهاجمي. لو لم يظهر المدير في تلك اللّحظة لكان الرّجل في حالة من فقدان الوعي، لأنّني متأكّد من أنّ حليفي لم يكن سيطلق سراحه أبدا حتّى يطلق هو سراحي. في اللّحظة الّتي لمح فيها المرافق بعينيه المدير، انتهت المشاجرة على الفور. كان ذلك أمرا طبيعيّا، لأنّه كان مخالفا لميثاق الشّرف الّذي يحصل عليه جميع المرافقين في العادة، هذا الشّخص لا بدّ أنّه نسي نفسه حتّى يسيء معاملة المرضى في حضور شهود عقلاء وأكفّاء. لم يؤدّ الاختناق الّذي عانيته إلّا إلى إرخاء أحبالي الصوتية. لقد أخبرت الطّبيب كلّ شيء، المناوشات اللفظية الأولية والشّجار الّذي لا داعي له. لقد تخرّج المدير من جامعة ييل منذ أكثر من خمسين عاما قبل تخرّجي، وبسبب هذا الاهتمام المشترك ولباقته البارعة تواصلنا معا بشكل جيّد. لكنّ اهتمامه الودود لم يمنعه من التّعبير عن رأيه في بعض الأحيان، كما أثبتت كلماته. حيث قال «أنت لا تعرف كم تحزنني رؤيتك – خريج ييل- أنتَ تتصرف مثل شخص فظّ».

كان مدارُ ردّي حولَ ما إذا كان النّضال من أجل حقوق رجل أكبر سنّا، غير قادر على حماية مصالحه الخاصة، هو فعل فظّ، فأنا على أتمّ الاستعداد كي أكون فظا.

حسنا، هل أحتاج أن أضيف بأنّ المرافق لم يأخذ السّيد بلانك

للتريّض هذا الصّباح؟ ولم يتمّ إجباره حسب علمي مرّة أخرى على ممارسة تمارينه ضدّ إرادته؟

الفصل السادس عشر

أدرك المدير الآن أنّني كنت مفعماً بالحيويّة في المجال الإنساني كي أستمرّ في البقاء في جناح مع العديد من المرضى الآخرين. فأفعالي كان لها تأثير معنويّ عليهم، لذلك تمّ نقلي على الفور إلى غرفة خاصّة، وهي واحدة من اثنتين تقعان في ملحق صغير من طابق واحد. كانت هذه الملحقات جيدة وجذّابة نوعا ما، تشبه في تصميمها شقّة أعزب. بما أنّه لم يكن هناك أحد هنا أستطيع أن أتواصل معه دون أن أسبّب إزعاجا. إنّهُ رجل يناسب مزاجي مادامَ معي مرافقا معيّنا. هوَ من جعلني أتفهّم الطّبيعة البشريّة. ولم يلجأ مطلقا إلى استخدام القوّة حينَ تفشلُ الحجّة في تحريكي، والتّغاضي عن التّجاوزات التّافهة الّتي كان من شأنها أن تؤدّي إلى الاقتتال لو تصرّف مثلما يتصرّف المرافق النّموذجيّ. كان أيضا يتجاهل أو يقوم بتبليغ الطّبيب سرّا. طوال فترة الإثارة الشّديدة الّتي كنت بها، كان هناك أشخاص معيّنون يستطيعون السّيطرة عليّ، وعلى أشخاص آخرين ممّن يؤدي حضورهم إلى دخولي في حالة من الغضب الشّديد، وإلى حالة عاطفية ذات نتائج مؤلمة. لسوء الحظّ بالنّسبة إليّ، سرعان ما غادر مرافقي الطّيّب المؤسّسة لقبوله عرض عمل أكثر جاذبيّة. غادر حتّى من دون وداعي. لا شيء يثبت بشكل أكثر حسما مدى أهمّية بقائه أكثر من هذه الإجازة المفاجئة

الّتي أمر بها الطبيب، معتقدا أنّ مثل هذا التغير قد يفرحني. مع ذلك، لم أسبّب أيّ مشاكل عندما تمّ الاستبدال، على الرّغم من أنّني كرهت وضع رجل مسؤول عنّي كان لي في السّابق يحملُ معه سوء فهم. لقد كان في مثل عمري تقريبا ولم يكن من السّهل على الإطلاق أن أتلقّى أوامر منه مثلما كنت أطيع سلفه باعتبار أنّه كان أكبر منّي سناً. ثمّ إنّ ذلك المرافق، صغير السّن، قد كرهني أيضا بسبب العديد من الكلمات غير الملائمة الّتي كنت أقولها له بينما كنّا معا في الجناح العامّ. لقد كان يزن حوالي مائة وتسعين رطلا مقارنة بوزني المائة والثّلاثين رطلا، وكان من الواضح أنّه تمّ اختياره لمرافقتي وذلك لقوّته الهائلة. رغم أنّ الاختيار على أساس الاعتبارات العقليّة بدلا من الاعتبارات الجسديّة لكان أكثر حكمة.

اضطرّ المدير مرة أخرى بسبب تقدّمه الواضح في السّنّ ومرضه إلى عرضِ حالتي بين يدي الطّبيب المساعد، الّذي أعطى لهذا المرافق الجديد أوامر محدّدة بشأني. ما تمّ السّماح لي بالقيام به وما ليس مسموحا لي، تمّ تحديده بعناية. هذه الأوامر، العديد منها غير معقولة، تمّ تنفيذها حرفيّا. لهذا لا أستطيع لوم المرافق. لقد حرمه الطبيب من ممارسة أي اجتهاد. في هذه الفترة كنت بحاجة إلى القليل من النوم. عادة ما كنت امضي جزءا من اللّيل في الرّسم، ولأنني كنت في سبتمبر 1902، بينما كنت في ذروة موجة الثّقة المتمركزة على ذاتي، بدا لي أنّه قد قدّر عليّ أن أكون مؤلّفا للكتب- أو على الأقلّ مؤلّفا لكتاب واحد، والآن أعتقد أنّني قد أكون فنّانا أيضا، وأرسم أعمالي الخاصّة.

في المدرسة، لم أهتمّ أبدا بالرّسم، ولا في الكلّيّة أيضا. ولكن الآن،

أصبح الدافع الفنّيّ الّذي لا يقاوم قويّا. كان أوّل درس ذاتيّ هو نسخة مرفقة من رسم توضيحيّ على غلاف مجلّة «لايف»[6].

ونظرا إلى الظّروف، كان هذا هو الرّسم الأوّلي لي، وقد كان مقبولاً، رغم أنّني لا أستطيع إثبات هذا التّأكيد الآن ، لأنّ المرافقين دمّروه، مع الكثير من رسوماتي والمخطوطات. منذ اللّحظة الّتي أكملت فيها الرّسم الأوّل، كانت الامتيازات مقسّمة بين دوافعي الأدبيّة والفنّية، وبين رسالة مهمة شعرت أنّني مضطرّ لكتابتها وتوجيهها إلى حاكم الولاية، مدمجاً الفنّ مع الأدب. لقد كتبت وقرأت لساعات طويلة خلال فترات اليوم الطويلة، وأيضاً قضيت كثير من الوقت في الرّسم. لكنّ الطّبيب المساعد، بدلاً من تسهيل الأمر عليّ ليمكنني التّخلّص من الطّاقة الزّائدة من خلال الكتابة الأدبية والرسم، أحبطني وتعمد ذلك عند كلّ منعطف، وبدا لي سعيداً بإبداء أقلّ ما يمكن من الاهتمام تجاه طموحاتي الّتي استيقظت حديثاً. بينما كان ينبغي القيام بكلّ شيء لتهدئة عقلي النّشط بشكل غير طبيعيّ، فإنّ اللّامبالاة المتعمّدة والفشل في حماية مصالحي أبقياني في حالة من السّخط. لكنّ الظّروف تغيرت وظهرت الآن وقد أدّت إلى اختناق جديد والّذي لم يكن في محلّه. لقد تمّ توجيه الأطبّاء- دون وعي وحكمة، أعتقد- إلى الاتفاق على كون العزل التّام هو الشيء الوحيد الّذي من شأنه تهدئة عقلي النشط جدّا. ونتيجة لذلك فقد

(6) . أو «الحياة» مجلة أمريكية كانت تصدر أسبوعيا حتى عام 1972. ثم كأعداد خاصة منقطعة حتى عام 1987 ثم كأعداد شهرية بداية من عام 1978 حتى عام 2000. واعيد احياؤها مرة اخرى بعد اعلان غلقها عام 2004 . مازالت المجلة تصدر من حين إلى حين في أعداد خاصة متعلقة بالاحداث الهامة في العالم . خلال عصرها الذهبي كانت المجلة معروفة بجودة الصور واللوح الفنية المنشورة فيها. (المترجم).

أُخذت منّي جميع مواد الكتابة والرّسم وكلّ الكتب. وفي الفترة من 18 أكتوبر وحتّى الأوّل من يناير التّالي، باستثناء فترة أسبوعين، كنت محتجزاً في غرفة صغيرة تحملُ قضبانًا بالكاد تكون أفضل من زنزانة في السّجن، وفي بعض الحالات تكون أسوأ بكثير .

كانت قطعة الذّرة هي العامل الحاسم في هذه الأزمة والسبب كالأتي: لقد رأيت في نفسي رافائيل مصغّرا(7)، كان لديّ عادة في الاحتفاظ بجميع أنواع الصّعاب لأبقيها كتذكارات على تطوّري. وأعتقد أنّ هذه التذكارات قد تقدّست بلمسة كلمسة ميداس الّتي ستكون يوما ما ذات قيمة كبيرة.(8) وإذا كان الجمهور يستطيع أن يتحمّل، كما يفعل آلاف من صائدي التّذكارات، فمن المؤكّد أنّ شخصا بعقل مريض ينبغي أن ينغمس في نزوة جمع مثل هذه الهدايا التّذكاريّة كلما كانت في متناول يده. بين الاحتمالات والنّهايات الّتي جمعتها كانت هناك العديد من كيزان الذرة. تلك الّتي نويت أن أطليها يوما ما لأجعلها مفيدة عن طريق توصيلها بمقياس الحرارة الصّغير. ولكن صباح يوم 18 أكتوبر، أخبرني الشّابّ المسؤول عنّي، بعد أن وجد كيزان الذرة، أنّه سيلقي بها بعيدا. وأبلغته على الفور أنّ أيّ فعل من هذا القبيل من جانبه سيؤدي إلى اندلاع القتال. وهذا ما حدث. عندما بدأت هذه المعركة، كان هناك اثنان من المرافقين قاتلتهما حتّى وصلنا إلى طريق مسدود، أخبرتهم أنّني سوف أستمرّ في القتال حتّى جاء الطّبيب المساعد إلى الجناح. عندئذ، أدرك مرافقي الخاصّ، أنّني

---

(7) . رفايللو سانزيو رسام إيطالي و مهندس معماري من عصر النهضة Raffaello Sanzio .(المترجمة)

(8) . أو الملك ميداس Midas ، وهو شخصية اسطورية في الاساطير اليونانية مشهورة بقدرتها على تحويل الاشياء إلى ذهب بمجرد لمسه لها.(المترجمة).

عنيت ما قلته، فأمسك بي بينما ذهب الآخر للحصول على مساعدة. وسرعان ما عاد، لكن ليس مع الطّبيب المساعد، بل مع مرافق ثالث، ثمّ تجدّد القتال. كان الشّخص الّذي تصرّف كمبعوث أكثر إقداما من الاثنين الآخرين اللّذين وقفا على مسافة آمنة. كان بالطّبع، ضدّ قواعد المؤسّسة أن يقوم مرافق بضرب مريض، وحيث أنّني كنت عاقلاً بما يكفي مع فرصة عادلة للإبلاغ عن الاعتقاد بأيّ ضربات ممنوعة، كان على كلّ واحد من الّذين يحتجزونني أن يكتفي بتقييدي بذراع ومحاولة خنقي وإخضاعي.

ومع ذلك، فقد تمكّنت من منعهم من القبض على حلقي، ولمدّة عشر دقائق تقريبا واصلت القتال، وأخبرتهم طوال الوقت أنّني لن أتوقّف حتّى يأتي الطّبيب. أخيرا ظهر الطّبيب المساعد، إلّا أنّه لم يكن المسؤول عن حالتي، وأعطى الأوامر بإيداعي في جناح "المرضى العنيفين"، وهو يجاور الشّقة الخاصّة الّتي كنت اشغلها، ولم يتمّ إضاعة أيّ وقت حتّى تمّ حبسي في غرفة صغيرة في ذلك الجناح. لقد قال لي الأصدقاء: "حسنا، ما الّذي يجب عمله عندما يخرج عن السّيطرة؟"، أفضل إجابة يمكنني الإدلاء بها هي: "لا تفعل شيئا يجعله يخرج عن السّيطرة". وقد أخبرني الأطبّاء النّفسيّون منذ ذلك الحين أنّه لو كان لديّ مرافق على قدر من الحكمة والقدرة والفكاهة، وسمح لي بالاحتفاظ بكيزان الذّرة الّتي لا تقدّر بثمن، كان من المحتمل ألّا تقع المعركة، ولا الأحداث الأسوأ التي تلتها، لا في اليوم ذاته ولا في أيّ وقت أبدا، لو أنّني كنتُ قد عوملت بطريقة لائقة من قبل المسؤولين عنّي. لذا فقد وجدتني مرّة أخرى نزيلاً في الجناح

العنيف-لكن هذه المرة ليس بسبب أيّ رغبة في إجراء أيّ تحقيق في الأمر. إنّ الفنّ والأدب أصبحا الآن أكثر إثارة للانتباه من خططي الإصلاحيّة، فقد أصبحت، في الحقيقة، مقيما دون إرادتي في غرفة وجناح خال حتّى من أيّ منظر جماليّ. كانت الغرفة نفسها نظيفة، وفي ظلّ ظروف أخرى لعلّها تكون مبهجة.

كان طولها يقدّر بحوالي اثني عشر قدما وبعرض سبعة أقدام واثني عشر قدما على مستوى الارتفاع. كانت مزوّدة بمجموعة من المصابيح المتوهّجة، ومحاطة بزجاج شبه كرويّ معلّق بالسّقف. كانت الجدران ذات ألواح خشبيّة عارية وواضحة، وبها نافذة كبيرة مفتوحة، بها قضبان خارجيّة، لتمنح الضّوء. وفي أحد جانبي الباب، كان ثمة مربّع بحكم قدم يحتوي على باب خاصّ يمكن فتحه من الخارج فقط، ومن خلاله يمكن تمرير الطّعام إلى مريض يفترض أنّ حالته خطرة. وفي الجانب الآخر كان ثمّة سرير، أرجله مثبته في الأرض، ولم يكن هناك أثاث آخر بالغرفة.

كان المرافق قبل أن يقوم بحبسي في الغرفة قد قام بتفتيشي وأخذ منّي عدّة أقلام من الرّصاص، لكن قلمًا صغيرا جدًّا نجا من قبضته. بطبيعة الحال، لكي تؤخذ من سكن مفروش بشكل جدّي وتلقى في مثل هذه الغرفة العارية الكريهة فذلك أمر يسبّب ارتفاع ضغط الدّم واقترابك من نقطة الغليان. وبالتّالي، كان أوّل عمل قمت به هو إرسال مذكّرة إلى الطّبيب الّذي كان مسؤولا عن حالتي بشكل منتظم، وطلبت منه أن يزورني بمجرّد وصوله، وكانت لديّ كلّ الأسباب للاعتقاد بأنّه تمّ تسليمه تلك المذكّرة. وسواء كان هذا ما

حدث أم لا، لا بدّ أنّه قد وصله تقرير عن المشاجرة الصّباحيّة ونقل ما حدث من قبل عدّة شهود. وبينما كنت أنتظر إجابة، كنت مشغولا بالكتابة، ولافتقاري إلى أيّ أدوات مكتبيّة فقد كتبت على الجدران. وابتداء من أعلى مستوى وصلت إليه، كتبت على أعمدة، كلّ منها يبلغ عرضه ثلاثة أقدام. لكن سرعان ما أصبح قلم الرّصاص باهتا، بيد أن أقلام الرّصاص الباهتة يمكن شحذها بسهولة على حجر وبذكاء. مستخدما الذّكاء الفطريّ، سمحت لنفسي بالعودة إلى التصرّفات البدائيّة الملائمة. لقد قمت بقضم الخشب من القلم الرّصاص، ولم يتبقّ منه سوى الجرافيت، ومع القليل من الجرافيت، يمكن لليد الموجّهة بغطرسة الابتهاج الشّديد أن تصبّ اللّعنات على جميع الرّجال والأشياء. وهو الأمر الّذي أميل إلى تصديق أنّني فعلته، وأتساءل عمّا إذا كان رافائيل أو مايكل أنجلو- اللّذين اعتبرتهما أسلافي - قد وضعا إحساسًا في كلّ قدم مربّع من روائعهم الجداريّة.

أحيانا، كنت أقوم بأشياء صغيرة لأضع النّقاط على الحروف، وكمحاولة لجذب الانتباه، ركلت الباب بقسوة. بدأت المعركة الأولى في اليوم، السّاعة 8 صباحا. وخلال الساعات الثّلاث التّالية تركت أتحرّك وحدي بجنون في الغرفة. لقد عقدت عزمي على أن أجبرهم على الانتباه إليّ. وقبل شهر من ذلك، مكّنني الزّجاج المحطّم من تحقيق غرض معيّن. ومرّة أخرى خدمني ذلك اليوم. كانت المصابيح الكرويّة المعلّقة في السّقف تبدو أكثر نقطة غير محصّنة يمكن بدء الهجوم منها. خلعت حذائي وألقيت به بقوّة موجّها إليها ضربة مدمّرة ونجحت في تحطيم الزّجاج. حلّ المرافقون المسؤولون بغرفتي.

وتأخّر دخولهم بسبب الباب الّذي علق بسرعة. لقد كنت واقفا بجانبه، وعندما تمّ فتحه ضربتني حافته في جبهتي بقوّة كافية لكسر جمجمتي. وبمجرّد دخولهم إلى الغرفة، ألقى بي اثنان من المرافقين على الفراش وقام أحدهم بخنقي بشدة لدرجة أنّي قد شعرت بخروج عينيّ من مآقيهما. ثمّ قام المرافقان بترتيب الغرفة، وإزالة الزّجاج -كلّه ما عدا قطعة صغيرة تبدو بريئة، لكن الأحداث أثبتت، أنّها جزء قاتل جداً، ثمّ أخذا حذائي ومرّة ثانية قاما بحجزي في غرفتي- دون أن ينسيا أن يلعناني جيّدا لجعلهما يقومان بعملهما الّذي يرتزقون منه.

عندما وصل الطّبيب أخيرا، قابلته بوابل من الشّتائم بسبب ما حدث، وباستعراض الأحداث الّتي تتالت سريعا، لابد آنّني أهدرت أيّ وميض من إحساس بالتّعاطف معي كان لديه. لقد طلبت منه أن يسمح لي بإرسال كلمتي إلى الوصيّ عليّ ليأتي على الفور، ومراعاة شؤوني، لأنّني كنت أعامل بشكل غير عادل. طلبت أيضا أن يأتي المدير لزيارتي على الفور، ولأنّني لن أتعامل مع الطّبيب المساعد أو المرافقين الّذين أهملوني وأساءوا معاملتي. لكنّه لم يحقّق أيّا من مطالبي.

إذا كنت أتذكر بشكل صحيح كانت قطعة الزّجاج الّتي لفلها المرافق في إبهامي، فإنها لم تكن جزءا من الكرة المكسورة. لقد كانت قطعة ربما كان النزيل السابق قد خبّأها في زاوية المربّع المفتوح في جانب الباب.

في جميع الأحوال، إذا كان القلم هو لسان الكاتب الماهر، فيجب أن تكون قطعة الزّجاج كذلك في ظلّ ظروف معيّنة. وبينما بدت لي

الفكرة الّتي في ذهني خالدة فقد قررت أن أقوم بالنّقش بدلا من الكتابة بالجرافيت المتلاشي. في أعلى لوح الباب، الذي ضربني قبل دقائق بعنف، حفرت سبع كلمات وجدانيّة صادقة، إذا لم تكن كلاسيكيّة: «بارك الرب في وطننا الذي يسمّى جحيما».

لقد منحني الوقت العنيف الّذي قضيته في الصّباح شهيّة فتناولت عشائي بتلذّذ، ولكن مع بعض الصّعوبة، حيث كان الخنق الذي تعرضت إليه قد أذى حلقي. عند تقديم العشاء، تركني المرافق مرة أخرى مع آلتي. وقضيت الجزء المبكر من فترة بعد الظهر في تحقيق أقسى المساعي بلا جدوى من استدعائهم وحملهم على تدوين الملاحظات الموجّهة للمدير ومساعده. لكنّهم استمرّوا في تجاهلي. وبحلول الغروب، أفسحت الإثارة الغاضبة والمعركة الّتي اختبروها في الصّباح الطّريق لما يمكن تسميته بالإثارة التّداوليّة.

كنت قد ناقشت حالتي مع الطّبيب المساعد قبل بضعة أيّام فقط وأخبرته عن الحافز الانتحاريّ الّذي كان قويّا جدّا خلال فترة الاكتئاب التّام الّتي مررت بها. والآن أعتقد أنّ محاولة انتحار «زائف»، من المرجّح أن تخيف المرافقين وتدفعهم إلى استدعاء الطّبيب الّذي أرغب في حضوره الآن– وتزداد الرّغبه بسبب تجاهله. لم يعش إنسان من قبل وأحب الحياة مثلما أحببتها في ذلك اليوم، والمأساة الوهميّة الّتي أدّيتها بنجاح عند الغروب، أعتقد أنّها كانت في جودة أيّ مهزلة ارتكبت. إذا كان لديّ أيّ طموح كانت لتستمرّ فترة أطول بما يكفي لأستعيد حرّيتي، أضع وراء قضبان السّجن كلّا من الطبيب وأتباعه. ولكنّ هدفي كان فقط هو جذب انتباههم. كانت الشمس

عادة ما تغرب مع الخامسة والنّصف في ذلك الموسم، وهو الوقت الّذي يقدّم فيه العشاء عادة. لذا كانت غرفتي مظلمة جدّاً واضطررتُ لتجهيز أدواتي بسرية. قبل ربع ساعة من ظهور المرافق بوجبتي المسائيّة، كنت قد قمت بتجهيزاتي.

ولكي يكون المسرح منسجماً مع المؤامرة الّتي أجهّز لها، قمت بتمزيق بعض الأوراق الّتي كانت معي، وأتلفت مقالات أخرى كانت بالغرفة - مثلما قد يفعل المرء في حالة الجنون، ولإكمال مسرحية إيهامهم بحالة اليأس الّتي انتابتني، تعمّدت أن أكسر ساعتي. ثمّ خلعت بعد ذلك حمّالات بنطالي، وربطت أحد أطرافها بالسّرير وصنعت أنشوطة من الأخرى. ثمّ وضعتها باسترخاء حول عنقي. وفي اللّحظة الحرجة وضعت وسادتي على الأرض بالقرب من رأس السّرير وجلست فوقها- حتّى يكون ذلك موتا سهلا. ثمّ حملت ما يكفي من الوزن على الأنشوطة حتّى يعطيها مظهرا مقبولا. وكانت آخر لمسة نابضة بالحياة (أو بالأحرى ما يشبه الموت) أضفتها كانت من خلال الغرغرة كما كنّا نفعل أيّام الطّفولة السّعيدة. لم يتمتّع أيّ تلميذ بالقيام بمزحة مثلما استمتعت بتلك المزحة. وسرعان ما سمعت خطوة المرافق، وهو يحمل إليّ العشاء. وعندما فتح الباب، لم يكن لديه أيّ فكرة عن حدوث أيّ شيء غير عاديّ في الدّاخل. وعندما عبر من الممرّ المضاء إلى الغرفة المظلمة، أخذ بعض الوقت حتّى يتمكّن من الرّؤية جيّدا ويفهم الموقف- ثمّ فشل في استيعاب ما يحدث، لأنّه وعلى الفور اعتقد أنّني قد أكون نصف فاقد للوعي من الخنق. وفي حالة من الهلع الهائل قام هذا الحقير الّذي كان في الهجوم الصّباحي

باستدعاء زميله الحقير الآخر وتمّ تحريري من الأنشوطة الّتي لم تكن أكثر من مزحة مسلّية، على الرّغم من تصديقهم أنّها كانت محاولة للتّعذيب أو للانتحار. وقد خمدت اللّعنات الخسيسة الّتي تلقيتها في الصّباح الآن. لقد تحدّثا إليّ بعطف وعبّرا عن أسفهما أنّني رأيت منهما ما جعلني أقدم على مثل هذا الفعل. كان تعاطفهما صادقا كما يجب أن يكون، لكنّه تعاطف من النّوع الفقير في أفضل حالاته، لأنّه دون شك كان نتيجة للتّفكير في العواقب الّتي كانت ستنالهما نتيجة إهمالهما. وبينما كان هذا الضّغط غير المرغوب فيه يهدّد راحة بالهما، واصلت أداء دوري متظاهرا بأنّني مازلت فاقدا للوعي.

بعد فترة وجيزة من إنقاذي من موتي المزيّف، حمل المرافقون جسدي الضّعيف وروحي السّاخرة إلى غرفة مجاورة، حيث تمّ وضعي برفق على سرير، وبدأت تدريجيّا أستفيق.

سأل أحدهم: «لماذا فعلت ذلك؟»

قلتُ: «ما الفائدة من العيش في مكان مثل هذا، حيث تتمّ الإساءة إليّ كما حدث اليوم؟» أنت والطبيب تجاهلتماني وكلّ طلباتي. حتّى كوب الماء بين الوجبات رفض وكلّ طلباتي الأخرى الّتي لا يحقّ لكم رفضها. لو أنّني قتلت نفسي، كان سيتمّ فصل كلّ منكما، وإذا وجد أقاربي وأصدقائي كيف كنتم تسيئون إليّ وتهملوني، فسيتم القبض عليكما ومحاكمتكما».

أرسلت ملاحظة إلى الطّبيب بالفعل. وسارع بالحضور إلى الجناح، وأنفاسه المتقطّعة تظهر كيف أنّ دعابتي تحوّلت بالخطأ إلى مأساة. في اللّحظة الّتي دخل فيها تركت تمثيل الدّور الّذي كنت ألعبه.

قلت له «الآن أنت ووحوشك الثّلاثة تقفون حيث أريدكم أن تكونوا، وسوف أخبرك ببعض الأشياء الّتي لا تعرفها، ربّما تعتقد أنّني حاولت الانتحار. لكنّها كانت مجرّد حيلة لجعلكم تظهرون لي بعض الاهتمام. عندما أقدمت على التّهديد وأخبرتك أنّ الهدف الوحيد في حياتي هو أن أحيا طويلا بما يكفي لاستعادة حرّيتي ووضع المسيئين في مكان مثل هذا، خلف القضبان، ضحكت بكلّ بساطة على ما أقول، أليس كذلك؟ لكن الحقيقة هي أنّ ذلك هو طموحي، وإذا كنت تعرف أيّ شيء على الإطلاق، كنت ستعرف أنّ الإساءة لن تدفعني إلى الانتحار. يمكنك الاستمرار في الإساءة إليّ، وإبقائي في عزلة عن الأصدقاء والأقارب، لكن مع الوقت سأجعلك تتعرّق من الخوف لأجل كل ما فعلتهُ. سأضعك في السّجن حيث تنتمي. لكن إذا فشلت في القيام بذلك، يمكنني على الأقلّ أن أتسبّب في فصلك من هذه المؤسّسة، وبوسعي فعل ما هو أكثر من ذلك». لم يكترث الطبيب والمرافقون بتهديداتي، غالبا ما كانت تسمع مثل هذه التهديدات في هذا المكان، ولا تكاد تترك أيّ انطباع، لأنّها نادرا ما تكون حقيقيّة. عندما أصدرتُ هذه التّهديدات، أردتُ حقّا وضع هؤلاء الرّجال في السّجن. ليست لديّ اليوم أيّ رغبة في ذلك، ألم يكونوا ضحايا لنفس المعاملة الشّريرة الّتي تعرّضت لها؟ ففي كلّ مؤسّسة يتمّ فيها السماح بوجود المبادئ المخزية "للتقيد"، فإنّ الجوّ العامّ يكون غاية في الوحشية. ضع هراوة في يدي رجل، مع تعليمات باستخدامها عند الحاجة، وسوف تنسى طبيعيّا كلّ الطرق الأكثر إنسانية وتهذيبا في الإقناع أو يتمّ التّخلّي عنها عمدا.

خلال الفترة الّتي أمضيتها، خاصّة خلال الأشهر الأولى من حياتي عندما كنت أقوم بعمل عدة رجال طبيعيّين، طلبت زيادة كمّية الطّعام للحصول على الطّاقة غير الطّبيعيّة الّتي تطلّبتها أنشطتي.

كان لدي شهية نهمة، وأصررت على أن يعطيني المرافق العشاء الّذي كان من المفترض أن يحضره إليّ عندما وجدني في حالة محاكمة الموت الّتي كنت فيها. لكنّه رفض في البداية، ثمّ وافقَ في النّهاية وأحضر لي كوبا من الشّاي وبعض الخبز بالزّبدة. وبسبب الخنق الشديد الذي تعرضت له في وقت سابق من اليوم كان ابتلاع أيّ طعام على درجة من الصعوبة. لقد"اضطررت" أن آكل ببطء. على الرّغم من ذلك أمرني بالإسراع وهدّدني بأنّه سيأخذ ما أحضره من عشاء قليل. أخبرته أنه لن يمكنه- لأنّ من حقّي الحصول على عشائي وأن آكله وأنا مرتاح على قدر الإمكان.

لقد أغضبه ما قلت، حتّى أنّه حاول بشكل غير متوقّع انتزاع الطّعام من يدي فجأة، فتمكّن من أخذه كلّه إلّا قطعة من الخبز. حتّى تلك حاول انتزاعها لكنّي قاومت وكانت المشاجرة الثّالثة لليوم على وشك الحدوث - وخلال خمس دقائق، ترك الطّبيب الجناح. أجلِستُ على الفراش، وأمسك المرافق بحنجرتي وخنقني بقوّة بيديه المعتادة على هذا العمل اللّا إنساني. في هذه الأثناء، كان شريكه قد قام بشلّ حركتي بأن ثبّتني على ظهري بينما يقوم الآخر بخنقي حتّى بدأت أفقد القدرة على التّنفّس. لقد كانت المعركة الأولى خلال اليوم بسبب قطعة ذرة، ومن ثمّ معركة المساء كانت بسبب قطعة خبز. لقد كنت قريبًا من تسجيل قليل من الأحداث في ذلك اليوم من شهر أكتوبر بحساب

هذه الإساءة الّتي وصفتها منذ قليل، القليل، إن لم يكن هناك أحد يمكنه تخيّل مدى إخفاقي في ذكر كل الإساءات الّتي تعرّضت لها في ذلك اليوم.

والحقيقة هي أنّ نصف الإساءات الّتي تعرّضت لها لم يتمّ ذكرها. لأنّ التّعامل معي خلال الأربع والعشرين ساعة كان الأسوأ، ولكن على الرّغم من المعاملة غير العاديّة الّتي يتلقّاها كثير من المرضى في مثل تلك الظّروف، فإنّني أشعر بالضّيق لوصف ما أصابني تلك اللّيلة. فهناك العديد من الأساليب الّتي تستخدم للضّبط حتّى اليوم في مختلف المصحّات، وأهمّها "التّقيّد الآليّ" وما يسمى بـ"التّقيد الكيميائيّ". الأوّل تستخدم فيه أدوات مثل السترات، أو الأصفاد، أو الأشرطة، أو القفازات، أو القيود، أو الأغطية القويّة، وما إلى ذلك- جميعها، باستثناء مناسبات نادرة، تكون كلّها أدوات للإهمال والتّعذيب. ويتكوّن التّقيّد الكميائيّ (الّذي يسمّى أحيانا بالتّقيد الطّبي) من **عقار الهيوسين**[9] المعروف الّذي يستخدم كجرعة مخدّرة.يتمّ إفقاد وعي المريض لساعات في كلّ مرة عن طريق استخدم مثل هذه العقاقير. في الواقع، يتمّ تخدير المرضى شديدي الاضطراب (خاصة عند نقص عدد الممرّضين) والاحتفاظ بهم على تلك الحالة لعدّة أيّام أو حتّى لعدّة أسابيع، ولكنّ ذلك يكون فقط في المؤسّسات الّتي لا تكون فيها لرعاية المرضى أهمّية كبرى .

بعد قتال العشاء، تركت بمفردي في غرفتي لمدّة ساعة تقريبا. ثمّ

---

(9) . عقار الهيوسين "Hyoscine" يستخدم في تخفيف التشنجات العضلية وسبب استرخاء للعضلات.

دخل الطّبيب المساعد مع ثلاثة من الممرّضين، بما في ذلك الاثنان الذين كانا إبّان المسرحيّة التي قمت بها. كان واحد منهم يحمل اختراعا من القماش الكتاني الثّقيل يعرف باسم القميص. والقميص هو نوع من السّترات، ونوع مناسب للغاية بالنسبة إلى أولئك الّذين يلجؤون إلى أساليب المقاومة، لأنّه يتيح لهم إنكار استخدامهم لسترة التّقيد على الإطلاق. فسترة التّقيد، في الواقع، ليست عبارة عن قميص، تماما مثلما الصّعق بالكهرباء ليس شنقا. فالقميص، أو كما يفضّلون أن يصفوه، هو معطف ضيّق من قماش ثقيل، يمتدّ من الرّقبة إلى الخصر، ولكن دون نمط عاديّ. ليس فيه زرّ، والأكمام مغلقة عند النّهاية، والسّترة، ليس بها فتحة أماميّة، ولكن تمّ تعديلها لتكون من الخلف وفي نهاية كلّ كمّ مغلق هناك حبل قويّ متّصل به. ويتمّ نقل الحبل المتّصل بالكمّ الأيمن إلى يسار الجسم، ويتمّ نقل الحبل المتّصل بالكمّ الأيسر إلى يمين الجسم. ثمّ يتمّ ربطهما معا من الخلف بإحكام، ممّا يجعل ذراعي الضّحيّة في وضع مطويّ عبر صدره. ثمّ يتم ربط هذا الحبل بشكل جيّد.

عندما خططت لخدعتي من فترة بعد الظهيرة، أدركت تماما أنّني سأجد نفسي قريبا مرتديا القميص. ثم جعلتني الفكرة أتخيّل، لأنّني كنت قد عقدت العزم على معرفة كيفيّة عمل جناح العنف من الدّاخل. لقد خصّصت لغرض معيّن قطعة الزّجاج الّتي كانت معي في ذلك الصّباح وكتبت بها الشّعار المقتبس. ولمعرفتي أنّني سريعا ما كان سيتمّ وضعي في هذا الوضع غير المريح الّذي لم يكن ضروريا تحمّلهُ عبر قميص ضيق، كانت فكرتي أنّه يمكنني خلال اللّيل،

بطريقة أو بأخرى، استخدام هذه القطعة الزّجاجيّة لتحقيق هدفي- وربّما شقّ طريقي إلى حرّية محدودة. وللتّأكد من الاحتفاظ بها، وضعتها داخل فمي وألصقتها بشكل مناسب قريبا من خدّي من الدّاخل. لم يؤثّر وجودها على طريقة كلامي، كما أنّها لم تجذب النّظر. ولكن لأنّني عرفت الكثير عن القمصان المقيّدة وضبطها كما تعلّمت لاحقا، كان يجب ألّا ألجأ إلى مثل هذه الطّريقة غير المجدية. بعد ليال من التّعذيب، تمّ تعديل السّترة بعد إلحاح وطلب متكرّر منّي، على نحو لو تمّ تعديله من البداية، لما كنت أعاني "التّعذيب" مطلقا. وهو ما عرفته في ذلك الوقت، لأنّني لم أخفق في معرفة الأمر من مريض تمّ تقييده في عدّة مناسبات في هذا القميص ذاته. في هذه المناسبة، دخل عنصر الضّغينة الشّخصية في علاج الطّبيب المساعد لي. كانت شخصيّة الرّجل مزدوجة على مايدو تشبه شخصيّة دكتور جيكل ومستر هايد «Mr. Hyde & Doctor Jekyll» كانت شخصة «جيكل» هي الأكثر وضوحا، لكنّ شخصية «هايد» بدأت تتحكّم في أفعاله عندما نشأت الأزمة [10]. حيث لم يعد في الواقع طبيباً، أو ما يشبهه. لقد كانت أوّل خطوة قام بها هي أن أمسك بالقميص في يديه وأمرني بالوقوف. ولعلمي أنّ أولئك الّذين في السّلطة كانوا يعتقدون حقّا بأنّني قد حاولت قتل نفسي في ذلك اليوم، لم أجد أيّ خطأً في رغبتهم في تقييدي، ولكن اعترضت على أن يكون فعل ذلك من قبل

(10) . " دكتور جيكل ومستر هايد " Doctor Jekyll & Mr.Hyd، رواية للكاتب البريطاني روبرت لويس ستيفنسون. نُشرت للمرة الأولى عام ١٨٨٦ ، وتدور أحداثها حول محامي يفطن لندن يُدعى السيد أترسون يقوم بالتقصي عن أحداث غريبة تقع لصديقه القديم دكتور هنري جيكل وادوارد هايد الشرير. كان للرواية تأثيرا قوياً حتى إن عبارة «جيكل وهايد» أصبحت دارجة لتعني الشخص الذي يختلف توجُّهه الأخلاقي اختلافًا جذريًا من موقف لآخر.(المترجم).

جيكل وهايد. على الرّغم من أنّ قميص التّقيّد يجب أن يتمّ ضبطه من قبل الطّبيب المسؤول ، إلّا أنّني أدركت أنّ هذا الواجب غير المقبول كان قد تمّ في واقع الأمر بتكليف الممرّضين به. نتيجة لذلك، منحتني رغبة جيكل-هايد أداء واجب، كثيرا ما يهرب من أدائه الشّعور بأنّ دوافعه كانت بغيضة. ولهذا السّبب، فضّلت أن أعهد نفسي إلى الرّحمة غير المؤكّدة من الممرّض العاديّ، وقلت ذلك لكن دون جدوى.

قال جيكل-هايد : «إذا أبقيت فمك مغلقا، فسوف أتمكن من أداء هذه المهمّة بشكل أسرع».

«سأغلق فمي بمجرد خروجك من هذه الغرفة، وليس قبل ذلك».

لم تكن لغتي المسيئة بالطّبع متداخلة مع النّعوت الضّروريّة. وكنت كلّما تحدّثت أكثر، كلّما أصبح ميّالا إلى الانتقام. لم يقل شيئا، لكنّه، لسوء حظي، عبر عن مشاعره المكبوتة بشيء أكثر فاعلية من الكلمات. بعد أن قام بربط القميص، وجذب ذراعي عبر صدري بشكل مناسب لدرجة لم أتمكّن من تحريكه ولو بوصة واحدة، طلبت منه أن يخفّف من إحكام السّترة لأتمكّن على الأقلّ من أخذ نفس كامل. كما طلبت منه أن يعطيني فرصة لضبط أصابعي، الّتي كانت في وضع غير مريح.

قال جيكل-هايد: " إذا بقيت ثابتا لدقيقة سوف أفعل". لذا أطعته، وبإرادتي أيضا، لأنّني لم أهتم أن أعاني أكثر ممّا كان ضروريّا. وبدلا من تخفيف القيد كما اتّفقنا، قام هذا الطّبيب، الغاضب بشدة، بتوجيه الحبال بطريقة وجدت نفسي مقيّدا فيها أكثر وبقسوة أشد من

ذي قبل. أصابتني تلك المخالفة للاتّفاق والخرق للثّقة بالجنون. على الرّغم من أنّ ذلك حدث بسبب الوجود المستمرّ لجيكل-هايد الّذي زاد من انفعالي، في النّهاية سيلاحظ أنّه لم ينسحب حتّى أشبع رغبته غير الإنسانيّة التي على ما يبدو تسبّبت فيها كراهية كامنة. وسرعان ما انسحب الممرّضون وحبسوني طوال اللّيل.

لم تكن أيّ من الحوادث في حياتي قد أثّرت في ذاكرتي مثلما أثّرت أوّل ليلة لي وأنا محتجز داخل القميص المقيّد دون غيرها. وفي غضون ساعة واحدة بعد تقييدي كنت أعاني من ألم شديد كما لم أعاني من قبل، وقبل أن تمرّ اللّيلة كان الألم غير محتمل تقريبا. كانت يدي اليمنى مقبوضة إلى درجة أنّ أطراف أصابعي جرحت بواسطة مسمار ثان، وسرعان ما بدأت الآلام حادة كالسّكين تسري خلال ذراعي الأيمن حتّى وصلت إلى كتفي. بعد أربع أو خمس ساعات، دفعني الألم الزّائد إلى فقدانِ الإحساس بذراعي جزئيّا. ولكن لمدّة خمس عشرة ساعة متتالية بقيت في آلة التّعذيب هذه، حتّى الساعة الثانية عشرة عند موعد الافطار تقريبا في الصّباح التّالي، عندما جاء الممرّض ولم يصحب ذلك الكثير من تحرير الحبل. خلال السّبع أو الثّماني ساعات الأولي، كانت آلام مبرحة تعصف ليس فقط بذراعي بل بنصف جسدي. وعلى الرّغم من أنّني صرخت وانتحبت، في الواقع، لقد صرخت بصوت عالي وسمعني الممرّضون، إلّا أنّهم أبدوا القليل من الاهتمام- ربّما كان ذلك بسبب أوامر السّيد هايد بعد أن مثّل دور الطّبيب مرّة أخرى. حتّى أنّني توسّلت إلى الممرّضين ليخفّفوا من قيد السّترة قليلا. وهو ما رفضوا القيام به، ويبدو أنّهم كانوا يستمتعون

بكونهم في وضع يمكنهم من التّفنّن في تعذيبي. وقبل منتصف اللّيل، كنت أشعر حقّا أنّني لا أستطيع تحمّل هذا التّعذيب والتّحكم فيه. لقد شعرت بوخز غريب في عقلي، إحساس مماثل لما حدث في شهر يونيو 1900، وهو ما جعلني أعتقد أنّني قد أتعرّض مرّة أخرى للابتعاد عن عالم التّعقّل الّذي تواصلت معه مؤخّرا، وأدركت فظاعة هذا المصير، لذا قمت بمضاعفة جهودي لإنقاذ نفسي.

بعد منتصف اللّيل بقليل نجحت في اجتذاب انتباه الممرّض اللّيليّ. وعند دخول حجرتي وجدني مسطّحا على الأرض. كنت قد سقطت من على فراشي وبقيت مستلقيا في مكاني عاجزا عن الحركة. لم أتمكّن حتّى من رفع رأسي. ومع ذلك، لم يكن بسبب القميص المقيّد. لقد كان بسبب أنّني لم أستطع السّيطرة على عضلات عنقي الّتي كانت في ذلك اليوم قد تأذت بعنف. لقد تمكّنت بالكاد من ابتلاع الماء الّذي أحضره المراقب اللّيليّ الّذي كان طيّبا بما يكفي لإعطائي جرعة ماء. لم يكن من النّوع على الرّغم من أنّه لم يسمح بفكّ أربطة قميص التّقيّد. وبينما بدا متعاطفا، يمكنني أن أرجع رفضه هذا إلى الأوامر الصّارمة الّتي أصدرها الطّبيب. يذكر أنّني وضعت قطعة الزّجاج في فمي قبل ضبط السّترة المقيّدة. وفي منتصف اللّيل كانت قطعة الزّجاج مازالت هناك. وبعد رفض المراقب في اللّيل، قلت له: "حسنا، أريدك أن تذهب إلى الدّكتور جيكل" (بالطبع، أخبرته باسمه الصّحيح، لكن أقول هذا الآن لأثبت لنفسي كم كان وحشيا مثل السيد هايد نفسه)، "أخبره أن يأتي إلى هنا في الحال ويفكّ هذه السّترة. لا أستطيع تحمّل هذا التّعذيب أطول من ذلك. بعد القتال لمدّة عامين لأستعيد صوابي،

أعتقد أنّني سوف أفقده مرّة أخرى. لقد عاملتني دائما بشكل جيّد. بحقّ الله، اذهب وأحضر الطّبيب»!

قال الممرض المسؤول عن المراقبة اللّيليّة: "لا أستطيع مغادرة المبنى الرّئيسيّ في هذا الوقت" (كان جيكل-هايد يعيش في منزل يبعد حوالي 8 كيلومترات ولكن داخل نطاق أراضي المستشفى).

- «إذا هل تأخذ الرّسالة إلى الطّبيب المساعد الّذي يعيش هنا؟» (كان لدى زميل جيكل-هايد شقّة في المبني الرّئيسيّ).

- «سأفعل ذلك».

- «أخبره كيف أعاني. اطلب منه أن يجيء إلى هنا على الفور ويخفّف من ضيق هذه السّترة. إذا لم يحضر، سيصيبني الجنون بحلول الصّباح كما لم يحدث من قبل. وأخبره أيضا أنّني سوف أقتل نفسي ما لم يأت، وأنّني يمكنني فعل ذلك أيضا. لديّ قطعة من الزّجاج في هذه الغرفة وأعرف ما سأفعله بها».

التزم المراقب اللّيلي بكلمته. وبعد فترة وجيزة أخبرني بعد ذلك أنّه قد أوصل رسالتي. تجاهل الطّبيب رسالتي، ولم يأت بالقرب منّي تلك الليلة، ولا في اليوم التّالي، ولم يظهر جيكل-هايد حتّى ميعاد جولته المعتادة من التّفتيش حوالي السّاعة الحادية عشرة من صباح اليوم التّالي. وعندما ظهر قال:

- «هل تعي أنّ لديك قطعة زجاج هدّدت باستخدامها لغرض انتحاريّ اللّيلة الماضية».

- «نعم، إنها لديّ، وليس خطؤك أنت أو الطّبيب الآخر أنّني

لست ميتا. لو كنت غاضبا في نوبة جنوني ربما ابتلعت هذا الزّجاج».

- «أين هي؟» سأل الطّبيب كمن لا يصدق.

وحيث أن السترة جعلتني مقيّد الأذرع، فقد عرضت قطعة الزّجاج أمام جيكل – هايد وأنا أضعها على طرف لساني الّذي كان قد سمعه كثيرا لكنّه لم يره من قبل.

الفصل السابع عشر

بعد خمس عشرة ساعة لا نهاية لها أزيلت سترة التّقيد. في حين أنّني كنت قبل وضعه في حالة قويّة بما يكفي للمقاومة الشّديدة عند التّعرض للاعتداء، الآن، عند خروجي منه، كنت عاجزا تماماً. وعندما أطلق سراح ذراعي من موضعهما المحدّد، كان الألم شديداً. كان كلّ مفصل في جسدي متألّما. لم يكن لديّ أيّ تحكّم في أصابع أيّ من اليدين، ولم يكن بوسعي أن ألبس نفسي لو منحت حرية فعل ذلك. لأكثر من أسبوع، عانيت كما هو موضّح بالفعل، وعلى الرّغم من ذلك التّدرّج في انخفاض الألم حتّى تعوّد جسدي على الوضع غير الطّبيعيّ الّذي أجبرت على أن تكون به. لقد حدثت تجربتي الأولى في ليلة 18 أكتوبر 1902. لقد تعرّضت لنفس المحنة غير العادلة وغير الضرورية وغير العلميّة لمدة واحد وعشرين ليلة متتالية وأجزاء من كلّ يوم من الأيام الواحد والعشرين. في أكثر من مناسبة، وفي الواقع، كان الممرّض يضعني في قميص التقيد خلال النهار لرفضي إطاعة أيّ أوامر تافهة. بالإضافة أيضا إلى أنّ ذلك كان يحدث دون أمر صريح من الطّبيب المسؤول، رغم ذلك ربما كان يتصرّف بموجب أمر عامّ. خلال معظم هذه الفترة، تمّ احتجازي أيضا في «زنزانة مبطّنة». والزّنزانة المبطنة هي عبارة عن ثقب حقير، جدرانه الجانبيّة مبطّنة بقدر

ما يمكن للإنسان أن يصل إليه وكذلك الباب من الدّاخل. واحدة من أسوأ السّمات في هذه الزّنزانة هو نقص التهوية ، وهو نقص، بالطبع يؤدّي إلى تفاقم العلّة.

لقد كانت الزّنزانة الّتي أجبرت على البقاء فيها عمليا خالية من التّدفئة، وبينما حلّ الشتاء، فقد عانيت بشدّة من البرد. وفي كثير من الأحيان، كان الجوّ باردا للدّرجة الّتي كنت أشاهد بخار أنفاسي. وعلى الرّغم من أنّ قماش السّترة كان مصنوعا بشكل ليحمي أجزاء الجسم الّذي يعذّبه في الوقت نفسه، فقد كنت نادرا ما أشعر بالدّفء، وذات مرة تعرت ذراعي المثبته ولم يكن لدي أي وسيلة يمكنني بها إعادة ترتيب الأغطية. الليالي القليلة التي فزتُ فيها بالقليل من ساعاتِ النّوم فوق مرتبة فراش وضع فوق أرض عارية. كانت حالة المرتبة الّتي وجدتها في الزنزانة قد جعلتني أعترض على أنّها مستخدمة من قبل، وحقيقة أنّ شخصا آخر قد وفّرها في وقت لم يكن يلبّى فيه إلّا القليل من طلباتي وهذا يثبت أنّ حالتها كانت مقزّزة. خلال تلك الفترة من الأسابيع الثّلاثة - من 18 أكتوبر حتّى 8 نوفمبر 1902، عندما غادرت المؤسّسة وتمّ نقلي إلى مستشفى حكوميّ- كنت باستمرار إمّا محبوساً في الغرفة المبطنة أو في غرفة أخرى أو تحت مراقبة الممرّض. ولأكثر من نصف الوقت كنت محميًا، ولكن داخل سترة التّقيد الضّيّقة- ما يعادل حوالي ثلاثمائة ساعة. كنت محتجزا في العزل خلال تعرّضي لهذا الاعتداء الرّهيب. لقد عزلت عن كلّ اتّصال مباشر وعن كلّ الاتّصالات غير المباشرة «الصّادقة» مع الوصيّ القانونيّ على – أخي- وكذلك مع جميع الأقارب والأصدقاء

الآخرين. لقد قطعت حتّى عن التّواصل المرضي مع المدير. لقد رأيته مرّتين ولوقت قصير فلم أتمكّن من إعطائه أيّة فكرة مقنعة عن محنتي. وقد أجريت تلك المقابلات في يومي أحد خلال الفترة الّتي قضيتها في العزل، ولأنّها كانت في يومي أحد فقد كان المدير يقوم بجولته التفتيشيّة الأسبوعيّة. ما هي الفرصة الّتي امتلكتها لأنجح في شرح قضيّتي، في حين أنّ المنبر الّذي أتحدّث منه هو عبارة عن زنزانة مبطنة، والتّجمّع الّذي أتحدّث إليه -باستثناء المدير- هم ذاتهم الأشخاص الّذين يسيئون إليّ؟

في مثل تلك الأوقات أعطى سخطي المكبوت نفسه قوّة بطريقة متشظّية، ذلك لأنّ احتجاجاتي كان قد سرق منها حقّها في الإعلان عن نفسها. لم يكن كلامي غير مترابط. كنت ببساطة أتكلّم بسلاسة وباستطراد- وهي أعراض طبيعيّة للابتهاج. كنت أتحدّث بما يماثل طريقة الملاحظات الّتي تمكّنت من كتابتها على قصاصات الورق الّتي صودرت من قبل جيكل – هايد. في جميع الأحوال، لم يكن الأمر إلّا بعد بضعة أشهر، عندما تمّ إخطار المدير عن طريقة معاملتي، عندها وبناء على طلبي (على الرّغم من أنّني كنت حينها في مكان آخر) طلب حاكم الولاية مناقشة الموضوع معي. كيف أحضرت لهذه المناقشة بينما كنت ما أزال سجينا في مكان آخر سيتمّ سرده في الوقت المناسب. ومن مكتبه في نيوهيفن اتّصل الوصيّ عليّ عدّة مرات بمساعد الطبيب وسأل عن حالتي، بعد أن علم بالطّريقة الّتي عولجت بها. وعلى الرّغم من أنّ جيكل-هايد أخبره أنّني كنت منفعلا للغاية ومن الصّعب السّيطرة على حالتي، فإنّه لم يلمّح حتّى إلى تعرّضي لأيّ وسائل ضبط

غير عاديّة. لقد خدع دكتور جيكل الجميع- وكما اتّضحت الأمور – وخدع نفسه، لأنّه أدرك أنّني سأكون يوما ما بالقيام بما قمت به منذ ذلك الحين، ومن المؤكّد أنّ وحشيّته كان مسيطرا عليها من خلال تقديره. إنّ حجم ما يكون عليه المريض من العجز، تحت رحمة الممرّضين، يظهر بشكل أوضح من خلال إدارة هذا الرّجل نفسه. ذات مرّة، خلال الأسبوع الثّالث من اللّيالي الّتي قضيتها داخل السّترة المقيّدة، رفضت أخذ دواء معيّن قدّمه لي أحد الممرّضين. لبعض الوقت كنت أتناول بانتظام هذا الخليط غير المبرّر دون أيّ اعتراضات، وبما أنّ الممرّض المسؤول عنّي رفض معظم طلباتي، فقد وجب عليّ الالتزام بكافّة طلباته، ولم يتجادل معي في هذه النّقطة. بكلّ بساطة ذكر أمر رفضي للطّبيب جيكل. وبعدها بدقائق قليلة – جاء الطّبيب جيل- أو بالأحرى السّيّد هايد – برفقة ثلاثة ممّرضين، وأدخلت الزّنزانة المبطّنة وقيّدت خلال اللّيل في سترة التقيد. وأمسك السّيد هايد في يديه أنبوبا مطّاطيّا، ووقف الممرّض بالقرب يحمل الدّواء. لأكثر من عامين، كان التّهديد السّائد هو اللجوء إلى «الأنبوب» إذا رفضت تعاطي الدّواء أو الطّعام. وكنت قد بدأت أظنّ أنّها خرافة، لكنّ منظرها في أيدي هؤلاء الطّغاة الآن أقنعني بحقيقتها. لقد رأيت أنّ الطّبيب وقتلته يقصدون العمل، ولأنّني كنت قد تحمّلت ما يكفي من التّعذيب، فقد عقدت العزم على التّنازل في هذه المرّة والهروب ممّا بدا لي أنّه مخزّن من أجلي.

سألت وعيناي على الأنبوب: «ما الّذي تنوي القيام به؟»

– «لقد رفضت أن تتناول الدّواء. وسوف نجبرك على تناوله» .

- «سأتناول دواءك القديم».
- «لقد سنحت لك الفرصة».
- «حسنا. ضع هذا الدّواء بأيّ طريقة تعتقد أنّها الأفضل. لكنّ الوقت سيحين عندما تتمنّى لو أنّك لم تفعل. وعندما يجيء ذلك الوقت لن يكون الأمر سهلا لتثبت إن كان لديك الحقّ لتجبر مريضا على تناول دواء قال إنّه سيأخذه طواعية. إنّني أعرف القليل عن أخلاقيّات مهنتك. ليس لديك الحقّ في أن تفعل شيئا لمريض إلّا ما هو مفيد له. أنت تعلم ذلك. وكلّ ما تحاول فعله هنا هو محاولة معاقبتي، وسوف أمنحك تحذيرا عادلا بأنّني سوف أسعى لمحاكمتك ليس فقط ليتمّ فصلك من هذه المؤسّسة ولكن ليتمّ فصلك من الجمعيّة الطّبية للدّولة كذلك. إنّك عار على مهنتك، وسوف تحضر الجمعيّة الطّبية محاكمتك سريعا عندما يسمع بعض أعضائها من أصدقائي عن هذا الأمر. علاوة على ذلك، سأبلغ عن سلوكك حاكم الولاية. فبإمكانه اتّخاذ بعض الإجراءات حتّى لو كانت هذه المؤسّسة " ليست" مؤسّسة حكوميّة. والآن، عليك اللّعنة، افعل أسوأ ما لديك»!

بالنّسبة إلى حالتي، كان هذا الحديث مستقيماً. كان من الواضح أنّ الطّبيب قد ارتبك. ولو لم يكن يخشى أن يفقد مكانته عند المرّضين الّذين كانوا يقفون، أعتقد أنّه كان سيمنحني فرصة أخرى. لكنّه كان يملك الكثير من الكبرياء وقليلا من الرّجولة للتّراجع عن موقف زائف قد اتّخذه بالفعل. لم أعد أقاوم، حتّى لفظيّا، لأنّني لم أعد راغبا في أن يتراجع الطّبيب. ومع أنّني لم أتعجّل العملية بسرور، فقد كنت أتوق إلى معرفة قدرات الرّجل. كان يعرف أنّني عادة ما أحتفظ بحيلة

أو اثنتين في جعبتي حتّى وأنا بأكمام السّترة المقيّدة، لذا فقد اتّخذوا احتياطات إضافيّة. كنت مستلقيا على ظهري، فوق مرتبة على الأرض. أمسكني أحد الممرّضين، وكان الثّاني يقف بجانبي بالدّواء وبشيء من الإرغام سرعان ما قام السّيد هايد بإدخال الأنبوب في إحدى فتحتي أنفي ليشرع في سكب الجرعة. وكان الممرّض الثّالث يقف بالقرب كقوّة احتياطية. وعلى الرّغم من أنّ إدخال الأنبوب متى كان متقنا، لا يسبّب أيّ معاناة، فإنّ العمليّة الّتي أجراها السّيد هايد كانت مؤلمة. فرغم سعيه لم يتمكّن من إدخال الأنبوب بطريقة صحيحة، على الرّغم من أنّني لم أحاول بأيّ حال من الأحوال أن أعيقه. وبدا أنّ شعوره بالإحراج يُفقِدُ يده القدرة على الإمساك بأيّ شيء.

بعد عشر دقائق من الإخفاق، بدأ أنفي في النّزيف. كان مرتعبا للغاية عندما تراجع هو وطغاته. لكنّي شعرت بحدسي أنّهم سيعودون قريبا. كان ذلكَ ما فعلوه، حيث عادوا مسلّحين لتنفيذ خطّة جديدة للحرب. هذه المرّة، أدخل الطّبيب بين أسناني قطعة خشبيّة كبيرة ليظلّ فمي مفتوحا وقد كان يلحّ في العادة أن أبقيه مغلقا. ثمّ أدخل عنوة إلى أسفل حلقي أنبوبا مطّاطيّا، وقام الممرّض بتعديل مسار القمع، وصبّ الدّواء، أو بالأحرى مادّة سائلة –لم يكن لخصائصها الطّبيّة أيّ تأثير عليّ– سكبت داخل حلقي .

وبما أنّ التّقارير المقتضبة الّتي أرسلت إلى الوصيّ عليّ خلال هذه الأسابيع الثّلاثة كانت تشير إلى أنّني لم أكن أتحسّن كما كان يأمل، فقد قام برحلة خاصّة إلى المؤسّسة، للتّحقّق شخصيّا. ولدى وصوله، لم

يقابله أحد سوى الدّكتور جيكل، الّذي أخبره بأنّني كنت في حالة استثارة شديدة، ويعتقد أنّها سوف تتفاقم بسبب المقابلة الشّخصيّة. والآن لكي يرى الشّخص أخاه في وضع كهذا سيكون أمرا مؤلما بالنّسبة إليه، وعلى الرّغم من أنّ الوصيّ عليّ كان على بعد بضع مئات من الأقدام من زنزانتي في السّجن، فإنّه بطبيعة الحال لم يتلقّ غير اقتراح ليثنيه عن الاقتراب. لقد أخبره دكتور جيكل أنّه قد وجد من الضّروريّ وضعي تحت "السّيطرة" و"العزل" (وهي الأسماء الاحترافيّة لـ"سترة التّقيّد" أو "الغرفة المبطنة"،.. إلخ)، ولكن لم يعطه أيّ تلميح أنّه قد تمّ التّعامل معي بخشونة. لقد كانت سياسة الرّدع لدى دكتور جيكل بلا شكّ معتمدة على العلم بأنّه إذا حدث في أيّ وقت وكنت على مقربة من الوصيّ عليّ وتحدّثت معه، فلن يمنعني شيء من تقديم تقرير ظرفي عن معاناتي- وهو ما كان يمكن تدعيمه بالعين السّوداء الّتي كنت أعاني منها في ذلك الوقت. في الواقع، بالتّعامل مع الوصيّ عليّ أظهر الطّبيب المساعد قدرا من اللّباقة، لو كان تمّ التّعامل معي بها كان من الممكن أن تشعرني بالرّاحة وتبعدني عن المتاعب. وعلى الرّغم من أنّ الوصيّ عليّ لم يبق فترة طويلة، إلّا أنّه شعر أنّ حالتي لم تكن تتحسّن في مكان تواجدي هذا، وبحكمة قرّر أنّ من الأفضل نقلي إلى مؤسّسة عامّة - مستشفى الولاية. وبعد بضعة أيّام أمر القاضي الّذي كان قد أودعني في تلك المؤسّسة قرارا بنقلي. لم يقل شيئا لي عن هذا التّغيّر حتّى لحظة الرّحيل، وعندها بالكاد صدقت ما سمعته بأذني. في الواقع، لم أصدّق من أخبرني، فبعد ثلاثة أسابيع من التّعرّض للإساءة، بجانب عدم القدرة على الاتّصال

بالوصيّ عليّ، قد جعل إدراكي يهتزّ بشدّة لدرجة عرّضتني لتكرار جزئيّ لبعض أوهامي القديمة. لقد تخيّلت أنّني في طريقي إلى سجن الولاية، وعلى بعد أميال قليلة، ولم أصدّق أنّني في طريقي إلى مستشفى الولاية حتّى مرّ القطار بمحطّة السّجن ولكنه لم يتوقّف.

الفصل الثامن عشر

كان مستشفى الولاية الّذي وجدت نفسي فيه الآن، هو المصحّة الثّالثة الّتي تمّ إيداعي فيها، وعلى الرّغم من أنّها كانت في مستوى متوسّط مقارنة بهذه المؤسّسات إلّا أنّها كانت نموذجيّة. لقد احتوت على مساحة جميلة شاسعة لمشهد النّهر والوادي. وهو المنظر الّذي كان مسموحا لي الاستمتاع به -في البداية. لم يكن المسؤولون في المؤسّسة التي غادرتها قد أعطوا للوصيّ عليّ أيّ تقرير مفصّل عن حالتي. وأعتقد أنّ تحفّظهم هذا كان منبعه الكدر وليس من قبيل عمل الخير. إنّ الّذين يروّضون الرّجال الجامحين لديهم ذات الكبرياء الّذي لدى مروّضي الحيوانات البريّة (ولكن لسوء الحظّ هم أقلّ مهارة) والاعتراف بالهزيمة هو أمر لا ينبغي التّفكير فيه. وعلى الرّغم من أنّ المؤسّسات الخاصّة معرّضة لأن تقوم بنقل الحالات المزعجة بها إلى مؤسّسات الدّولة، إلّا أنّه غالبا ما يكون ثمّة افتقار للتّعاطف والتّعاون بينهما، وقد أثبت في هذه الحالة، أنّ ذلكَ من حسن حظّي.

بداية من 18 أكتوبر حتّى بعد ظهيرة يوم 8 نوفمبر، كنت في المؤسّسة الخاصّة مصنّفا كمجنون انفعالي. إنّه «الاسم» الّذي جلبته لنفسي عن طريق السّلوك التّجريبيّ، «الحالة» الّتي تفاقمت واستمرّت بسبب غباء الّذين كانوا مسؤولين عنّي. وكان نفس

السلوك التّجريبي من جانبي والغباء من جانب الّذين أقع تحت وصايتهم، هو الّذي أدّى بعد أسبوعين إلى وضع متشابه. في يوم الجمعة 7 نوفمبر، وُضعت في سترة التقيد. وفي 9-10 نوفمبر، كنت على ما يبدو ليّن العريكة كأيّ مريض من أصل ثلاثمائة وعشرين مريضاً في مستشفى الولاية- بملابس تقليديّة، دمث الأخلاق، بتفكير صائب. وفي التّاسع من نوفمبر، بعد يوم من وصولي، حضرت إلى قدّاس الكنيسة الّذي أقيم في المستشفى. لم يكن تصرّفي أكثر من تصرف لمعظم المتعبدين الموجودين في البلد. في المساء التّالي، كان أكثر سلوك مثاليّ فعلته، أن حضرت واحدة من الحفلات الراقصة التي تقام كلّ أسبوعين خلال فصل الشّتاء. لو كنت مجنونا انفعاليّا، لأدّت هذه الأنشطة إلى اضطرابي، لأنّ المهووسين، بحكم الضّرورة، يتجاهلون الاجتماعات الدّينيّة والمجتمع الرّاقي. ومع ذلك، لو كنت في أيّ من هذه الأيّام، مازلت في المؤسّسة الخاصّة الّتي تركتها مؤخرا، كان ينبغي أن أكون في زنزانة انفرادية مرتديا سترة التقيد. لقد حكم على مساعد المدير، الّذي استقبلني عند وصولي من خلال سلوكي. لقد ألحقني بواحد من جناحين متصلين- وهما الأفضل في المستشفى- حيث يعيش فيه حوالي سبعين مريضا حياة مقبولة إلى حدّ ما. وعلى الرّغم من عدم وجود تقرير رسمي عن حالتي مُرفق بتحويلي، إلا أنّ الممرض المعين لي في مستشفى الولاية، تعامل كمرافق وحارس وقد سبق أن قدم له تقريراً موجزاً عن تجربتي الأخيرة. لكن عندما وصل هذا التقرير أخيراً إلى من هم في السلطة قرّروا بحكمة ألّا ينقلوني إلى جناح آخر طالما لم أسبّب أيّ مشكلات حيث كنت. أخيرا أجد نفسي

بين الأصدقاء، لم أضع وقتا في طلب مواد للكتابة والرسم، التي كانت قد أخذت منّي بكل قسوة الأسابيع الثّلاثة الماضية. تمّ تلبية طلبي على الفور. وتعامل معي الأطبّاء والممرّضون بعطف وبدأت مرّة أخرى أستمتع بحياتي. لم تخفت رغبتي في الكتابة أو الرّسم. ومع ذلك، لم أتفرّغ طوال الوقت لتلك الأنشطة، لأنّه كان هناك الكثير من الصّحبة الملائمة. وجدت متعة في التّحدّث – متعة أكثر ممّا يجده آخرين في الاستماع. في الواقع، لقد تحدّثت بلا انقطاع، وسرعان ما جعلت بشكل عامّ مخطّطي للإصلاح المؤسّسي معروفا، ليس فقط في بلدي، ولكن بالطّبع في جميع أنحاء العالم، لأنّ منظوري المتّسع جعل الأرض تبدو صغيرة.

كان على الممرّضين أن يتحمّلوا وطأة إلحاحي وسرعان ما أصبحوا متعبين. واحد منهم، غامر بالإشارة إلى أنّني كنت "مجنونا" لدرجة لم أستطع معها إبقاء فمي مغلقا حتّى ولو لدقيقة واحدة. كان تحدّيا أشعل روحي القتاليّة.

قلت له: «سأريك أنّه يمكنني التّوقّف عن الحديث ليوم كامل» فضحك، لأنّه يعرف أنّ من بين كلّ المهامّ الشّاقة الّتي فرضتها على نفسي، كان الصّمت بالنّسبة إلى مريض في مثل حالتي من أقلّ الاحتمالات أن يحدث. لكنّني كنت جيدا فيما تفاخرت به. حتى ذات الوقت من اليوم التالي رفضت التحدث إلى أيّ شخص. لم أرد على الأسئلة، وعلى الرغم من أنّ صمتي كان متعمدا ومهذّبا، بدا أنّ الطّبيب المساعد اعتبره نوعا من التّمرّد، لأنّه هدّد بنقلي إلى جناح غير مرغوب فيه مالم أبدأ في التّحدث مرّة أخرى. كان ذلك اليوم من

الصّمت الذّاتي أطول يوم عشته على الإطلاق، لأنّني كنت تحت ضغط كلمة واحدة كافية لملء كتاب. سيقرّ أيّ طبيب نفسي بأنّ أدائي كان رائعا، وسوف يوافق كذلك على أنّه كان على الأقلّ مؤشّرا على درجة عالية من التّحكم في الذّات. على الرّغم من أنّني لا أملكُ رغبة في إثبات عدم أهليتي، إلّا أنّه كانت لدي رغبة في إثبات درجة من ضبط النّفس الّتي ربما كانت ستسمح لي بالبقاء في أفضل جناح في هذه المؤسّسة، وهي ما لم تكن - نيّة غير طبيعيّة، بطبيعة الحال، ولكنّ درجة عالية من التّأنّي- على أساس التّحقيق الإصلاحيّ.

لقد وصلت إلى قمّة ابتهاجي في أوائل أكتوبر. وكان ينبغي الآن (نوفمبر) أن يكون منحنى العودة إلى حالتي الطّبيعيّة مستمرّا ومتناقصًا. لكنّه بدلا من ذلك، ظلّ متأرجحا بقوّة- أو على الأقلّ كان التّأرجح متفاقماً- بسبب استفزاز أولئك الذين كانوا مسؤولين عنّي، وفي بعض الأحيان، أجدُ حرّية في الاعتراف ببعض التّجاوزات المتعمّدة والمقصودة من قبلي أيضا.

كانت حالتي خلال الأسابيع الثّلاثة الّتي أمضيتها في العزلة، واحدة من أكثر الأوقات الانفعاليّة اعتدالا من تلك الّتي حدثت من قبل خلال الأسابيع السّبعة الأولى من فترة الابتهاج الّتي مررت بها. ولم تكن حالتي خلال الأسبوعين الباقين في أفضل جناح بمستشفى الولاية مختلفة عن حالتي خلال الأسابيع الثّلاثة السّابقة للتّعذيب، أو الأسابيع الثّلاثة التّالية من الانتهاكات والحرمان، باستثناء فروق في أسباب التّعذيب والحرمان ذاتها. وعلى الرّغم من أنّني قصدت منذ فترة طويلة إجراء إصلاحات في طرق العلاج الحالية، إلّا أنّ رغبة

متهوّرة في عملية البحث والتّحقيق في عنابر العنف لم تتملكني إلّا بعد أن تعرّضت أنا للتعذيب والاستمرار في الحبس داخل هذه العنابر قبل مجيئي إلى هذه المؤسّسة الحكوميّة. كان من البديهي أن نستنتج أنّ المرء إذا كان يعاني من مثل هذه التّجاوزات مثلما عانيت أثناء مرضي في مؤسّسة خاصّة -بل في مؤسّستين خاصّتين- فإنّ الوحشية ينبغي أن تكون موجودة في المستشفى الحكوميّ أيضاً. وهكذا دخلت مستشفى الدّولة تحدوني عزيمة راسخة لتفقّد كل أنواع العنابر الموجودة بها سواء كانت جيّدة أو سيّئة. لكنّني لم أكن في عجلة من أمري للبدء. لقد أجهدتني تجربتي الأخيرة، وكنت أتمنّى أن أستعيد قوّتي قبل أن أُخضع نفسي لمثل هذه المحنة. لقد سيطرت هذه الرّغبة في استعادة التحكم على سلوكي لفترة من الوقت، لكنّ نفوذها تضاءل تدريجيّاً مع الحياة الّتي أصبحت أكثر رتابة. وسريعاً ما وجدت الجناح الجيّد مهذباً تماماً. لقد تقت إلى الإثارة- العمل. وصمّمت على الحصول عليها بغض النّظر عن العواقب، ومع ذلك أعترف بحرية أنّني ما كان يجب أن تكون لديّ شجاعة الإقدام على تنفيذ خطّتي طالما أنّني قد عرفت ما قد ينتظرني. تقريبا في هذا الوقت اتّصل الوصيّ عليّ لرؤيتي. بالطّبع، أخبرته كلّ شيء عن تجربتي القاسية في المؤسّسة الخاصّة. لقد أزعجته قصّتي وفاجأته في نفس الوقت. أخبرته أيضاً أنّني أعرف أنّ ثمّة ظروفا مشابهة موجودة في مستشفى الدّولة، حيث سمعت شائعات قوية عن هذا الأمر. لقد رجاني حينها أن أضبط نفسي للاستمرار في الجناح الذي كنت فيه، في الحقيقة فإنّ وجودي وراء قضبان وتحت سيطرة قفل ومفتاح منحني في كلِّ الحالات

شعورا بالعجز. كنت أعتقد بقوّة أنّه من السّهل أن أهرب وأصل إلى البيت من أجل الاحتفال بيوم عيد الشّكر. علاوة على ذلك، عرفت أنّني يجب أن أصل إلى البيت، وإلّا أحرم من أكل الأشياء الجيّدة قبل إعادتي إلى المستشفى.

وكوني تحت تأثير تلك الرّغبة القويّة للتّحقيق في جناح العنف، فقد خلصت أنّ الوقت قد حان للعمل. أدركت أيضا أنّه سيكون من الأسهل والآمن الهروب من هذا الجناح - الّذي كان في الطابق الأرضي - بدلا من جناح بارتفاع ثلاثة طوابق. كان الشّيء التّالي الّذي فعلته هو إبلاغ الممرضين أنّه في غضون يوم أو يومين لابدّ أن أفعل شيئا يتسبّب في طردي من هذا الجناح. لكنهم بالطبع لم يصدّقوا أنّ لديّ أيّ فكرة عن عمل يتسبّب في نقلي عمدًا. لقد أفقدتهم صراحتي القدرة على التّفكير.

في مساء يوم 21 نوفمبر، تجوّلت بين الغرف وجمعتُ كلّ أنواع الأشياء الغريبة الّتي تنتمي للمرضى الآخرين. قمت بوضع تلك الأشياء سرّا بغرفتي، كما قمت بتأسيسِ مكتبة صغيرة من الكتب والمجلّات. وبعد تأمين كلّ الغنائم الّتي تجرّأت وجمعتها، اختلطت مع المرضى حتى يحين موعد الذّهاب إلى النّوم. وسرعان ما حبسني الممرضون في متجر النّفايات الخاصّ بي وقضيت بقية اللّيل في نشر فوضاي. كانت خطّتي الأصليّة تقتضي تحصين الباب أثناء اللّيل، ومن ثمّ إبقاء الأطبّاء والممرّضين تحت السيطرة حتّى يقبل المسئولون تنفيذ طلبي، الّذي يتضمّن القيام بزيارة إلى المنزل في عيد الشّكر. ولكن قبل الصّباح كنت قد غيّرت في خطّتي قليلاً. لقد جعلتني أنشطتي اللّيليّة

جائعا للنّوم بشكل شره، ورأيتُ من الحكمة ألّا يتمّ ملء معدتي فقط بل أن أحصل على إمداداتي من الأطعمة الأخرى قبل البدء في تنفيذ الحصار. وبناء على ذلك، وضعت الأمور في نصابها وشرعت في عملي في صباح اليوم التّالي كالمعتاد.

عند الإفطار، تناولتُ ما يكفي من طعام يكفي لرجلين، ووضعت في جيوبي خبزا يكفي لمدّة أربع وعشرين ساعة على الأقلّ. ثمّ عدت إلى غرفتي، وفي الحال سددت الباب بحاجز. كان الحاجز عبارة من خزانة وعدد من الأدراج الّتي أزلتها من المكتب وعدد من الكتب من بينها «الفردوس المفقود» والكتاب المقدّس« الإنجيل».

وضعت هذه الأشياء بارتياح في موضعها كحجر زاوية. وهكذا تمّ ملء الفراغ الأرضي بين الباب والجدار المقابل للغرفة بالكامل. كان معي رفيقي بالغرفة، وهو زميل شابّ يعاني من حالة الصمت الّتي كنت أعاني منها خلال فترة الاكتئاب. كان ذلك عرضيّا. فلم يكن احتجازه كرهينة جزء من خطّتي، على الرّغم من أنّني قد استخدمته في النّهاية كأساس في المفاوضات، وقاوم الحاجزُ الهجوم المتوقع لفترة أطول ممّا فعلت.

لم يمض وقت طويل قبل أن يدرك الممرّضون أنّ ثمّة خطب ما. جاؤوا إلى بابي وطلبوا منّي فتحه. رفضت وأخبرتهم بأنّ جدالهم ودعواتهم بفتحهِ مضيعة للوقت. حاولوا الدّخول بالقوّة، لكنّهم فشلوا في ذلك وقاموا بإبلاغ الطّبيب المساعد، الّذي سرعان ما ظهر. في البداية كان يتفاوض معي بشكل جيّد، لكني أخبرته بشكل قاطع أنّني لا أستطيع التحدث عن الموقف الّذي اتخذته، ولا يمكن

إخراجي منه حتّى أكون مستعدّا للاستسلام، لأنّ الحاجز الّذي استخدمته هو حاجز صلب وسيصمدُ بالتأكيد. وأعلنت أيضا أنّني قد قمت بالتخطيط بعناية لمخططي هذا وكنت أعرف ما أقوم بفعله .

لقد أثنيتُ عليه لمعاملته اللّبقة حتّى الآن، وشكرته بشدّة -بصدق وإخلاص- على لباقته في التّعامل في مناسبات عدّة، كما عبّرتُ له عن ارتياحي الكامل للسّلوك السابق للممرضين. في الواقع، لقد أبديتُ موافقتي على جزء من المؤسّسة .

قلتُ: «أعرف أنّ ثمة عنابر في هذا المستشفى يتم معاملة المرضى البائسين بوحشية، وأعتزم أن أضع حدّا لهذه الانتهاكات مرّة واحدة. ولن يتمّ فتح هذا الباب حتّى يأتي حاكم الولاية والقاضي الّذي وضعني هنا. عند وصولهما، سوف نرى ما إذا كان سيتمُّ سلب المرضى حقوقهم وإساءة معاملتهم».

لقد ألقيت خطابي من خلال فتحة النافذة التي في الباب. ولبضع دقائق واصل الطبيب أساليبه المقنعة، ولكنهُ توقّفَ حينَ تخيّل أنّني سأتراجع عن موقفي القويّ والهائل إذا كانَ الأمرُ مصدر ازعاجٍ بالنّسبة إلي.

قلت: «يمكنك الوقوف خارج هذا الباب طوال اليوم إذا اخترت ذلك، ولن أفتح حتّى يأتي الرّجال الثّلاثة الّذين ذكرتهم. أنا على استعداد جيدا للحصار، ولديّ ما يكفي من الطّعام في هذه الغرفة لإبقائي ليوم واحد على أيّة حال».

قرّر الطّبيب الدّخول عنوة عندما أدرك أنّه ليس هناك أمل في

الحوار. في البدايةِ، حاول إزالة الحاجز عن طريق دفعه بعصا قوية. فقمت بدفعه مرّتين فظلّ مكانه. تمّ إرسال نجّار من أجل ذلك ولكن قبل أن يتمكّن من القيام بعمله، تمكّن أحد الممرّضين من فتح الباب بالقدرِ الذي يكفي للدّفع بذراعه وإزاحة الحاجز جانبا. لم أكن أدرك ما كان يجري حتّى فات الأوان للتّدخل. فتِحَ الباب مرّة واحدة وهرع الطّبيب وأربعة من الممرّضين دون أي قواعد، فأُلقيتُ فوق السرير مع اثنين أو ثلاثة من المهاجمين الذين كانوا فوقي. مرّة أخرى تمّ خنقي، ولكن هذه المرة من قبل الطّبيب. كانت العمليّة مجرّد لحظة. ولكن كي ينتهي الأمر كان من حسن الحظِّ أنّني منحتُ الطّبيب ضربة قاسية على الفكّ لم أشعر مطلقا برغبة في الاعتذار عنها، (كان في مثل عمري تقريبا وكان المهاجمون خمسة مقابل واحد).

كان كلّ واحد من الممرّضين يمسك بقدمٍ أو ذراع حينَ تمّ شلُّ حركتي، وفي ظلّ توجيهات الطبيب وقيادته، تمّ حمل جسدي عبر ممرّين، ثمّ نزول مجموعتين من السّلالم، للوصول إلى عنبر العنف. لقد أخاف خروجي الدراماتيكيّ زملائي المرضى، لأنّ الكثير من الحركة في وقت قصير كان نادرا ما يحدث في العنبر الهادئ، و إن تمّ نقل عدد قليل من المرضى إلى عنبر العنف بعرض مثير للإعجاب متبوع بمجموعة من المتابعين كما حدث معي ذلك اليوم. كان كلّ هذا بالنّسبة إليّ عبارة عن مزحة كبيرة، مع وجود هدف جيّد وراء ذلك. على الرّغم من الانفعال كنت جيّدا وخلال الطّريق إلى مقرّي الجيد، قلت للطّبيب: «سواء كنت تصدّق ذلك أم لا، فإنّني سأقوم بإصلاح هذه المؤسّسات قبل أن أنتهي. لقد فعلت هذا من أجل أن تنقلني إلى

عنبر العنف، ما أريدك أن تفعله الآن هو أن تريني أسوأ ما لديك».

قال الطّبيب: "لا داعي للقلق، ستحصل على مرادك"، وكان صادقاً في ما قال.

الفصل التاسع عشر

كان دخولي مذهلاً حتّى بالنّسبة إلى جناح العنف -إن لم يكن دراماتيكياً. لقد وصل الممرّضون الثّلاثة الذين كانوا في الخدمة إلى استنتاج طبيعيّ مفاده، أنني مريض مزعج ومفتعل للمشاكل، وقد فُرضتُ عليهم غصباً. لاحظوا وصولي بفضول غير سارّ، وهو ما أثار بدوره "فضولي" لأنّ الأمر لم يستغرق إلّا لمحة واحدة لإقناعي بأن هؤلاء الحرّاس كانوا من طينة ممّرضي القوّة الغاشمة. وبناء على تعليمات الطّبيب المسؤول، قام أحدهم بتجريدي من ثيابي الخارجيّة، ولم يمنحني شيئا سوى ملابسي الدّاخلية ثمّ قادني إلى زنزانتي .

تحتوي القليل من السّجون، إذا وجدت، في هذا البلد، على جحور أسوأ من هذه الزّنزانة. لقد كانت واحدة من خمسة، وكانت تقع في ممّر قصير مجاور للجناح الرّئيسيّ. كان عرضها ستّة أقدام وطولها عشرة أقدام وبارتفاع جيّد. بها نافذة مؤمّنة بشدّة بقضبان يدخل منها الضّوء وبالكاد تصلها التهوية. كانت جدرانها وأرضيتها عارية، ولم يكن بها أيّ أثاث. ولكي يحجز مريضا هنا ينبغي عليه أن يستلقي على الأرض دون أيّ فراش غير قطعة من سجّاد من قماش صوفيّ، أو قطعتين. ويصبح النّوم في مثل هذه الظّروف مقبولا بعد مرور بعض الوقت، لكن ليس قبلَ أن يتعوّد المرءُ على الاستلقاء على سطح يكاد يكون في صلابة الحجر. هنا (كذلك، في الواقع، كما في أجزاء أخرى من

الجناح) لمدة ثلاثة أسابيع كنت مجبرا مرّة ثانية على استنشاق هواء فاسد، وعلى إعادة استنشاقه، حتّى أنّه عندما شغلت غرفة أكبر في ذات الجناح، كان من النّادر أن يدخل الأطبّاء دون ملاحظة جودتها. لقد زادت وجبتي الأولى نفوري من تجربتي شبه الاجتماعيّة ولأكثر من شهر ظلَّ الجوع يراودني. في كلّ وجبة، على وجه اليقين، مُنحت الكثير من الطّعام كما كان يتمّ تقديمه لباقي المرضى، لكنّ الكمّية المعتادة لم تكن كافية لاحتياجات مريض نشط كما كنت في ذلك الوقت. أسوأ من كلّ ذلك، كان الشّتاء يقترب وكان هذا، المسكن لا يحتوي على تدفئة. وبما أنّ حواسَ الشّمِّ أصبحت تقريبا لا تعمل، لم يكن استنشاق الهواء الفاسد صعباً. من ناحية أخرى، لقد كانَ للجوعُ في أغلب الوقتِ شعورا صعباً ولا يُطاق. ولكن أن تكون نصف مجّمد، يوما بعد يوم، لفترة طويلة، كان يبدو تعذيبا رهيبا. يبدو أن ذلك الاحتجاز في الزنزانة الباردة قد ترك أثراً دائما. كان إزعاج الجوع محدودا، ولكن عندما يكون المرء بارداً، تطلب كلّ خليّة في جسمهِ نداء لطلب المساعدة. قبل فترة طويلة قرأت نصّا لدي كوينسي[11] رأيتُ عبره أن البرد يمكنهُ أن يسبّب معاناة أكبر من الجوع، وبالتالي، شعرت بعزاء كبير وأنا أقرأ العبارات التّالية من "الاعترافات": «أيّتها النّساء العجائز، بنات الكدّ والمعاناة، من بين جميع المصاعب وميراث الجسد المرّ الّذي دعيتنّ لمواجهته، لا أحد- ولا حتى الجوع- يستحقُّ في نظري مقارنتهُ مع برد اللّيل».. لا توجد لعنة مميتة سواء لرجل أو امرأة

(11) ـ توماس دي كوينسي ـ Thomas De Quincey كاتب مقالات وروائي وناقد إنجليزي. من أشهر كتبه كتاب "اعترافات آكل الافيون" والذي روى فيه تجربته في إدمان الأفيون وتخلصه منه.

أكثر من المعارك المريرة بين الإرهاق الّذي يحفّز النّوم وبين البرد الّذي من أوّل لحظة من دخولك إلى مرحلة النوم يبدأ في ممارسة ضرباته الرّهيبة، ثمّ البحث عن الدّفء عبثا في ممارسة متجدّدة على الرّغم من الإغماء منذ وقت طويل بسبب الإرهاق. لم تكن صلابة الفراش وبرودة الغرفة كلّها تتدخّل في النّوم. الممرّ القصير الّذي وضعت في غرفة تقع به كان يعرف باسم "منطقة الإحماء" وهي منطقة كان يتمّ تجنّبها من قبل الأطبّاء[12] . ويكون ذلك عادة خلال السّاعات المظلمة في الصّباح الباكر. فقد ينام المرضى المصابون بحالات الهياج خلال السّاعات الأولى من اللّيل، لكنّهم نادرا ما ينامون طوال اللّيل، وحتّى لو كان لدى المرء القدرة على القيام بذلك، فإنّ المرافقين في المهجع قد يوقظونه على صراخ أو أغنية أو سباب أو ركلة باب. كثير من الأحيان قد يستمرّ مزيج من الفوضى والضّوضاء لساعات دون انقطاع. الضّجيج، الضّجيج غير الطّبيعيّ، كان هو الشّعر الحرّ المتاح للشغالين في الزّنزانات. لقد قضّيت عدّة أيّام وليال في واحدة أو أخرى، وأنا أتساءل عمّا إذا كنت قد قضّيت ليلًا ساعتين أو ثلاث ساعات من النّوم الطّبيعي خلال هذه الفترة. نادرا ما أبدى الممرّضون المنتظمون أيّ اهتمام بهذه الضّوضاء، رغمَ انزعاجهم منها. في الواقع كان الشّخص الوحيد الّذي من المرجّح أن يحاول إيقافها هو المراقب اللّيليّ، الّذي عندما دخل إلى الزّنزانة لهذا الغرض، كان تقريبا دائما ما يركل المريض أو يخنقهُ إذ كانَ يحدثُ ضجيجا لا يهدأ. لقد لاحظت

(12) . أو "منطقة الإحماء" . Bull Pen وهي المنطقة التي يقوم فيها لاعبي البيسبول بالاحماء قبل بدء المباراة.

هذا الأمر بعدما اشتمَّتُ منه رائحة المتاعب. لقد أُخذت أدوات الرّسم والكتابة منّي مرّة أخرى، وبدأت البحث عن مهنة أخرى، فوجدت واحدة متعلّقة بمشكلة التدفئة. رغم إرسالي لتلميحات متكررة حولَ الإرسال المعطّل لأعصابي المعذبة، إلّا أنّ الطّبيب رفض أن يعيد إليّ ملابسي. وللحصول على بعض الدّفء، اضطررت إلى الاعتماد على ملابسي الدّاخلية العاديّة وعلى خيالي غير العاديّ. كان القماش الثقيل لقطعة السّجاد بلاستيكيًا مثل ورقة نشاف ولم أستمدّ منه سوى القليل من الرّاحة حتّى أدركتني فكرة تقطيعها إلى شرائط. وددت أن أحيك هذه الشّرائط لتشبه إلى حدّ ما حلّة ريب فان وينكل[13]، وكان الأمر معقّدا للغاية ففي عدّة مناسبات كان الممرّض يقطع محاولتي في صنع رداء من قماش السّجاد هذا. في البداية، وإلى أن اكتسبت الموهبة المدمّرة، كانت مهمّة تمزيق قطعة واحدة من قماش السّجّاد إلى شرائط تستغرق من أربع ساعات إلى خمس. لكن في الوقت الذي أتقنتُ الأمر وأصبحت بارعا فيه، تمكّنت من تدمير أكثر من قطعة بطول ستة أو ثمانية أقدام في ليلة واحدة. وخلال الأسابيع التّالية من حبسي الخانق، دمّرتُ ما لا يقلّ عن عشرين منها، كلّ منها كان يستحقّ ذلكَ، ثمّ اكتشفت فيما بعد ما يقرب من الأربعة دولارات، وأعترف أنّني وجدت إشباعاً غريباً في تدمير ممتلكات تعود لدولة كانت قد حرمتني من متاعي باستثناء ملابسي الدّاخليّة. لكنّ سلوكي التّدميريّ كان راجعاً لمجموعة أسباب متنوّعة. وكان

(13) . " ريب فان وينكل". RipVan Winkle قصة قصيرة للمؤلف الامريكي واشنطن إيرفينغ ونشرت أول مرة في عام 1819.

السّبب الرّئيسيّ هو "ضغط النّشاط" الّذي كانَ ينفّسُ على نفسهِ بتمزيقِ قماش السّجّاد. كنت في حالة ذهنيّة وقد وصفت وبشكل مناسب في خطاب كتبته خلال أوّل شهر من حالة الابتهاج، قلت فيه: «أنا مغمور مثل عشّ مليء بالنّمل».

على الرّغم من أنّ عادة تمزيق قماش السّجاد كانت ثمرة اندفاع غير طبيعيّ، إلّا أنّ هذه العادة نفسها استمرّت لفترة أطول ممّا كان يمكن أن تفعله. لو لم أُحرم لفترة طويلة من ملابس مناسبة وإبقائي سجينا في زنزانة باردة، لكنّ هناك دافعاً آخر وسرعان ما ظهر وأكّد وجوده. بما أنّني محروم من كلّ الكماليّات ومعظم ضروريّات الحياة. فقد كانت خفّة دم والدتي، وهي تتآمر دائما مع خيال جامح من أجل شيء يشغلني، هو الدافع الذي قادني في النّهاية إلى غزو مجال الاختراع. ومع هذا التّناقض المناسب، فقد اجتذبني خطّةٌ بحث غير مألوفةٍ. كمسائل رياضيّة غامضة تحدّت إيجاد الحلول لها لقرون فصارت تبدو سهلة. فقد أصبح تحدّي الدّولة وممثّليها الضعفاء مجرّد لعب أطفال. لذا قرّرت على الفور ألّا تكون محاولة التّغلب على درجةٍ من القوّة أقلّ قوّةٍ من جاذبية ذاتها. وسرعان ما قادتني خيالات الانتصار إلى الاعتقاد أنّه يمكنني تحسين وضعي بنفسي- أو بالأحرى أنّه يمكنني أن أفعل ذلك عندما تتوفّر لي الأدوات المناسبة. لكن ماذا عن الأشرطة الصّوفية الّتي صنعتها من القماش؟ لماذا لم استخدم هذه الشرائط بدلاً من حذائي المفقود؟، لأنّه لم يكن لديّ حذاء لأرتديه، لقد استخدمت فراشي كحذاء. لقد أدركت بهدفي العلميّ أنّ وجود الإنسان في السّرير شيء مناسب كما ارتدائه الأحذية. لذا فقد قمت

بربط عدد كافي من الشّرائط على مقدّمة السّرير ونهايته (الّذي حدث أنّه لم يكن مثبتا على الأرض) وفي المقابل، ربطت الحوافّ إلى عارض النافذة وقضبانها، وقابلتني مشكلة بسيطة جدًا. لأنّني لحقت بهذه الكابلات القماشيّة عن طريق سحبها إلى الأسفل فقد أثّرت في إعادة ترتيب الضّغط والإجهاد وكان سريري "معي في ذلك"، يتأرجح سريعا في الهواء. لقد كانت أحاسيسي في تلك اللّحظة الحاسمة مثل تلك الأحاسيس الّتي حفّزت نيوتن عندما حلّ أحد أهمّ ألغاز الكون. في الواقع، لابدَّ أنّها كانت أكثر قوّة، لأنّ نيوتن، مع العلم، كان لديه شكوكه، بينما أنا لم يكن لديّ أيّ شكوك على الإطلاق. لذا فقد كانت فترة صنع هذا الاكتشاف تتمثّل في أنّني وجدت الموقع المناسب للسّرير بحيث يمكن للأجيال القادمة المتسائلة أن تنظر فيما بعد بإجلال إلى تلك البقعة على الأرض حيث ظهرت واحدة من أعظم أفكار الإنسان الّتي وجدت طريقها إلى الخلود. لقد اعتقدت طيلة أسابيع أنّني اكتشفت مبدأ ميكانيكيّا يمكّنُ الإنسان من تحدّي الجاذبيّة. وتحدّثت بثقة وحرّيّة عن ذلك. هذا هو الأمر، لقد أعلنت أنّ هناكَ نتائج على وشَكِ الحدوث. وتجاهلت الخطوات الوسطى لمشكلتي، لأسباب وجيهة. فقد يستعين رجل أعمى بحصان طالما أنّ الحصان مُسخّر، فلا يحتاج المرء إلى معرفة مكان كلّ حزام ومشبك. لقد تمّ تسخير الجاذبيّة- هذا كلّ شيء. في هذه الأثناء، شعرت أنّني في لحظة أخرى من لحظات الالهام تتدخّل وتنقّي الجوّ، ممّا يجعل التّحليق خارج الجسد سهلا مثل تحليق الخيال.

الفصل العشرون

بينما كانت عمليّة اكتشافي في تقدم، كنت أرزحُ تحت غضب المعاملة الظّالمة وبالتّأكيد غير العلمية الّتي خضعت لها. بعد حجزي الوثيق في زنزانة حقيرة، تمّ حرماني لمدّة ثلاثة أسابيع من الاستحمام. لست نادما على هذا الحرمان لأنّ الممرّضين الّذين كانوا في البداية غير ودودين، ربّما أجبروني على الاستحمام في الماء الّذي كان قد استخدم عدّة مرات من قبل مرضى آخرين. وعلى الرّغم من أنّ هذه الممارسة غير صحّيّة ومثيرة للاشمئزاز ومخالفة للقواعد، إلّا أنّها غالبا ما كانت تُطبق من الكسالى المتوحّشين الّذين كانوا يسيطرون على الجناح .

واصلت الاعتراض على عدم كفاية كمّيات الطّعام المقدّمة إليّ. وفي يوم عيد الشّكر (لأنّني لم أفلح في الهروب والانضمام إلى الاحتفال في المنزل)، أحضر ممّرضاً كي يؤدّي دور الملاك الملبّي للرّغبات، العشاء المعتاد من ديك روميّ وتوت بري يتمّ تقديمه على مدار يومين في السّنة والمتاح من قبل الدّولة في سخاء غير منتظم. وحيث أنّ الدّيك الرّوميّ هو "طعام نادر" لمسجون، فقد كان من الطّبيعيّ أن أرغب في إرضاء الفكّ الذي لحقته الإهانة طويلاً. لم أكن راغباً فقط في إرضاء شهيّتي، ولكن لترك أثر ثابت على ذاكرتي الّتي لم تستجب لعدّة أشهر لمحفز مقبول. وبينما كنت مستمرّا في الشّعور بالسّعادة لهذه التّجربة، فقد نسيت كلّ شيء عن الملاك، لكن ليس لفترة طويلة.

فسرعان ما عاد، ملاحظا أنّني بالكاد لمست طعامي. فقال:«إذا لم تتناول هذا العشاء بسرعة فسآخذه منك».

فقلت أنا: «لا أرى الفرق الّذي سيمثّله لك الأمر سواء أكلته سريعاً أو أخذت وقتاً في تناوله. إنّه أفضل ما حصلت عليه منذ عدّة أيّام، ولديّ الحقّ في الحصول على أكبر قدر من المتعة منه قدر استطاعتي».

أجاب: "سنرى ذلك"، ثمّ خطف الطّعام وفرّ من الغرفة، وتركني أُشبع جوعي بذكرى التّرف المتلاشي. وهكذا مرّ العيد سريعا. في ظلّ هذه المعاملة، تعلّمت سريعا أن أكون أكثر إزعاجا من جيراني.

لم أكن أبدا خالياً من روح الدّعابة في التّأمل ليس فقط في محيطي، ولكن في ذاتي، وكانت المظاهر الّتي بَدأتُ في الانغماس فيها جزئيّا بالمرح ومن ناحية وبالاحتجاج من ناحية أخرى. خلال هذه الانفجارات، تمّت مساعدتي، من قبل شابّ في الغرفة المجاورة. لقد كان في مثل عمري، وكان يتمتّع بنفس مرحلة الحيويّة مثلي. كنّا نتحدّث ونغنّي طوال ساعات الليل. في ذلك الوقت كنّا نعتقد أنّ المرضى الآخرين يتمتّعون بالبهارات الّتي أضفناها إلى التّنوّع المحدود في حياتهم. ولكن في وقت لاحق علمت أنّ أغلبهم كانوا يعتبروننا من أسوأ مسبّبات الإزعاج. لم نمنح الأطبّاء ولا الممرّضين أيّ راحة- على الأقلّ ليس عن قصد. كلّما ظهر الطّبيب المساعد، كنّا ننتقده بسبب الإهمال الّذي كان حينها من نصيبنا. ومن وقت إلى آخر كان يتم نفينا إلى منطقة الإحماء بسبب هذا الطّيش. ولو لم يكن مكاناً حقيراً للاحتجاز، لكان ما فعلناه هناك قد أرسلنا إليها بلا شكّ. أخيرا، أمر

الطّبيب بوضعي في غرفة أخرى يمكن السّيطرة عليها بعيدا عن مُلهمي، ومن يمكنني تسميته رفيق التآمر. لقد انقطع التواصل بيننا، إذ كان وسيلة للتسلية السّهلة الّتي كان عليها، لذا دخلنا تدريجيًا في صمت أثبت أنّه كان بمثابة نعمة لزملائنا في الجناح. ومع ذلك، استمرّ الإحماء، دون انتظام، لكن كانت له بالتّأكيد حصّته من الإزعاج. وفي عدّة مناسبات، قمت بالتّخطيط للهرب، ليس هروبي فقط بل وتحرير الآخرين أيضا.

كانت عدم إقدامي بالمحاولة عبارة عن خطأ- أو ميزة، ربّما- أقدمَ عليهِ حارس ليليّ معين، وقد دفعهُ تردّده، بدلا من فطنته، إلى رفض فتح باب غرفتي مبكرا ذات صباح رغم أنّني أعطيته سبباً معقولا للطّلب. لقد علمت لاحقا أنّ هذا الحارس اللّيلي، قد اعترف بأنّه كان يخشى مساعدتي. وفي هذه المناسبة بالذّات، ربما أثناء اللّيل، كنت أنصب له فخًا وهو ما كنتُ أعتزم أن أقحمه به. ولو نجحتُ في الأمرِ، لصار وقتا مفعمًا بالمرح بالنّسبة إليه في جناح العنف- ولو فشلتُ، لكان وقتا حيويًا بالنّسبة إليّ.

كان هناك العديد من المرضى سليمي العقل نسبيًا (خاصّة جاري المبتهج) من الّذين كان بإمكاني الحصول على مساعدتهم الّتي أثق فيها. ثمّ كان من الممكن أن نحتجزَ الممرّضين في غرفهم الخاصّة. ولكن في الواقع، لم نتمكّن بدورنا من التّغلّب عليهم وقمنا بنقلهم إلى منطقة الإحماء، حيث يوجد العديد من ضحايا سوءِ المعاملةِ، يعطونهم جرعة مستحقّة من دوائهم الخاص. كان مخطّطي هذا يعدّ مزحة أكثر منه مؤامرة.

كانت لديّ رغبة شديدة في إثبات أنّ المرء "يستطيع الفرار" إذا كان يملكُ عقلا يدفعهُ إلى القيام بذلك. في وقت لاحق تفاخرتُ أمام الطّبيب المساعد بمحاولتي الفاشلة. هذا التّباهي كان من الجليّ أنّه احتفظ به في ذاكرته. وكان نفيي لهذا السّلوك غير المؤذي في سبيله إلى التّحقّق. بدا أنّ الممرّضين يعتقدون أنّ كلّ مهامهم المقدّمة لمرضاهم المحبوسين تتلخّص في تقديم الوجبات اليوميّة الثّلاث، وكنت المريض المتسرّع الّذي يتدخّل في شؤونهم الخاصّة. والآن كان ثمّة واحد من أكبر المعترضين المستمرّين في حرماني من الشّرب. وفيما عدا وقت الطّعام، كان عليّ البقاء أطول وقت ممكن دون ماء للشّرب في تلك المناسبات النّادرة الّتي كان يسمح لي فيها بالذّهاب إلى غرفة الاغتسال، وحدثَ ذلك أيضًا في وقت كانت تتملّكني فيه حمّى الإثارة.

لقد تمّ تجاهل طلباتي المهذبة، وتمَّ تنفيذُ طلباتي المستفزّةِ عبر التّهديدات والشتائم. استمرّت حربُ الطلبات والمطالب والتّهديدات واللّعنات حتّى ليل اليوم الرّابع من إبعادي. ثمّ أطلقَ المرضى تهديداتهم فأساؤوا إليّ. كانوا يحاولون توجيهي نحوِ الغرقِ في مزاجي العدائي الّذي عرفته جيّدا. كنتُ غالبا ما اتّهمهم بهدفهم الخبيث هذا. ولقد اعترفوا بوقاحة أنّهم كانوا ببساطة ينتظرون فرصة لاستفزازي، ووعدوا بمعاقبتي جيّدا بمجرّد أن أمنحهم ولو مبرّرا طفيفا لفعل ذلك.

في ليلة الخامس والعشرين من نوفمبر عام 1902، مرّ رئيس الممرّضين وأحد مساعدية من الممر القريب من باب غرفتي. كانا

عائدين من إحدى الحفلات الرّاقصة الّتي تقيمها الإدارة للممرّضين والممرّضات، خلال فترات فصل الشّتاء. وبينما كانوا في مجال يسمحُ لهم بسماعي وأنا أطلب شربَ الماء. ورغمَ أنّ الطلب صيغَ بعناية ولكنهم كانوا على عجلة من أمرهم للوصول إلى أسرّهم، فقد كان رفضهم لطلبي صارماً ومصحوباً بالشّتائم. وحينها أجبتهم بلطف حين قال أحدهم: «إذا رجعت إليك فسوف أقوم بقتلك».

«حسنا، لن يمكنك الحضور إذا كنت أستطيع منع ذلك». أجبت ضاربًا هيكل السّرير الحديديّ على الباب.

لقد أعطى التّحدي الّذي أبديته الذريعة التي كان الممرّضون في انتظارها، ونجحت في تأخير دخولهم لمدّة دقيقتين أو ثلاث وبذلك ازداد غضبهم أكثر. وحين تمكّنوا من الدّخول، أصبحوا حانقين. كان أحدهم شابًا في السّابعة والعشرين. وكان صلب البنيةِ ونموذجًا للرّجولة، أمّا عن الأخلاق فقد كان يعاني من نقصها- بفضل الأثر المجرّد للإنسانيّة وبسبب العمل لعدّة سنوات في مصحّات مختلفة يعتمد المسؤولين فيها طرقا غير ملائمة للرّعاية والعلاج .

هاجمني الآن في ظلام غرفة حبسي. وكان يقف بجواره رئيس المرضين ماسكاً بمصباح يشعُّ بضوء خافت. وبمجرّد أن فتح الباب، لم أظهر أيّ مقاومة في البداية فتمّ صرعي أرضا. ولعدّة دقائق، كنت أُركل في الغرفة- ضُربت، وتمّ تركيعي وخنقي. حتّى أنّ مهاجمي حاول سحق خدي بكعب حذائه. وهو ما فشل فيه، كنتُ محميًا بلحية كبيرة كانت نامية في ذلك الوقت. لكنّ ساقي، ومرفقي وظهري تم جرحهم بسبب حذائه الثّقيل، ولو لم أحتضن ركبتي

بمرفقي، ربما كنت تعرضت لجروح خطيرة وربّما قاتلة. وكما كان الأمر، أنتهاء وانا مصابا بجروحٍ عديدة وكدمات شديدة.

عندما خارت قوتي تقريبا، تظاهرت بأنني فقدت الوعي. أنقذتني هذه الخدعة من مزيد من العقاب، لأنّ الاعتداء المتعمّد لا ينتهي غالبا حتّى يصبح المريض صامتا وعاجزا. عندما أنجزوا مهمّتهم، تركوني في زاوية الحجرة لأقضي اللّيلة بأفضل ما لديّ- أن أعيش أو أموت وهو ما كان يهتمّ بحدوثه الجميع. ومن الغريب كما يبدو أنّني نمت جيّدا. لكن ليس على الفور. فقد كنت مشغولا لخمس دقائق في كتابة رواية عن الاعتداء. لم يكن من الممكن للمراسل الحربيّ المتمرّس أن يستجمع شتات نفسه في أقلّ من هذا الوقت. وكالعادة، لجأ إلى قضم الرّصاص من قلمي، وهذه المرّة كان قلما تمّ تهريبه لي في اليوم الأوّل من احتجازي في منطقة الإحماء من قبل زميل متعاطف معي. وعندما تمّ دفعه من أسفل باب زنزانتي لتزويدي بأدوات الحرب، اندفع بقوّة كما أتذكّر مثل انطلاق مدفع. لم يكن لديّ ورقة، لكن وجدت من خبرتي في السّابق في الجدران بديلا مقبولا. لذلك فقد اخترت وكتبت على بقعة مستطيلة-حوالي ثلاثة أقدام في اثنين- توضّحت بسبب انعكاس الضّوء المنبعث من الممرّ خارج نافذتي. وعندما ظهر الطّبيب المساعد في صباح اليوم التّالي، كان يرافقه كالعادة رئيس المرّضين المذنب، الّذي كان يحمل المصباح في اللّيلة الماضية.

قلت: «يا دكتور، لديّ شيء أريد أن أخبرك به» – ثمّ نظرت بالتّحديد إلى الممرّض. « كانت لي تجربة غير عاديّة خلال اللّيلة الماضية. لقد مررت بتجارب خياليّة كثيرة خلال العامين والنّصف

الماضيين، وربّما يكون ما مررت به اللّيلة الماضية غير حقيقيّ. ربّما كان الأمر برمّته وهميّا- مثل الّذي اعتدت أن أراه خلال الشّهور الأولى من مرضي. وسواء كان وهما أو لم يكن سأترك لك الحكم. يبدو لي أنّني تعرّضت للاعتداء الوحشيّ اللّيلة الماضية. وإذا كان هذا حلماً، فإنّه أوّل شيء من نوعه يترك دليلاً واضحا على جسدي». عندها كشفت للطّبيب عن الكدمات والتّمزّقات الّتي في جسدي. كنت أعرف أنّ هذا سيكون أكثر تأثيراً من كلماتي. نظر الطّبيب نظرة المدرك للأمر لكنّه لم ينبس بشيء وغادر الغرفة سريعاً. حاول مرؤوسه المذنب أن يظهر عدم اكتراثِه، وأعتقد حقّا أنّه ظنّ أنّني غير متأكّد بالفعل من أحداث اللّيلة السّابقة، أو على الأقلّ، غير مدرك لدوره فيها.

الفصل الحادي والعشرون



لم يُفصل أيّ من الممرّضين اللّذين شاركا في الاعتداء عليّ من العمل. جعلتني هذه الحقيقة أكثر حرصا على اكتساب معرفة أكبر بالظّروف من حولي. ومكّنني ضبط النّفس الّذي كنت أجيده من التّوقف عن الكلام لمدّة يوم كامل، مما أكسبني الآن موقفا جيّداً. فقد مكّنني ذلك من تجنّب الكثير من المعاناة الّتي كان من الممكن أن تكون من نصيبي لو كنت مثل غالبية زملائي في الجناح. كنت أستسلم مرارا وتكرارا عندما يكون الممرّض على وشك تأديبي. لكن على الأقلّ لم تكن مجموعة من المرضي في الجناح جاهزة من النّاحية العقليّة، للتّعرض إلى الاعتداء الوحشيّ مرارا من قبل الرّجال الّذين كنت وسيلة لتطبيق فنّهم الأسود الغامض

وسرعان ما لاحظت أنّ المرضى الوحيدين الّذين لم يكن من المحتمل أن يتعرّضوا للإساءة هم الأقلّ حاجة للرّعاية والعلاج. كان يتمّ الاعتداء على المريض العنيف، والمزعج، والمضطرب لأنّه كان عنيفا ومزعجا ومضطربا. وكان المريض الّذي يعاني من الضّعف الشديد، جسديّا وعقليا، ليلبّي احتياجاته يتمّ الإساءة إليه بشكل متكرّر بسبب عجزه الشّديد الّذي يجعل من الضّروري أن يقدم له الممرّضون الرّعاية. عادة يتمّ الاعتداء على المريض المضطرب أو

المزعج الّذي يلتحق بالجناح العنيف في أوّل يوم له. ويبدو أنّ هذا الإجراء يعتبر جزءًا من قانون الخزي. إذا تخيّل المرّضون أنّ أفضل وسيلة للسّيطرة على مريض هو إذلاله من البداية. في الواقع، يبدو أنّ هؤلاء الزّملاء- معظمهم تقريبا جهلاء وغير مدرّبين- يعتقدون أنّ "الحالات العنيفة" لا يمكن التّعامل معها بأيّة طريقة أخرى، أحد المرضين في ذلك اليوم تمّ فصله بسبب تعنيفه لمريض بجهل، لدرجة أنّه كان من الضّروريّ استدعاء طبيب لإعادته إلى وعيه، قائلا لي: «لقد أصبحوا صارمين جدّا هذه الأيّام، يفصلون رجلاً ببساطة لأنّه خنق مريضا». يوضّح هذا موقف العديد من الحاضرين. من ناحية أخرى، سرعان ما وجد الموظّف المفصول عملاً آخر في مصحّة مشابهة، وليست أبعد من عشرين ميلاً وهو ما يوضّح موقف بعض إدارات المستشفيات. أتذكّر ظهور ممرّض جديد – شابّ يدرس ليصبح طبيباً. في البداية، بدا أنّه يميل لمعاملة المرضى بلطف، لكنّه سرعان ما وقع في فخّ الطّرق الوحشيّة. لقد كان تغيّر قلبه عائدا جزئيا إلى البيئة الوحشية، ولكن بشكل مباشر إلى السّلوك الصّلب للممرّضين الثّلاثة الّذين أخطؤوا تقدير تعاطفه والنّظر إليه على أنّه جبن وبدؤوا في السّخرية منه. ولإثبات قوّته فقد بدأ في الإساءة إلى المرضى، وذات يوم طرحني أرضا ببساطة لرفضي التّوقّف عن الثّرثرة في حضرتهِ. هذه البيئة الوحشيّة في بعض المصحّات، ظهرت بشكل لافت في شهادة أحد المرّضين أثناء تحقيق عامّ في ولاية كنتاكي، حيث قال "عندما جئت إلى هنا، كان إذا أخبرني أحدهم أنني سأصبح مذنبا لضرب المرضى لكنت دعوته بالمجنون، لكن الآن أنا مسرور

بضربهم. "لقد وجدت أيضا أنّ النّقص غير الضّروريّ والمستمرّ في الخروج للعالم الخارجيّ يضاعف أعمال العنف. كان من المفترض أن يتم أخذ المرضى للتّريض مرة واحدة على الأقل في اليوم، عندما يسمح الطّقس بذلك. ومع ذلك فإنّ الأشخاص الملحقين بالجناح العنيف (وهم أكثر من يحتاجون للتريّض) عادة ما يخرجون من الأبواب فقط عندما يشعر الممرّضون أنّ الأمرَ يستوجبُ ذلكَ. طيلة أسابيع كان ثمة -زميل في الجناح- رجل عاقل بما يكفي ليتمتّع بالحرية- لو كان لديه بيت يذهب إليه- يحتفظ بسجلّات لعدد مرّات التريض الّتي نذهب إليها. يبيّنُ هذا السّجلّ أنّنا لم نخرج إلّا مرّة أو مرّتين في الأسبوع طيلةَ شهرين. يتأتّى هذا مقابل العديد من الأيام الممتعة وهذا ضاعف من وطأةِ الحبس الانفراديّ. هؤلاء الكسالى في أوقات فراغهم الّتي انتظرناها كانوا يفضّلون البقاء في الجناح، ولعب الورق والتّدخين ورواية قصصهم. إنّ الممرّضين يحتاجون إلى ممارسة التّمارين الرّياضية بانتظام بقدر ما يحتاجه المرضى أيضا، وعندما يخفقون في إخراج طاقتهم بطريقة صحّية، فمن المرجّح أن يستخدموها على المرضي الضعفاء الّذين هم تحت إشرافهم. وإذا أدّى عدم ممارسة الرّياضة إلى الحاجة إلى الانضباط، فإنّ كلّ خطوة تأديبية من ناحية أخرى، لا تؤدّي إلّا إلى إغضابنا أكثر. بعض الحيوانات البرّية يمكن أن تكون مطيعة عن طريق الضّرب، إلّا أنّها طاعة خادعة في أحسن الأحوال ومنصفة. وهذا هو النّوع الوحيد من الطّاعة الّتي يمكن أن يظهرها "إنسان" يضرب. أن تتخيّل أن يصدر غير ذلك من إنسان، عاقل أو مجنون، لهو الجنون بعينه. قد يمنح ذلك وقتا

للمعتدي، لكن على المدى البعيد ستتعرّض إلى قدر أكبر من الإزعاج ممّا يؤدّي إلى استخدم طريقة أكثر إنسانيّة. لقد كان القمع والإحباط المتعمّدين للرّغبات المعقولة هما ما جعلاني أبدو كمهووس وجعلا آخرين يظهرون مجانين. عندما تمّ إخلاء سبيلي من العزل وتمّ السّماح لي بالاختلاط مع ما يسمّى بالمرضى العنيفين، فوجئت بأن وجدت أنّ نسبة قليلة فقط كانت بطبيعتها مزعجة أو مثيرة للمتاعب. إنّ المريض الّذي يكون ذهنه هادئا، ثلاثمائة وستين يوما في السنة، يحقّ له في أحد الأيام المتبقّية ارتكاب بعض التّجاوزات الطفيفة، أو على أكثر الاحتمالات يتمّ دفعه إلى ارتكابها دون داع من قبل الممرّض أو من قبل طبيب مفتقد للّياقة. وقد يكون تهوّره مجرّد إعلان فظّ موجّه للطبيب لكي ينظر هذا الأخير بعين الاعتبار للمريض. وحينها، في الحال يتمّ نفيه إلى جناح العنيفين، ليظلّ هناك أسابيع وربّما إلى أجل غير مسمّى.

الفصل الثاني والعشرون

مثلما تأتي الحرائق وكوارث السّكك الحديديّة في مجموعات، كانت تأتي الاعتداءات أيضًا، ولا تمضي الأيّام دون اندلاع إحداها. ثمّ يأتي بعد ذلك، كرنفال حقيقيّ من الإساءة – راجع بشكل شبه دائم إلى مزاج الممرّضين، وليس إلى العدوانية غير المرغوبة من جانب المرضى. ويمكنني أن أذكر على وجه الخصوص حالات عديدة لمن تعرّض للاعتداء الوحشيّ. كان هناك خمسة من المرضى الّذين كانوا ضحايا دائمين. ثلاثة منهم، مستهترين بشكل استثنائيّ، عانوا بانتظام مميّز، ونادرا ما كان يمرّ يوم دون أن يكون لهم فيه حصّتهم من العقاب .

كان أحد هؤلاء شبه أحمق، وغير قادر على سرد أيّ قصة مقنعة حتّى في ظلّ أيّ ظروف أخرى ملائمة، كان يصيح على درجة كبيرة من الخوفِ حينَ يمرُّ أحد الممرّضين فيدور حول ظالمه مثلما يدور كلب حول سيّده القاسي. وإذا أصبح تهرّبه واضحاً جدّا، كان الممرّض يعاقبه حينها بسبب هذه الإهانة الضّمنيّة، غير الواعية. كان هناك أيضا شابّ في الزّنزانة الّتي تلي زنزانتي في منطقة الإحماء، وكان شاردا جدّا، وغير مؤهّل على الإطلاق. كانت مخالفته تتمثّل في أنّه لا يستطيع أن يفهم أو يطيع الأوامر .

يوما بعد يوم، كنت أستطيع سماع الضّرب والرّكلات الّتي ينالها جسده، وكانت صرخاته طلبا للرحمة مؤلمة ومن المستحيل نسيانها. كانت نجاته من كلّ هذا شيئا مثيرا للدّهشة. كان هذا الرّجل "عنيفا" أو إنّهُ جُعِلَ "عنيفا"، لم يكن يسمح للممرّضين بأن يُلبسوهُ ملابسه! لكن كان لديه زميل غبي في الجناح، كان يمكنه أن يستدرجة لارتداء ملابسه عندما يستعصى الأمر على الممرّضين.

ومن بين جميع المرضى المعروفين لي، كان ذلك المريض الّذي تعرّض لأقصى درجة الاعتداء، شخصا في السّتّين متلعثما في الكلام وغير مؤهل عقليّا. كان هذا المريض لا يهدأ ويتكلّم دائما أو يصرخ، مثل أيّ إنسان قد يتعرّض للاضطهاد بسبب أوهام كالتي كانت عنده. فقد كان على قناعة تامّة بأنّ أحد المرضى قد سرق بطنه- وهي فكرة مستوحاة ربّما من النّزعة الملحوظة للشّخص الّذي كان يتّهمه. للأسف كان يصرخ حتّى أثناء تناوله للطّعام. بطبيعة الحال،لم يكن للحجّة أيّ تأثير، وكان روتينه اليوميّ بسرد خيالاته المريضة قد جعله مصدرَ نفور من أولئك الّذين كانوا يعتنون به.لم يظهروا له أيّ رحمة. كل يوم- بما في ذلك ساعات اللّيل، عندما يتسلّم الممرّض اللّيليّ المهامّ- كان يتلقّى اللّكمات، وضربات بمقابض المكنسة، وكثيرا ما يتمّ ذلك بمجموعة كبيرة من المفاتيح الّتي عادة ما يحملها الممرّضون في سلسلة طويلة. كما تعرّض أيضا للرّكل والخنق، وتفاقمت معاناته بسبب الاحتجاز شبه المستمرّ في منطقة الإحماء. واستثناء من القاعدة العامّة (لأنّ مثل هذا الانتهاك المستمرّ يتسبّب في كثير من الأحيان بالموت)، عاش هذا الرّجل وقتا طويلا -خمس سنوات- كما علمت

لاحقا. ضحيّة أخرى، في الخامسة والأربعين من عمرها، كان في السّابق رجل أعمال ناجح. كان ذا شخصية قويّة، وكان طابع حياته السابقة قد ترك أثره على سلوكه عندما انهار عقليّا. كان في مرحلة ممتدة من الشّلل الجزئيّ ومن وهمِ العظمة، وهي مرحلة تمتاز بالشّعور المبالغ فيه بالرفاهة، وأوهام العظمة الّتي هي من أعراض هذه الحالة وكذلك العديد من أشكال الأمراض العقلية الأخرى. ويعتبر الشّلل الجزئي، كما يعلم الجميع، غير قابل للشّفاء، ونادرا ما يعيش ضحاياه أكثر من ثلاث سنوات أو أربع.

وفي ظلّ هذا النّموذج، بدلا من محاولة جعل الأيّام الأخيرة للمريض مريحة، عرّضه الممرضون إلى معاملة شديدة تكفي لإرسال حتّى الرّجل السّليم إلى قبره. لقد تعرّضت أنا للحرمان لمدّة شهر في المستشفى الحكومي. تعرض هذا الرّجل في أسوأ الأحوال إلى معاملة سيّئة لعدّة شهور. أصبحت على صحبة جيّدة بإثنين من الأيرلنديين المرحين. كانوا عمّالا عاديّين. أحدهما كان شخصا ضخما يحمل القمامة. عندما وصل إلى المصحّة، تمّ وضعه على الفور في الجناح العنيف، على الرغم من أنّ "عنفه" لم يكن سوى نوع من اللّا مسؤوليّة. كان يزعج الممرّضين باستمرار لقيامه بأشياء تافهة معيّنة بعد أن منعوها.لم يقم الممرّضون بوضع أيّ اعتبار لحالته الذّهنية. كان يتعمّد اقتراف المحرّم من السّلوكات، غير عابئ. وكان قوي البنية، لذا فقد عزموا على أن يقوموا بترويعه. لم أكن شاهد عيان على الاعتداء الرّئيسيّ الّذي قاموا به. لكنّني كنت شاهدا بأذني. لقد ارتكب من وراء باب مغلق، وسمعت صوت الضّربات المكتوم، وسمعت

صوت صرخات طلب الرّحمة حتّى لم يبق أيّ نفس في الرّجل يمكن أن يتوسّل معه من أجل حياته. لعدّة أيّام، كان ذلك الهرقل يجرّ نفسه عبر الجناح مصدرا أنينا مثيرا للشّفقة. لقد شكا من ألم في جانبه ومن صعوبة في التّنفّس، وكان على ما يبدو يشير إلى أنّ بعض أضلاعه قد كسرت. كثيرا ما كان هذا الرّجل يعاقب، وكثيرا ما كان يشكو من التعذيب الذي تعرض له. ولكن في وقت لاحق، عندما بدأ في العودة إلى طبيعته، كانت روح الدّعابة وطبيعته المرحة قد جعلته يكتسب الكثير من المعاملة الطّيبة. كان جرم المريض الآخر – وهو أحد أعراض مرضه– أنّه يثرثر دون توقّف. لم يكن بإمكانه التّوقف عن الكلام أكثر ممّا يستطيع أن يصحّح عقله الأمر. ومع ذلك، فإنّ إخفاقه في التزام الصّمت عن قول كلمة واحدة كان بمثابة إشارة إلى إنزال العقاب. في إحدى المرّات أمره أحد الممرّضين أن يتوقف عن الكلام ويجلس على مقعد في الطّرف الآخر من الممرّ، على بعد أربعين قدماً. لقد كان يبذل قصارى جهده لإبداء الطّاعة واللحاق بالممرّض المسؤول عنه في كلّ مكان. بينما كانوا يمرّون بالمكان الّذي كنت أجلس فيه، عالجه الممرّض بضربة خلف أذنه، وبينما كان يسقط أخطأت رأسه الجدار بالكاد.

قال الممرّض موجها كلامه لي: «هل رأيت ذلك؟»

أجبته: «نعم، ولن أنسى ما رأيت».

قال: « احرص على إبلاغ الطّبيب بذلك» وهي ملاحظة قالها ليبدي احتقاره، ليس فقط بالنسبة إليّ بل ولمن هم في السّلطة أيضا.

كان الرجل الذي ضربني بشكل مروع يتجاهل بشكل صارخ

الاعتبارات العمرية. وفي أكثر من مناسبة، هاجم بشراسة رجلا يبلغ من عمره أكثر من خمسين عاما، ومع ذلك، كان يبدو أكبر سنّا من هذا. الرجل بحار، وكان في ذروة شبابة يمكن أن يسحق معه هذا بسهولة؛ لكنّه الآن أضحى مسنّا ومنهك القوى ولا يمكنه إلّا الاستسلام فقط.

ومع ذلك لم يتمّ التّخلّي عنه تماما من عالمه القديم. فقد جاءت زوجته في كثير من الأحيان لرؤيته. وبسبب حالته، سمح لها بزيارته في غرفته. ذات مرّة وصلت بعد ساعات قليلة من تعرّضه للضّرب بقسوة. وبطبيعة الحال، سألت الممرّضين عن سبب إصابته بالجروح والكمدات السّوداء أسفل عينه ورأسه المصابة. وكالمعتاد، فقد كذبوا. كانت الزّوجة الطّبيبة التي كانت نفسها من اليانكي، لم تنطل عليها الخدعة، وقبل أن تنتهي زيارتها تأكّد اعتقادها المتنامي بأنّ زوجها قد تعرّض للاعتداء من قبل رؤيتها لمنظره. مريض آخر، وكان أجنبيا وهدفا لسوء المعاملة، كان قد تمّ إلقاؤه على الأرض مرّتين أو ثلاثا، حيث كان يُجرّ قسرا بطول الممرّ. لقد رأيت هذه الحالة ورأيت أنّ الزّوجة الطّبيبة رأت بدورها المشهد، وفي اليوم التالي جاءت مرة أخرى وأخذت زوجها إلى المنزل. كانت النّتيجة حينها أنّها بعد بضعة ليال (ربما دون نوم) اضطرّت إلى إعادته إلى المستشفى وكانت كلّ ثقتها في الرب لحمايته بدلا من الدّولة.

ضحيّة أخرى، وكان رجلا في السّتّين. وكان غير مؤذ تماما، ولم يُبد أي مريض في الجناح أكثر منه التزاما بشؤونه الخاصة. بعد فترة وجيزة من انتقالي إلى الجناح العنيف، تعرّض هذا الرّجل لهجوم شرس

لدرجة كسر ذراعه. وتمّ فصل الممرّض (الرّجل الّذي اعتدى عليه بشراسة). لكن لسوء الحظّ، أعطى هذا إعفاء طفيفا وموجزا للمجنون، لأنّ هذا الشّخص المتوحّش، مثله مثل الآخرين الّذين ذكرتهم من قبل، سرعان ما حصل على وظيفة في مؤسّسة أخري- هذه المرّة- على بعد آلاف الأميال. إنّ الموت بطريقه عنيفة في جناح العنف لا يعدّ موتا غير طبيعي- بالنسبة إلى جناح العنف. المريض الّذي أنا على وشك الحديث عنه، كان رجلا مسنّا- فوق السّتين. كان على حدّ سواء جسديا وعقلياً محطّماً. عند إحضاره إلى المؤسّسة، تمّ وضعه في زنزانة تقع في ممرّ الإحماء، ربّما بسبب تاريخه السّابق من العنف أثناء وجوده في منزله.

لكنّ عنفه (إن وجد) قضى على نفسه بالفعل، وأصبح ليس أكثر من عجز مطلق عن الطّاعة. كانت جريمته هي الضّعف الشّديد تجاه رغباته. في اليوم التّالي لوصوله، قبل الظهيرة بقليل، كان نائما عاري الجسد وبلا حيلة على الفراش في زنزانته. هذا ما أعرفه لأنني ذهبت للتّحقيق على الفور بعد أن أبلغني أحد الزّملاء بالجناح بالطريقة الشّريرة الّتي قام رئيس الممرّضين بالاعتداء بها على الرّجل المريض. كان الزّميل رجلا أعتبر كلمته بشأن الحادث الذي وقع لهذه الشخصية مثل كلمة أي رجل كنت أعرفه. لقد جاء إليّ، عالمًا بأنّني قد حملت على عاتقي مسؤولية الإبلاغ عن مثل هذه الأعمال البغيضة. فلقد خشي مخبري الخاصّ أخذ زمام المبادرة، لأنّه، مثل العديد من المرضى الآخرين الّذين يؤمنون بأنهم محكوم عليهم بالحبس المستمر، كان يخشى أن يشجع على إساءة معاملته على أيدي الممرضين. ولذلك،

فقد وعدته بأن أبلغ عن القضية بمجرد أن تتاح لي الفرصة. طوال اليوم كان هذا الضّحية الذي سقطَ ضحيّة لأحد الممرضين المجردين من العاطفة مستلقيا في زنزانته فيما بدا أنه حالة شبه واعية. لقد شعرت بألم استثنائي لمراقبة حالته، لأنني شعرت بأنّ هجوم الصّباح الّذي تعرّض له قد يؤدي إلى الموت. في تلك اللّيلة بعد جولة التّفحص المنتظمة الّتي قام بها الطبيب، تمّ نقل المريض المعنيّ إلى غرفة مجاورة. كانت طريقة النقل نفسها ضاغطة على ذاكرتي. حيث قام إثنان من الممرّضين- أحدهما الذي قام بضرب المريض بوحشية- بلفّ الرجل في ملاءة، وحمل كلّ منهما طرف الملاءة الشبكيّة، بمحتوياتها الخامدة، إلى ما اتّضح بعد ذلك أنّه مكان الرّاحة الأخير فوق سطح الأرض. كان القلق ينتابُ الحمّالين حول ما يحملونهُ بذات الدّرجة التي يكون عليها القلق من حمل كلب ميت، تمّ وضع ثقل فيه وتجهيزه غلقه في النهر.

توفّي المريض في تلك اللّيلة، ولا أحد يعرف على الإطلاق ما إذا كان قد قتل أم لا. ولكن في رأيي الصّادق، لقد كان كذلك. على الرّغم من أنّه ربما لم يكن ليتعافى مطلقا، إلّا أنّه من الواضح أنّه كان سيعيش أيّاما وربما أشهرا. ولو أنّه تمت معاملته بإنسانية، ومعالجته علميّا، ربّما استعاد صحّته وعاد إلى منزله. الشّاب الّذي كان رفيقي في جناح العنف المؤذي تمّت الإساءة إليه أيضا بشكل فظيع. أنا متأكد من أنّني لا أبالغ عندما أقول إنّه في عشر مناسبات خلال شهرين، تعرّض هذا الرجل للاعتداء بقسوة، ولا أعرف كم مرّة تعرّض لهجمات أقلّ حدّة. بعد واحدة من هذه العقوبات سألته عن سبب استمراره في

تجاوزاته الصّغيرة وهو يعرف أنّها سوف تؤدّي إلى توقيع مثل هذه الإساءة الجسديّة عليه.

قال بطريقة مقتضبة: «أوه، أحتاج إلى التّدريب».

في رأيي أنّ مثل هذا الرّجل، وبهذا الأسلوب الفكاهيّ الرّقيق، ربّما كان يشير إلى العذاب الّذي قد يستوجب أن يعيش قرناً. لكنّ القدر قرّر أنّه يجب أن يموت شابّاً. بعد عشرة أشهر من إيداعه بمستشفى الدّولة، خرج من المستشفى لتحسّن حالته- لكنّه لم يكن قد شُفي. لم يكن هذا الإجراء غير عاديّ، ولم يكن في حالته على ما يبدو غير حكيم، لأنّه بدا لائقا لحصوله على الحرّية. خلال الشّهر الأوّل من استعادته لحريّته، قام بشنق نفسه. لم يترك السّبب في رسالة. في رأيي، لاشيء كان ضروريّا. لأنّ أيّ إنسان يعرف، أنّ ذكريات الإساءة والتّعذيب والظّلم الّتي ظلّت لفترة طويلة من نصيبه ربّما كانت القشّة الأخيرة الّتي أفقدته التّوازن والرّغبة في الحياة.

غالبا ما كان المرضى الّذين لديهم قدرة أقلّ على التّحمّل من قدرتي يستسلمون للإخضاع، ولم ينل أيّ منهم تعاطفي مثل أولئك الّذين كان خضوعهم ناتجاً عن استسلامهم للشّعور بأن ليس لهم أقارب أو أصدقاء لدعمهم في نضال من أجل حقوقهم.

وبالنّيابة عن هؤلاء، وباستخدام قطعة الرّصاص المهرّبة المعتادة، سرعان ما بدأت في الكتابة وتقديم رسائل إلى المسؤولين في المصحّة، وصفت فيها الممارسات القاسية الّتي جاءت تحت ملاحظتي. تمّ قبول تقاريري بطريقة لائقة وتمّ نسيانها أو تجاهلها على الفور. ومع ذلك فإنّ هذه الرّسائل بقدر ما ترتبط بالأفعال المعلنة الّتي شاهدتها، كانت

واضحة وينبغي أن تكون مقنعة. علاوة على ذلك، فإنّ مزاعمي غالبا ما كانت تدعمها الكدمات الموجودة على أجساد المرضى. كانت عادتي المألوفة هي تدوين تقرير عن كلّ اعتداء وتسليمه إلى الطّبيب المسؤول.

كثيرا ما كنت أقوم بتقديم التّقارير إلى الممرّضين مع تعليمات بقراءتها أوّلا ثمّ تسليمها إلى المشرف أو الطّبيب المساعد. هؤلاء الرّجال الّذين كانت قسوتهم عارية قرؤوها بوضوح، لكنّ المتعة المنحرفة لرواياتي عن الاعتداءات الّتي قاموا بها جعلتهم يضحكون مازحين حول محاولاتي غير المجدية لمواجهتهم بها.

الفصل الثالث والعشرون

لقد رفضت أن أكون شهيدا. كان التّمرّد شعاري. وكان الاختلاف الوحيد بين رأي الطّبيب عني ورأيي عنه هو أنه كان يمكنه رفض التّعبير عن أفكاره. نعم- كان ثمّة فارق آخر. بالنّسبة إليّ كان يمكنني التّعبير في صورة كلمات فقط- أمّا هو فكان يعبّر بالتّجهّم. لقد تقدّمت مرارا بطلبات للحصول على الامتيازات التي عرفت أنّني مخوّل للحصولِ عليها. عندما كان يحقّقها كنت أشكره بلباقة. عندما كان يرفض- كما كان المعتاد منه- على الفور كنت أصبّ جام غضبي فوق رأسه. أكون في يوم على مهادنة ودّية مع الطّبيب، وفي اليوم التالي، كنت أقوم بتوبيخه بسبب الحرمان من حقوقي- أو، كما كان يحدث في كثير من الأحيان، لعدم التّدخّل نيابة عن حقوق الآخرين. كان الأمر يعدُّ واحدة من تلك المشاحنات الّتي وضعت بعدها في زنزانة باردة في منطقة الإحماء السّاعة الحادية عشرة صباح أحد الأيّام. دون حذاء ودون غطاء أكثر من الملابس الدّاخليّة، حيث أجبرت على الوقوف، أو الجلوس، أو الاستلقاء على أرضيّة عارية وصلبة وفي برودة الرّصيف في الخارج. لم يكن حتّى غروب الشّمس عندما منحت غطاء مجديا للأرضِ لأنّ البرد كان قد تمكن منّي تماما. ونتيجة

لذلك، أصبت بنزلة برد شديدة زادت من عدم ارتياحي كانت ستؤدّي إلى نتائج خطيرة لو كنت ضعيف البنية قليلا.

كان ذلك اليوم الثّالث عشر من ديسمبر واليوم الثّاني والعشرين من نفيي إلى جناح العنف. أتذكّر الأمر بشكل واضح لأنّه كان عيد ميلاد والدي السّابع والسبعين، وكنت أتمنى أن أكتب له رسالة تهنئة. لقد كانت هذه عادتي لسنوات عندما كنت غائباً عن البيت في هذه الذّكرى السّنوية. وكذلك أتذكّر متى، وتحت أيّ ظروف، طلبت من الطّبيب الحصول على إذن. كان الأمر ليلاً. كنت مستلقياً على فراشي من القماش الخشن. كانت زنزانتي مضاءة فقط عبر الأشعّة الخافتة من المصباح الّذي يحمله الممرّض المصاحب للطّبيب في زيارته المعتادة. في البداية، قدّمت طلبي بلغة مهذّبة. لكنّ الطبيب رفض مجرّد منحه لي. ثمّ وضعت طلبي بطريقة محسوبة لإثارة التّعاطف. لكنّه بقي دون تأثّر. أشرت بعد ذلك إلى أنّه كان يتحدّى قانون الدولة الّذي ينصّ على أنّه يجب أن يكون لدى المريض أدوات للكتابة – نظام أساسيّ، تعني روحه على الأقلّ أنّه يجب السّماح للمريض بالتّواصل مع الوصيّ عليه. لقد مرّت ثلاثة أسابيع منذ أن سمح لي بالكتابة أو مراسلة أيّ شخص. ولهذا السّبب، على العكس من عادتي، قمت بتقديم طلبي النّهائي في صيغة تسوية. وعدتُ بأنني سأكتب فقط تهنئة تقليدية، دون ذكر أيّ شيء عن محنتي. كان عرضا عادلا، لكن قبوله كان يعني اعترافا ضمنيّا بأنّ هناك شيئا ما لإخفائه، ولهذا السّبب، إذا لم يكن هناك سبب آخر، فقد تمّ رفضه. وهكذا يوماً بعد يوم، تعرّضت للقمع بطريقة في الغالب قد تدفع رجلا عاقلا إلى العنف. ومع ذلك،

فإنّ الطّبيب كان يحثّني مرارا على لعب دور الرّجل المهذّب. هل كانت الأخلاق الحميدة والخضوع للطّبيب هي نتاج لمثل هذه المعاملة؟ إنّ حرماني من ملابسي، ومن الطّعام الكافي، والدّفء، ومن رفقة عاقلة ومن حرّيتي، جعلتني أقول لأولئك الّذين في السلطة إنّهم طالما يستمرّون في معاملتي كأبشع المجرمين، فإنّني سأبذل قصارى جهدي لاستكمال الخدعة. لقد حملت عبء إثبات تعقّلي على عاتقي. قيل لي إنّني كلّما أسرعت وكنت مهذّبا وودوداً ومتواضعاً سأجد في حوزتي ملابسي وبعض الامتيازات. في كلّ مرّة، كان لابدَّ لي من أن أكون مؤهلّا لكسب جائزتي قبل تسلّمها. لو أنّ الطّبيب بدلا من مطالبته لي بكلّ الفضائل السّلبية الموجودة في كتالوج القدّيسين الضّعفاء، قد أعطاني ثيابي تحت شرط أن يتمّ أخذها منّي ثانية إذا قمت بفعل خاطئ، كانت النتائج بلا شك ستكونُ أكثر جودة. ربّما كان ذلك قد أعاد إليّ ملابسي قبل ثلاثة أسابيع من هذا الوقت الذي نجحت في استعادتها فيه، وكنت وفّرت تلك المعاناة من البرد .

لقد صرخت مطالبا بقلم رصاص يوميّا. تمثّل هذه الرّفاهية الصغيرة هامش سعادة لمئات المرضى، مثلما تمثّل سدادة أو علبة التّبغ هامش سعادة لآلاف من الآخرين، ولكن لمدّة سبعة أيّام لم يعطني طبيب أو ممّرض قلم. ومن المؤكد بفضل استقامتي وإبداعي الاستثنائيّ إلى حدّ ما، تمكّنت من البقاء دائما بامتلاك بعض البدائل لقلم الرّصاص الّتي تمّ الحصول عليها خلسة وهي حقيقة لم أشكّ في أنّ لها علاقة مع عدم اكتراث الطّبيب بطلبي. لكنّ عجزي عن تأمين قلم رصاص بطريقة مشروعة كان مصدر إزعاج لا داعي له، وكثير

من أفعالي اللّفظية الطّائشة كانت مستوحاة مباشرة من رفض الطّبيب المستمرّ. لقد كان مساعد الطّبيب، بخلاف الشّخص المسؤول بانتظام عن حالتي، هو الّذي في النّهاية تهاون وقدّم لي قلم رصاص جيّد ومكتمل. وبذلك وضع نفسه في مكانة عالية على قائمة المتبرّعين الذينَ لديّ، لأنّ هذا السكين هو المنقذ الصغير، المقدّر جدا، ولقد أصبح محور الكون.

الفصل الرابع والعشرون

قبل أيّام قليلة من حلول عيد الميلاد، رفع عنّي أكثر عقوبة حرمان أثارت غضبي. إنّها المنشودة. لقد استعدت ملابسي. تلك الّتي كنت أتعامل معها باحترام، وليست مثل الملابس الّتي مزّقتُ خيوطها. ملابس، كما هو معروف، لها تأثير متعلّق بالرّصانة والتّحضّر، منذ اللّحظة الأولى الّتي توفّرت لي مرّة أخرى ملابس خارجيّة أنيقة سرعان ما تحسّن سلوكي. حتّى أنّ مساعد الطّبيب الّذي كنت معه في شروط صداقة وعداء متغيرة أخذني في رحلة لركوب الزلّاجة. ومع هذا التّحسّن أتت امتيازات أخرى، أو بالأحرى منحت حقوقي في أواخر ديسمبر، إذ سمح لي بإرسال رسائل إلى الوصيّ عليّ. وعلى الرّغم من مصادرة بعض رسائلي المرعبة، تمّ إرسال عدد قليل من التّفاصيل حول تجربتي. التقارير الّتي تشرح معاناتي بشكل طبيعي أزعجت الوصيّ علي، لأنّه قال عند زيارتي التّالية "ما الّذي يمكن أن أفعله لمساعدتك؟ إذا كان الرّجال القائمون في هذه الدّولة على إدارة المؤسّسات لا يستطيعون إدارتها، فأنا في حيرة من أمري لمعرفة ما يجب القيام به". حقيقة، أنّه كان بإمكانهِ فعل القليل، لأنّه حينها لم يكن يعرف خصوصيّات الوضع المحيّر الّذي رسمته له روابط الدّم.

في منتصف شهر يناير، ذهب الطّبيب المسؤول عن حالتي لقضاء إجازة لمدّة أسبوعين. وأثناء غيابه، تولّى أحد كبار السّن من الموظفين

مسؤوليّة الجناح العنيف. رجل أكثر خبرة ودراية ولديه أفكار ليبرالية أكثر من سلفه السابق، لقد منحني على الفور عدّة امتيازات حقيقيّة. ذات يوم سمح لي بزيارة قصيرة إلى أفضل جناح وقد نقلت منه منذ شهرين. وهكذا تمكّنت مرّة أخرى من الاختلاط بالعديد من الرّجال الّذين يبدون عاديّين، وعلى الرّغم من أنّني استمتعت بهذا الامتياز في مناسبة واحدة، ولعدّة ساعات قليلة، إلّا أنّه منحني شعورا بالارتياح الشّديد. لقد كانت الأسابيع السّتة الأخيرة من الأربعة عشر شهرًا الّتي كنت محبوساً فيها في الجناح العنيف مريحة وسعيدة.لم أعد أخضع للإيذاء الجسديّ، على الرّغم من أنّ هذا الإعفاء يرجع إلى حدّ كبير إلى مهارتي في تجنّب المشاكل. لم أعد معرّضا للبرد أو الجوع مرة أخرى. كما سمح لي بممارسة التّمارين الرّياضية في الهواء الطّلق، وقد أثبتت بعد فترة عزلي الطويلة أنّها مبهجة جدّا. ولكن الأهم هو أني منحت مرّة أخرى إمدادات كافية من أدوات الكتابة والرّسم، الّتي أصبحت أكثر استخداما تحت أشعّة شغفي الفنّي المركّزة. تمّ تجنيب تحقيقاتي الآلية جانبا تدريجيا. وسيطر الأدب والفن عليّ مرّة أخرى.

فيما عدا الوقت الّذي أمارس فيه رياضتي في الخارج، كنت أظلّ في غرفتي أقرأ وأرسم. وسرعان ما أصبحت غرفتي قبلة لأكثر الشّخصيات الثّرثارة الّتي لا يمكن السيطرة عليها في الجناح. لكن سرعان ما علّمت نفسي أن أغلق أذني عن سماع ثرثرة الحشود الزّائرة غير المرحّب بها. ومن حين لآخر، قد يصبح بعضهم شرسا ربما بسبب أوامري السّيادية بمغادرة الغرفة. كانوا في كثير من الأحيان يهددون بخنقي، لكنّي تجاهلت تهديداتهم الّتي لم يتمّ تنفيذها مطلقا. ولم أكن

خائفا من أنهم سينفذونها. فقد كنت دائما ما أجعلهم ينصاعون إليّ.

كانت الرّسومات الّتي أنتجتها في هذا الوقت بدائيّة. بالنّسبة إلى الجزء الأكبر منها، كانت تتألّف من نسخ للرّسوم الّتي قطعتها من مجلّات وجدت طريقها بأعجوبة إلى الجناح العنيف. كانت رؤوس الرّجال والنساء هي أكثر مايثير اهتمامي، لأنّني قرّرت القيام برسم البورتريه.

في البداية، كنت سعيداً بالرّسم باللّونين الأبيض والأسود، لكنّني سريعا ما حصلت على بعض الألوان ومنذ ذلك الوقت ركّزت اهتمامي لأتقن الرّسم بألوان الباستيل. أمّا في عالم الأدب، فلم أحقّق سوى القليل من التّقدّم. كانت مؤلّفاتي في معظمها رسائل موجّهة إلى الأقارب والأصدقاء والمسؤولين في المستشفى. في كثير من الأحيان كان يتم إرسال الرّسائل الموجّهة إلى الأطبّاء في ثلاث مجموعات- وهذا لتوفير الوقت- لأنني كنت مشغولا للغاية. كانت أوّل سلسلة من هذه الرّسائل تحتوي على طلبي، مصاغ بعبارات ودّية مهذّبة. وكنت كتب مضيفا إليها في النّهاية، التّالي" إذا شعرت بعد قراءة هذه الرّسالة أنّك تميل إلى رفض طلبي فالرجاء قراءة الرّسالة الثانية". وتكون الرّسالة الثانية مكتوبة بشكل رسميّ جدّا -مثل رسائل العمل- تكرر الطلب الموجود في الرّسالة الأولى. مرة أخرى تكون الرّسالة الثالثة مذيّلة بالنصح إذا أخفقت الرسالة الثانية في حثه على ذلك. كانت الرسالة الثالثة دائما ما تكون مختصر وموجزة وكي أجعل الطبيب المتعنّت لا ينسى. بهذه الطريقة، قمت بإنفاق جزء من المخزون الهائل من الشّعور بالطّاقة الذي كان لديّ. لكنّني كنت دائما

ما أمتلك طريقة أخرى لتقليل الضّغط الإبداعي. ومن حين لآخر، من فائض العاطفة الذي كان لديّ، كنت أنفجر بكتابة قصائد من نوعيّة لا يمكن التشكيك فيها. نوعية من التي تجعل القارئ يحكم أنّني كنت أسعى إلى تكرار "ابتكار" مكتوب خلال ظروف على أقلّ تقدير، كانت سلبيّة.

قبل كتابة هذه السطور لم أحاول أبدًا أن أكتب الشعر خلال حياتي- باستثناء بعض الشعر الهزلي الذي يفتقر إلى معنى. وبينما أحكم الآن على هذه السطور، فمن الممكن أنّني حتى الآن لم أكتب قصيدة. ومع ذلك فإن اندفاعي اللّاإرادي التلقائي تقريبا هو على الأقلّ مؤشر للحماس الّذي كان بداخلي. لقد كتبت هذه الأسطر الأربعة عشر في غضون ثلاثين دقيقة من الوقت الّذي وضعت فيه الفكرة أوّلا، ثمّ أقدّمها بعد أن تصاغ بشكل جوهريّ. من وجهة نظر نفسية على الأقل، قيل لي، إنّهم لم يكونوا دون فائدة.

«النّور»

ساعة الإنسان الأكثر ظلاماً هي التي تسبق ميلاده،

الأخرى تلك التي تسبق الفجر،

من الظلام إلى حيث الحياة والضوء، يقفز الإنسان،

مرة واحدة إلى الحياة، وكما يريد الرب إلى النّور سيكون.

إنّه سرّ الرب الخاصّ،

لماذا يعيش البعض طويلاً، ويموت آخرون مبكراً،

لأن الحياة تعتمد على النور،

ويعتمد النور على الرب،
الّذي أعطى للإنسان المعرفة الكاملة،
هذا اليأس القاتم والحزن يذوبان في النّور
وتستمرّ، في العوالم
حيث يصبح أحلك الظّلام نورا،
لكنّه ليس ذلك النور الّذي يألفه الإنسان،
إنّه نور فقط
لأنّ الرب قال للإنسان ذلك.

كانت هذه الأبيات الّتي تتنفّس الدّين مكتوبة في بيئة أبعد ما تكون عن التّدين. مع لعنات الرفاق بالجناح الّتي ترنّ في أذني، بدا لي أنّ جزءًا من اللاوعي في داخلي يجبرني على كتابة ما يمليه عليّ. لقد كنت بعيدا بصفة شخصية عن كوني في إطار من التّديّن، وقد فاجأتني جودة فكرتي حينها، كما تفعل الآن.

الفصل الخامس والعشرون

لم أتوقّف عن تمزيق هذه الموادّ التي قد تخدمني في تحقيقاتي العلميّة رغمَ أنني لم أغيّر نظرة الاحترام لملابسي. لقد هزمتني الجاذبيّة، وكان لا مفرّ من أن أخصّص بعض وقتي لاختراع آلة طيران. وهو الأمر الّذي سرعان ما تمّ إتقانه، في عقلي، وكان كلّ ما أحتاجه، كي أتمكّن من اختبار الجهاز، هو حرّيتي.

كالعادة، لم أتمكّن من شرح كيف سأحقّق النّتيجة الّتي تنبأت بها بثقة. ولكنّي أعلنت أنني يجب وعما قريب، أن أتمكّنَ من الطيران، إلى سانت لويس للمطالبة بمكافأة المائة ألف دولار المقدمة من قبل لجنة معرض لويزيانا لأكثر المركبات الطائرة جودة. في اللّحظة الّتي كانت الفكرة تجول في عقلي، لم يكن لديّ آلة طيران فحسب، بل كان لديّ ثروة في البنك. وحيث أنني لم أتمكّن من تبديد ثروتي، أصبحت لفظيًا منفقا كبيرا. كنت في حالة مزاجية لشراء أيّ شيء، وكنت أتخيّل الكثير من السّاعات التي أقضيها في التّخطيط لما يجب أن أفعله بثروتي. كانت جائزة سانت لويس تافهة وهزيلة. لكنّي أدركت أنّ الرّجل الّذي يمكن أن يسخّر الجاذبية يمتلك العالم وكلّ ما فيه تحت إمرته. لقد جعل الانضمام المفاجئ للثّروة مشاريعي الإنسانيّة تبدو أكثر جدوى. ما الّذي يمكن أن يكون مبهجا أكثر من تأثيث الأفكار الكبيرة

لترويض الإنسانيّة. كنت في حالة من الشّعور بالنشوة المشوّقة. أعطني حريتي وسوف أظهر للعالم القديم النّائم ما يمكن فعله لتحسين الظروف، ليس فقط بين المجانين ولكن لكلّ خطّ من الجهود المفيدة.

كان من المقرّر أن تصبح المدينة التي ولدت فيها مركزا للبساتين. وأن يتمّ إبعاد كلّ المصانع المبتذلة لتضخّ الدخان الضارّ لمسافات بعيدة. وأن تفسح الكنائس مجالا للكاتدرئيات، كانت المدينة ذاتها ستصبح جنّة من القصور، كما كان من المفترض أن تكون جامعة ييل من أفضل الجامعات في مقاييس التّعليم في العالم. ولمرّة واحدة، كان أساتذة الجامعات سيتقاضون أجورا مناسبة، وامتيازات مغرية تعوّضهم عن سنواتهم المزرية. يجب أن تصبح نيوهيفن مرتعا كبيرا للثقافة. كان من المفترض أن تكون هناك معارض فنّية ومكتبات ومتاحف ومسارح تشبه روعة الحلم إذا ما رغبتُ في ذلك. لماذا يكون سخيفا؟ ألست أنا من سيتحمّل التّكلفة؟ سيتم استنساخ المباني الشّهيرة في العالم القديم، إذا لم يمكنك في الواقع شراء الأصول، فلتأت بها إلى هذه البلد وأعد بناؤها. الأمر ليس ببعيد عن نيو هيفن، فقد كان يوجد سهل رملي صغير يفترش نهر كونتكيت، لكنّه الآن عبارة عن صحراء مصغّرة. أبتسم غالبا كلّما مررت عليه بالقطار، ولأنّه كان هنا، من أجل تعليم أولئك الّذين قد لا يكونون قادرين على زيارة وادي النّيل، لهذا خطّطت لإقامة هرم خوفو الذي يجب أن يماثل الأصليّ. أعتقد أنّ جاذبيّتي المسخّرة، لن تسمح لي فقط بالتّغلب على الصّعوبات الميكانيكيّة القائمة، ولكن من شأنها أن تجعل من الصّخور المستخرجة من المحاجر سهلة التّقطيع كالخبز، ووضعها في

مكان ما بسهولة كقوالب الطوب .

في نهاية المطاف، ليس هناك ما هو أكثر تسلية من أوهام العظمة. التشكيلة الّتي وفّرتها مخيّلتي كانت شاملة. لقد رميت جانبا المكعّبات الّتي كنت أستخدمها أيّام الطفولة، وبدأت بدلا عنها في وضع مربّعات من الخشب واحدة فوق الأخرى في محاولة لبناء مجسّم صغير لمنزل، شرعتُ الآن في لحظتي الطّفولية هذه في مخطّطي ضدّ شبح هوائيّ رقيق وانتهيت من البناء في طرفة عين. لكي أؤكّد لك، أنّ مثل هذه المنازل المصنوعة من البطاقات كثيرا ما تنهار على الفور واحدة تلو الأخرى، لكن اختفاء إحداها لا يمكن أن يزعج العقل الّذي يمتلك اهتمامات أخرى للاستعاضة عنها. وما في ذلك، من سعادة مخفية تكمن في تلك المرحلة التي تتميز بأوهام العظمة- ويوفّر ذلك دائما للذين يشعرون بها إحساسا بأنّهم لا يخضعون لأيّ حرمان أو سوء معاملة. إنّ الرجل العاقل الذي يمكن أن يثبت ثراءه ماديا لا يكون سعيدا بمثل هذا الرجل المختلّ عقليا الذي تخدعه الأوهام ليعتقد أنّه كرويسوس آخر[14].

إنّ ثروة الأوهام الّتي تشبه ميداس لا تشكّل عبئًا. مثل هذه الثّروة، على الرّغم من سوء الحظّ ذاته، يتحمّم العالم فيها بوهج ذهبي. لا سحب تحجب الرّؤية. التفاؤل يسود الأقاليم. "الفشل" و"المستحيل" هي كلمات غير مألوفة. والرّضا الفريد عن ثروة من هذا النوع الهارب هي أنّ خساراتها لا تترك ندما. وواحدة تلو الأخرى تبحر أشباح سفن الكنز بعيدا عن أجزاء مجهولة، حتّى، عندما تصبح

(14) . كان كرويسوس مل ليديا الذي حكم وفقا لهرودوت لمدة 14 عاما قبل الميلاد وكا مشهورا بثراؤه.

السّفينة الأخيرة ليست إلّا بقعة في الأفق العقليّ، يجعل المراقب اكتشاف السّعادة هو أن سطول قراصنة ترك وراءه صحوة عقليّة لا تقدّر بثمن.

الفصل السادس والعشرون

في وقت مبكّر من شهر مارس 1902، وبعد أن عشت في جناح العنف لمدّة أربعة أشهر تقريباً، تمّ نقلي إلى جناح آخر هادئ ومنظّم، ويعد أفضل ما في المؤسسة رغم أنّ أثاثه أقلّ جاذبيّة من الجناح الّذي وُضعتُ فيه أوّل مرّة أتيتهم. ولكن هنا أيضا حصلت على غرفة خاصّة بي، وكانت الغرفة مجهّزة ليس فقط بمجرد سرير ولكن كان بها كرسي وخزانة ملابس. ومع هذه المعدّات المتطوّرة، سرعان ماتمكّنت من تحويل غرفتي إلى أستديو حقيقيّ. بينما في الجناح العنيف كان من اللازم إخفاء مواد الكتابة والرّسم الخاصّة بي لمنع المرضى الآخرين من أخذها، لكن في مسكني الجديد، تمكّنت من القيام بالأعمال الأدبيّة والفنيّة دون المضايقات التي كانت حتميّة خلال الأشهر السّابقة.

بعد فترة وجيزة من انتقالي إلى هذا الجناح، سمح لي بالخروج من الأبواب والسّير إلى قسم الأعمال في المدينة، على بعد ميلين، لكن دائما ما كان معي من يصحبني في تلك الجولات. بالنّسبة إلى شخص لم يتنازل أبدا عن أيّ جزء من حرّيته، فإنّ مثل هذه المراقبة من دون شك تبدو مزعجة، غير أنّها بالنّسبة إليّ، بعد أن كنت محبوسا لفترة طويلة،

لم تكن كذلك فقد كان المرض الدّائم الّذي معي رفيقا أكثر من كونه حارسا .

لم تكن هذه الرحلات إلى العالم العاقل والحرّ مجرّد متعة عظيمة، بل كانت تقريبا مثل المنشّط. فاحتكاك مرفقيك بأناس عاديّين يجعلك تميل إلى استعادة اتّزانك العقلي، لأنّ ذلك العابر عرضيا الّذي لا يعرف بأي طريقة أنّني مريض يخرجُ في نزهة للتمشية. وهذا ما ساعدني في اكتساب ثقة بالنفس، وهو أمر أساسي لنجاح المرء في العودة إلى عالم انقطع عنه منذ فترة طويلة.

كانت أولى رحلاتي إلى المدينة في المقام الأوّل بغرض تزويدي بأدوات الكتابة والرّسم. وبينما كنت أستمتع بهذه المذاقات المرحبة للحرية، وفي أكثر من مناسبة، قمت بإرسال رسائل معينة لم أكن أجرؤ على تسليمها إلى الطّبيب بالبريد. في ظلّ الظّروف العاديّة يكون مثل هذا العمل من جانب من يتمتّع بامتياز خاص أمرا مشينا. لكنّ الظّروف الّتي حدثت بعد ذلك لم تكن عاديّة. كنت ببساطة أحمي نفسي ضدّ ما اعتقدت أنّه مصادرة غير عادلة وغير قانونيّة للرّسائل. لقد سبق أن وصفت كيف أنّ أحد مساعدي الطّبيب رفض بشكل تعسّفي طلبي بإرسال خطاب عيد ميلاد إلى والدي. في هذا الوقت كنت تقريبا طبيعيا جدا لدرجة أنّ خروجي من المستشفى كان مرتهنا ببضعة أشهر. ولأنّه كان من المتوقّع عودتي إلى العالم القديم، قررت تحديد العلاقات السّابقة. وتم إبلاغ أخي، بناء على اقتراح منّي، بأن يبلّغ أصدقاء معيّنين أنّه من دواعي سروري تلقي رسائل منهم. وسرعان ما كتبوا إليّ. في هذه الأثناء، كان الطّبيب قد تلقّى تعليمات

بأن يقوم بتسليمي أيّ رسائل قد تصلني. وقد فعل ذلك فترة من الزمن وأنه من دون رقابة. وكما كان متوقعا، بعد ما يقرب من ثلاث سنوات بلا رسائل، انتابتني فرحة نادرة في الرّد على مراسليّ الجدد.

ومع ذلك، فإنّ بعض هذه الرّسائل، الّتي كتبت بغرض إثبات نفسي في العالم العاقل، قد دمّرها الطبيب المسؤول. في ذلك الوقت، لم يقل لي كلمة واحدة عن هذه المسألة. كنت قد سلمت إليه رسائل، غير مختومة. لم يرسلها إليهم ولا إلى الوصيّ عليّ كما كان يجب أن يفعل، وكان قد وافق في وقت سابق على القيام بإرسال جميع الرّسائل التي لم يستطع أن يرى الموافقة عليها. مرّ شهر كامل قبل أن أعلم أنّ أصدقائي لم يتلقّوا ردّي على رسائلهم. لذا اتّهمت الطبيب بأنّه قام بتدميرها، وهو بصراحة متأخرة اعترف أنه فعل ذلك. لم يقدّم أيّ عذر أكثر من مجرد القول إنّه لم يوافق على المشاعر الّتي عبّرت عنها .

من الأمثلة الصّارخة الأخرى أنّني لم أتلقّ الرّدّ على رسالة أرسلتها خلسة، وأخبرني المرسل إليه وهو صديق أنّه قد وافاني بردّ، لم يصلني. ولو أكن على يقين أنّ الرسالة المعنية تمّ تلقّيها من المستشفى وتدميرها لم أكن لأثير هذه النّقطة. لكن هذه النقطة، إذا ما أثيرت على الإطلاق، لا يمكن بالطّبع أن تتمّ، دون ذلك الدّليل المباشر الّذي لا يمكن أن يأتي إلّا من الرّجل المدان بفعله وهو يعتبر في العالم العقلاني مجرّد مجرم. لذلك، لابدّ لي من التّوسّع في الأسباب الّتي جعلت من الضّروري تهريب رسالة مضمونها الشكوى والتعليمات مثل الّتي أرسلتها إلى حاكم الولاية. هذه الرّسالة كنت قد كتبها بعد فترة وجيزة من انتقالي من الجناح العنيف. كانت الانتهاكات الّتي حدثت في هذا

الجناح ما تزال حيّة في ذهني، وحفظت ذكرى المشاهد المؤلمة حيّة من خلال التّقارير التي وصلتني من الأصدقاء الذين كانوا بعد محبوسين هناك. علمت من التّحريّين الخصوصيّين الذين يعملون لصالحي، وقد تحدّثت معهم في ليلة التّرفيه أو في التّجمعات الأخرى، أنّ الوحشيّة أصبحت أكثر شيوعا. بعد أن أدركت أنّ حملتي ضد الإساءة الجسديّة تجاه المرضى قد أثبتت أنّها بلا جدوى، قرّرت أن أتخطّى رؤساء الأطبّاء وأن أناشد رئيس المؤسّسة بحكم منصبه، وهو حاكم الولاية.

في الثّاني عشر من مارس عام 1903، كتبت خطابا أزعج الحاكم لدرجة أنّه طلب على الفور تحقيقا غير رسميّ في بعض اتّهاماتي. وعلى الرّغم من الإسهاب، ومن شكلها غير التّقليديّ، كان يمكن وصف رسائلي بأنها ضرب من الوقاحة والمعرفة الشّيطانيّة، كما قال لي بعد عدّة أشهر عندما تحدّثت معه، إلّا أنّها كانت «جرس الحقيقة».

كانت كتابة الموضوع مسألة سهلة، في الواقع، كانت سهلة جداً، بسبب ضغط الحقيقة الّتي كنت أعمل عليها في ذلك الوقت، فقد جسّدت بعفوية مقنعة.لم يكن إرسالها بالبريد سهلا. كنت أعرف أنّ الطّريقة الوحيدة المؤكّدة لأعرض أفكاري أمام الحاكم هو القيام بإرسال بريدي الخاص بنفسي. وبطبيعة الحال، لا يمكن الوثوق بأيّة طبيب لإرسال لائحة اتّهام ضدّه هو وزملاؤه إلى الرّجل الوحيد في الولاية الّذي يملك سلطة إجراء مثل هذا التّحقيق، ممّا قد يدفع الجميع أن يبحثوا عن عمل في مكان آخر. وفي إطاري العقليّ، كانت رغبتي في إرسال رسالتي بالبريد، تعني معرفة كيفيّة تحقيق مثل هذه

الرّغبة. كانت الرّسالة، في الواقع، كتيّبا. كنت قد استخدمت بعناية حبر الرّسم المقاوم للماء في كتابتها، تحسّبا، ربّما لأنّه قد يتمّ القيام بمحاولة لحرمان الأجيال القادمة من مثل هذه الوثيقة. كان الكتيّب يتألّف من اثنين وثلاثين صفحة ذات ثماني عشرة بوصة من الورق الأبيض الثّقيل. وأثناء تخطيط شكل الرّسالة نسيت أن أضع في الاعتبار حجم فتحة صندوق البريد العاديّة. لذلك اضطررت إلى اعتماد طريقة غير معتادة في وضع الرّسائل في البريد. كانت حيلتي بسيطة. كان هناك في البلدة متجر معيّن كنت أتسوّق منه. بناء على طلبي بعدما أذن لي الطّبيب بالذّهاب إلى هناك للحصول على إمدادات. كنت بالطبع بصحبة ممّرض، لم يشكّ كثيرا فيما كنت أحمله أسفل سترتي. كان إخفاء رسالتي وحملها في ذلك المكان سهلا، لكنّ التّخلّص منها بعد الوصول إلى هدفي كان مسألة أخرى. وبمشاهدة فرصتي، دسَستُ الرّسالة بين أوراق نسخة من صحيفة «ستراداي إيفننج بوست». هذا ما قمت بفعله، آملا أنّ مشتريا سيكتشف الرّسالة ويقوم بإرسالها بالبريد. ثمّ غادرت بعدها المتجر. على الجزء الخلفي من المغلّف، كتبت الكلمات التّالية (السّيد ساعي البريد: هذه الرّسالة غير مختومة. بالرّغم من أنها مسألة من الدّرجة الأولى. كلّ شيء أكتبه هو بالضّرورة من الدّرجة الأولى. قمت بتثبيت طابعين بقيمة السّنتين. إذا كانت هناك حاجة إلى طوابع بريد إضافيّة، فإنّك ستقوم بعمل خدمة للمحافظ إذا قمت بوضع طابع بريد إضافيّ. أو وضع طابع «مستحقّ» والسّماح للحاكم بدفع فواتيره الخاصّة، لأنّه قادر على فعل ذلك. إذا كنت تريد أن تعرف من أكون، فقط اسأل

صاحب السّعادة، وتفضّلوا بقبول فائق الاحترام).

بكتابة هذه الملاحظة، قمت بتنظيم آراء قويّة أخرى، على النّحو التّالي- مأخوذة من القوانين الّتي وضعتها لهذه المناسبة: «أيّ شخص يعثر على هذه الرّسالة أو طرد بريدي- مختوم ومذكور فيه العنوان - يجب أن يقوم بإرسالها بريديّا كما ذكر على الرّسالة أو الطّرد البريديّ إلى أيدي الحكومة في اللّحظة الّتي يكون فيها الطّابع مختوما».

ومرّة أخرى: «عدم الامتثال للنّظام الاتّحاديّ الّذي يحظر على أيّ شخص باستثناء المرسل إليه فتح الرسالة يجعل الشّخص عرضة للسّجن في سجن الولاية».

وصلت رسالتي إلى الحاكم. واحد من الكَتبة في المتجر الّذي تركت فيه الرّسالة وجدها وأرسلها بالبريد. وقد علمت منه فيما بعد أنّ تعبيراتي الفريدة أثارت فضوله، وأرغمته على القيام بالعمل الّذي كنت أتمناه.

إذا افترضت أنّ فضول القارئ قد يكون على نحو مماثل، سأقتبس بعض الفقرات من هذا الخطاب الاحتجاجيّ ذو الأربعة آلاف كلمة. تقرأ الجملة الافتتاحيّة على النّحو التّالي: «إن كانت لديك الشّجاعة لقراءة ما ورد أعلاه» (في إشارة إلى عنوان غير مألوف) «أرجو أن تقرأ حتّى نهاية هذه الرسالة - وبالتّالي إظهار السّلوك المسيحي الحقيقيّ، ومعرفة عدد قليل من الحقائق الّتي أعتقد أنّها يجب أن تسترعي انتباهكم».

ثمّ قدّمت نفسي، مع ذكر عدد قليل من الأصدقاء، عن طريق الإشارة إلى أنّني لم أكن كذلك دون صلات سياسيّة مؤثّرة. وأكملت

على النّحو التّالي: يسعدني أن أخبركم أنّني اعمل في مجال الجنون وأنّني أقوم بوظيفتي بسهولة وبدرجة معقولة من الكياسة. كوني في مجال الجنون، جعلني أتفهّم بعض مراحل العمل الّذي لا تعرف أنت عنه شيئا. فأنت بوصفك حاكما الآن تعدّ «رئيس الشّيطان» في هذا «الجحيم» على الرّغم من أنّني أعلم أنّك تتصرّفُ دونَ وعي كأنّك «ملازم أوّل لصاحب السّعادة». ثمّ بدأت في التّطرّق إلى ترتيبات معاملة المجانين. والطّرق الّتي أعلنت أنّها خاطئة من البداية وحتّى النّهاية. الانتهاكات الموجودة هنا توجد في كلّ مؤسّسة أخرى من هذا النّوع في البلاد. كلّها متشابهة- على الرّغم من أنّ البعض منها بالطّبع أكثر سوء من الآخرين. الجحيم هو الجحيم في جميع أنحاء العالم، ويمكنني أن أضيف أيضا أنّ الجحيم هو مجرّد مجموعة كبيرة من التّفاصيل الكريهة على أيّ حال. هذا هو كلّ ما يكون عليه مستشفى المجانين. إذا لم تكن تصدّق ذلك، عليك فقط أن تجنّ وتأخذ مكانا هناك. عند كتابة هذه الرّسالة،لم أكن تحت أيّ إثارة عقليّة. ولم أخضع للإساءات الّتي أشكو منها. أنا بخير وسعيد. في الحقيقة لم أكن سعيدا من قبل كما أنا الآن. وسواء كنت معافى عقليّا أم لا، سأترك لك أن تقرّر. إذا كنت مجنونا اليوم، آمل ألّا أتمكّن أبدا من استعادة عقلي.«لقد قمت بمهاجمة إدارة المصحّة الخاصّة حيث تمّ تقييدي بسترة التّقييد كما أطلق عليها وكما أطلق على الطبيب "دكتور جيكل-هايد" (المضطرب عقليّا)». ثمّ تبعت ذلك بذكر تقرير عن تجربة سترة التقييد، وتقرير عن الانتهاكات الّتي تحدث في مستشفى الولاية. ووصفت بالتّفصيل أكثر الاعتداءات الوحشيّة التي كانت من

حصّتي. وفي الملخّص، قلت: «لقد أعلن الممرّضون في اليوم التّالي أنّني نعتّهم بأسماء معيّنة، -ربّما فعلت ذلك- على الرغم من أنّني لا أعتقد أنّني فعلتُ ذلك على الإطلاق. وماذا في ذلك؟ هذه ليست مدرسة داخليّة للفتيات. هل يجب أن يتمّ قتل رجل تقريبا لأنّه سبّ الممرّضين الّذين يطلقون الشّتائم مثل القراصنة؟ لقد شاهدت ما لا يقلّ عن خمسة عشر رجلا، كان الكثير منهم محطّما عقليّا وجسديّا، وتمّ الاعتداء عليهم بوحشيّة كما حدث لي عادة دون سبب. أعرف أنّ حياة رجل قصرت بسبب هذه الاعتداءات الوحشيّة. وهذه مجرّد طريقة مهذّبة للقول إنّ جريمة قتل ارتكبت هنا» .

ثم انتقلت إلى مسألة عنبر النّساء، فقلت: «أخبرني أحد المرضى في هذا العنبر، وهو رجل صحيح العقل، يغادر من هنا يوم الثّلاثاء المقبل- أنّ امرأة مريضة أبلغته أنّها شاهدت الكثير من النّساء العاجزات يتمّ جرّهنّ من شعورهنّ على الأرض، ورأتهنّ يخنقن من قبلِ الممرّضين باستخدام المنشفة المبلّلة. لقد مررت بالأمر وأصدّق كل كلمة ذكرتها من سوء المعاملة. ربّما تشكّك فيما ذكرت. ومع ذلك، ضع في اعتبارك أنّ كل شيء سيّء وغير محتمل هو أمر ممكن الحدوث في مأوى المجانين».

سيلاحظ أنّني من المهارة الكافية لأدّعي أنَّ تهمه لن أتمكّن من إثباتها. وعندما جئت لذكر مسألة «**منطقة الإحماء**»، لم أهدر الكلمات: منطقة الإحماء: كتبت هكذا «هي عبارة عن نسخة مصغّرة من بورصة نيويورك خلال نوبة من الذّعر».

ثمّ أشرت بعد ذلك إلى الصّعوبات الّتي يجب على المريض التّغلّب

عليها لإرسال رسائل بريدية: «إنّه من المستحيل على أيّ شخص أن يرسل رسالة إليك عبر "مكتب البريد" لأنّ الرّسالة سيتمّ إرسالها إلى سلّة المهملات، ما لم تكن رسالة مجنونة بشكل خاصّ – وفي هذه الحالة قد تصل إليك، لأنّك لن تهتمّ بها. لكنّ رسالة عقلانية ورسالة "حقيقيّة"، تخبرنا عن الانتهاكات الّتي تحدث هنا، لن تظهر كي يتمّ إرسالها بالبريد. إنّ طريقة العبث بالبريد من قبل الطّاقم الطّبّيّ مزرية».

ثمّ وصفت خدعتي لإرسال رسالتي إلى الحاكم، بعد أن اكتشفت أنّني قد تركت صفحة من كتيّب رسالة فارغة، رسمت فيها نسخة من درس تشريح رامبرانت، وكتبت تحتها عنوانا: «تم تخطّي هذه الصّفحة عن طريق الخطأ. كان على القتال مدة ثلاثة وخمسين يوما للحصول على ورق للكتابة وأنا أكره أن تهدر أيّ مساحة– ومن ثمّ رسمت تحفة فنّية في خمس دقائق. لم أرسم أبدا حتّى 26 سبتمبر (الماضي) ولم أتلقّ أيّ دروس رسم في حياتي. أعتقد أنّك ستصدّق بسهولة إفادتي». وفي نفس السّياق قلت «أعتزم تخليد جميع أعضاء الطّاقم الطّبيّ في مستشفى الولاية للمجانين– عندما أوضح الجحيم الّذي كنت فيه، وعندما أنهي كتابته، سيجعل من الكوميديا الإلهية لدانتي تبدو كمهزلة فرنسية».

قمت بعد ذلك بتوضيح خططي للإصلاح قائلا: «سواء حظيت مقترحاتي بالموافقة أم لا، فلن يؤثر ذلك على النّتيجة– على الرّغم من أنّ المعارضة من جانبك ربما تؤخّر الإصلاحات. لقد قرّرت أن أكرّس السّنوات القليلة القادمة من حياتي لتصحيح الانتهاكات

الموجودة في كلّ مصحّة عقليّ في هذا البلد. أعرف كيف يمكن تصحيح هذه الإساءات وأعتزم- في وقت لاحق عندما أفهم الموضوع بشكل أفضل- أن أضع وثيقة لحقوق المريض العقليّ. كلّ ولاية في الاتّحاد ستقوم بإجازتها لأنّها ستقوم على أساس قاعدة ذهبيّة. إنّني أرغب في التّعاون مع حاكم ولاية كونيتيكت، لكن إذا لم ترق خطّتي له، فسأتعامل مباشرة مع رئيسه السّيد، رئيس الولايات المتّحدة. عندما يسمع ثيودور روزفلت قصّتي سيفور دمه. أودّ أن أكتب له الآن، لكنّي أخشى من أن يقفز ويقوم بتصحيح الانتهاكات بسرعة كبيرة، وعندما يفعل ذلك بسرعة لن يتحقّق سوى القليل من الخير».

قلت وأنا أستمر في كتابة الحقيقة بمهارة: «أنا بحاجة للمال بشدّة، وإذا كنت مهتمّا، كان يمكنني بيع معلوماتي وخدماتي إلى صحيفة "نيويورك وورلد" أو "نيويورك جورنال" مقابل مبلغ كبير، لكنّني لا أنوي الإعلان عن ولاية كونتيكت على أنّها حفرة جهنّميّة للإثم، والجنون، والظّلم. لو ظهرت هذه الوقائع في الصّحف العامة في هذا الوقت، فإنّ كونتيكت ستفقد مكانتها بين الولايات الأخرى، وسوف يستفيدون من العار الّذي سيلحق بها ويقومون بتصحيح الانتهاكات لديهم قبل أن يتمّ وضعهم في موضع المساءلة. وبما أنّ هذه الظّروف سائدة في جميع أنحاء البلاد، فلا يوجد سبب يجعل من كونيتيكت الوحيدة الّتي تحصل على الإساءات والانتقادات الّتي ستتبع الكشف عن إساءة المعاملة المثيرة للاشمئزاز، كمثل هذه المعاملة غير الإنسانيّة للحطام البشريّ.

أمّا إذا كانت الدّعاية ضرورية لإجبارك على التّصرف- وأنا متأكّد أنّ هذا لن يكون ضروريّا- فسأقدّم طلبا للحصول على أمر بالمثول أمام المحكمة، لإثبات عقلانيّتي إلى هيئة المحلّفين، وإثبات عدم كفاءتك. إنّ السّماح لمثل هذه الزّوبعة الإصلاحيّة أن تجرف ولاية كونيتيكت موصومة بالعار إلى المحكمة العامّة سيثبت عدم كفاءتك».

كان من الجيّد لعدّة أسباب واضحة أنّني لم أحاول في ذلك الوقت إقناع هيئة المحلّفين بأنّني كنت سليماً عقليّاً. فمجرد تحديد مخطّط طموح للإصلاح كان سيؤدي إلى عودتي الفوريّة إلى المستشفى.

بيد أنّ هذا المخطط كان سليما وممكنا كما أثبتت الأحداث اللّاحقة. ولكنّها أثّرت عليّ، بالفعل، بينما كانت مخيّلتي مشحونة بالإثارة، كنت مضطرّا إلى القضاء على مشكلتي بالمساومة، ولبعض الوقت، بطريقة مقنعة إلى حدّ ما من أجل إخفاء الاستقامة الأساسيّة لهدفي العزيز.

أنهيت رسالتي على النّحو التّالي: «لا شكّ أنّك سوف تعتبر أجزاء معيّنة من هذه الرّسالة بدلا من ذلك "جديدة". أعتذر عن أيّ من هذه المقاطع الآن، لكن، بما أنّ لديّ رخصة جنون، فإنّني لا أتردّد في قول ما أفكّر به. ما هي الفائدة عندما يقف المرء في قفص الاتّهام مثل مجرم؟»

ملاحظة: «هذه الرّسالة سرّيّة، ويجب إعادتها إلى الكاتب عند الطّلب».

في النّهاية تمّ إرسال الرّسالة إلى الوصيّ علي وهي الآن في حوزتي.

نتيجة لاحتجاجي هذا، قام المحافظ على الفور باستجواب مدير المؤسّسة الّتي قام فيها "جيكل – هايد" بتعذيبي. وإلى أن وضعت أمام المدير المشرف التّهم الموجّهة إلى مساعده، لم يكن الطّبيب المسؤول يشكّ في أنّني تعرّضت للتّعذيب. هذا المدير الّذي كان يفخر بمؤسّسته، كان حسّاسا للنّقد وكان من الطّبيعيّ أن يسعى جاهدا لتخفيف جريمة مرؤوسه. قال إنّي المريض الأكثر إزعاجا، وهو في الحقيقة أمر صحيح، لأنّني كنت أقوم بطريقتي الخاصّة بأداء الأشياء الّتي أقلقت المسؤولين منّي. باختصار، لقد أثرت موقفا أشرت إليه فيما سبق على أنّه «مزيج غريب من العقلانيّة».

لم يلتق الحاكم بالطّبيب المساعد الّذي أساء معاملتي. لقد ترك التّوبيخ، إن كان هناك أيّ منه، إلى المدير الإداريّ. وفي رسالتي إلى الحاكم، كنت قد أشرت إلى مزيد من الانتهاكات الّتي تعرّضت لها في هذه المؤسّسة الخاصّة أكثر ممّا كنت أتحمّله في المستشفى الحكوميّ حيث كنت حينما كتبت إليه. ربما كان لذلك بعض التّأثير على الإجراء الّذي قام به أو بالأحرى الّذي فشل في القيام به. على أيّ حال، بالنّسبة إلى المستشفى الحكوميّ،لم يتمّ اتّخاذ أيّ إجراء،لم يتمّ حتّى إرسال كلمة تحذير إلى المسؤولين، كما علمت لاحقا. لأنّني قبل أن أغادر المؤسّسة قمت بسؤالهم. على الرّغم من أنّ رسالتي لم تؤدّ إلى إجراء تحقيقات، إلّا أنّها لم تكن دون نتائج. وبطبيعة الحال، كان من دواعي ارتياحي الكبير أن أبلغت الأطبّاء بأنّني قد خدعتهم، وكان ذلك من دواعي سروري الأكبر، فقد تأكّد لي الآن أنّ أولئك الّذين في السلطة يبدون عزمهم على بذل جهود ولو مؤقتة لحماية المرضى العاجزين من قسوة

الممرّضين. وفي اللّحظة الّتي كان فيها الأطبّاء مقتنعين بأنّني تخطّيتهم وقمت بإرسال رسالة احتجاج مميّزة إلى حاكم الولاية، فقد بدؤوا عند تلك اللّحظة في حماية أنفسهم من خلال طاقة تولّدت عن إدراك مواطن الضّعف لديهم.

سواء اعترفت الإدارة المهنيّة من قبل بأنّ نشاطها غير المرغوب فيه يرجع إلى حيلتي النّاجحة، تظلّ الحقيقة هي أنّ فصل العديد من المرضين المتهمين ممّن ثبتت إدانتهم بالوحشيّة قد تبعه على الفور ولفترة من الزّمن وقف للاعتداءات الوحشيّة التي قمت بالاحتجاج عليها لمدّة أربعة أشهر دون جدوى.

أخبرني المرضى الّذين ما يزالون يقيمون في الجناح العنيف أنّ سلاما نسبيّا قد ساد في هذه الفترة.

الفصل السابع والعشرون

لقد أقنعني فشلي في إجبار الحاكم على التّحقيق في الأوضاع في مستشفى الدّولة بأنني لا أملك أيّ أمل في رفع دعوى بإصلاحاتي حتّى أتمكّن من استعادة حرّيتي وإعادة تثبيت أقدامي في العالم القديم. لذا، فقد تركت دور المناضل الإصلاحيّ. ولكن بالنّسبة إلى ثورة عرضيّة عارمة من الاستنكار الصّريح لبعض الإساءات الفاضحة الّتي تضمنتها ملاحظاتي، كان سلوكي مرضيا تماما. لقد كنت بالفعل راضيا وسعيدا. وبمعرفة أنّني سرعان ما سأستعيد حرّيتي، وجدت أنّه من السّهل أن أسامح- مسيطرا على آلام كبيرة لا تنسى- أيّ ظلم حدث لي. الحرّية جميلة، حتّى بالنّسبة إلى شخص فقدها ولم ينقص حنينهُ إليها. إنّ المشاعر الممتعة الّتي أثارها تحرّري الوشيك في داخلي ساعدت في تخفيف حدّة حديثي وجعلتني أكثر لينا.لم يكن الطّبيب المساعد بطيئا في ملاحظة ذلك التّغيّر، على الرّغم من أنّه كان بطيئا إلى حدّ ما في منحي الثّقة الّتي شعرت أنّني أستحقّها. كان لذلك ما يبرّره، لذلك غفرتُ شكّه بي في ذلك الوقت. لأنّني كنت أقوم في العديد من الأوقات السّابقة بـ"لعبة التّمارض" وقد كان الطّبيب بطبيعة الحال يُرجِعُ تصرفاتي البريئة هذه إلى دوافع معقّدة لا يمكن سبر أغوارها. ولفترة طويلة كان يعتقد أنّني كنت أحاول اكتساب ثقته، للفوز بامتيازات الإفراج غير المحدود، وبالتّالي التّأثير على مسألة هروبي. ممّا لا شكّ فيه أنّه لم ينس الخطط العديدة الّتي وضعتها للهروب وقد

دأبت على التّفاخر بها أثناء وجودي في الجناح العنيف. وعلى الرّغم من أنّني منحت حرّية كبيرة خلال أشهر أبريل ومايو ويونيو من عام 1903، إلّا أنّني لم أتمكّن حتى يوليو من التّمتع بما يطلق عليه الإفراج غير المحدود الّذي مكّنني من التّمشية في جوار المدينة دون رقابة. لقد منحت امتيازاتي تدريجيّا بحيث لم يكن هذه الاختبارات الأوّلية لاستعادة الحريّة، على الرّغم من أنّها كانت مبهجة ومثيرة للغاية كما يمكن أن يتصوّر المرء. لقد كنت أعتبر كلّ شيء عاديّا، فيما عدا عندما كنت أقوم بتحليل مشاعري بشكل متعمّد، حيث كنت بالكاد أشعر بحرماني السّابق. لقد ساهمت هذه القوّة في نسياني للماضي- أو تذكره فقط بإرادتي- كثيرا في سعادتي.

بعض الّذين عانوا من تجارب مثل تجربتي عرضة للاكتئاب، ولا يسعني إلّا أن أعزّي مناعتي السّعيدة من الذّكريات غير السّارة إلى حقيقة أنّني قد نظرت إلى حالتي بقدر ما قد ينظر الطّبيب إلى مريض. ماضيّ هو شيء منفصل. يمكنني تفحّص هذه المرحلة منه في ضوء الإدراك الواضح والمريح، ووضعه تحت ذاكرة مجهريّة. علاوة على ذلك، فقد تمّ تعويضي بالاعتقاد بأنّ لديّ مهمة متميّزة في الحياة- فرصة لفائدة لم تكن تتاح لي مطلقا لو كنت متمتّعا بصحّة سليمة أو حريّة مستمرّة.

لقد كانت الأشهر القليلة الماضية من حياتي في المستشفى متشابهة إلى حدّ كبير، باستثناء أنّ كل واحد منها قد أفلح في جلب قدر متزايد من الحريّة. لقد مرّت ساعاتي بسعادة، ولم يمرّ الوقت بطيئا، لأنّني كنت مشغولا بمغامرة في كلّ دقيقة منه. كنت أرسم، أقرأ، وأكتب، أو

أتحدّث. إذا كان ثمّة أيّ شعور مهيمن عليّ حينها، فهو الشّعور بالفنّ، حيث قرأت بنهم عن تقنيات هذا الموضوع. من الغريب كما يبدو، أنّني في اللّحظة الّتي وجدت فيها نفسي مرة أخرى في عالم الأعمال، تلاشت رغبتي في أن أصبح فنانا بشكل شبه مفاجئ مثلما ولدت. وعلى الرّغم من أنّ طموحي النّفسيّ كان بشكل واضح ثمرة لحالتي غير الطّبيعية، وضعف عندما عدتُ إلى طبيعتي نفسها، فإنّني أميلُ إلى الاعتقاد بأنّني حتّى الآن كنت سأهتمّ اهتماما حيويّا بدراسة الفنّ لو كنت في وضع يجعلني محروما من الاختيار الحر لأنشطتي. لقد كان استخدام الكلمات لاحقا يأسرني لأنّه مناسب جدّا لأهدافي.

خلال صيف عام 1903، كان الأصدقاء والأقارب يأتون لزيارتي. كانت المحادثات الّتي أجريناها ذات فائدة عظيمة ودائمة بالنّسبة إليّ. وعلى الرّغم من أنّني قد تخلّصت من أوهام العظمة الأكثر تفاهة واستحالة كآلات الطيران وما شابه كنت ما أزالُ أناقش بشدّة وباقتناع مخطّطات أخرى، وهي على الرّغم من ارتباطها بأوهام العظمة، كانت في الحقيقة أكثر ارتباطا بالعقلانيّة ذاتها .

كان حديثي من ذلك النوع المترفع، ولكن ربما من النّوع المريب الذي يتغلّب فيه الخيال على الحسّ الإدراكيّ. فقد جعلت الأوهام العالقة، والّتي استمرّت لفترة طويلة، من المشاريع الكبيرة سهلة. وكان يمكن تحقيقها في ظلّ ظروف معينة، كما اعترف مستشاريَّ. إلّا أنّي كنتُ في عجلة من الأمر غير طبيعيّة لتحقيق نتائج. وهو عمل أدركت لاحقا أنّه لا يمكن إنجازه في أقل من خمس سنوات أو عشر، إذا لم يكن على مدار العمر، وقد اعتقدت أنّه يمكن تحقيقه خلال سنة

أو سنتين بمفردي. ولو أنّني لم يكن لديّ أي أشخاص غير متوازنين عقليا للتحدث معهم، ربما كنتُ سأظلُّ أتمسّك بهذا المنظور المشوّه. لقد كان إجماع الآراء العاقلة هو ما ساعدني على تصحيح آرائي. وأنا على ثقة من أنّ كلّ حديث مع الأقارب والأصدقاء قد سارع في عودتي إلى طبيعتي.

على الرّغم من أنني لم أخرج من المستشفى الحكومي حتى العاشر من سبتمبر عام 1903، إلّا أنني خلالَ الشهر السابق قمت بزيارة منزلي عدة مرات، في كل مرة ثلاثة أيام. لم تكن هذه الرحلات مثيرة للاهتمام فقط لكنّها ثابتة التأثير، إذ عدتُ عن طيبِ خاطر إلى المستشفى عندما انتهت مدّةُ الإفراج المحدود. على الرغم من أن العديد من الأصدقاء عبروا عن دهشتهم من هذا الاستعداد للدخول مرة أخرى إلى مؤسسة واجهت فيها الكثير من الصعوبات، إلّا أنَّ عودتي المؤقتة لم تمثل بالنسبة إليّ أقل قدر من القلق. فيما أنني قد قمت باختراق فغزوتُ أسرار ذلك الجانب المظلم من الحياة، لوم يعد ثمّة بدٌّ من إيذاء نفسه بالنسبة إليّ. يمكنني أن أتأمّل المستقبل بدرجة كبيرة من الرّضا عن النّفس أكثر ممّا يمكن لبعض أولئك الّذين كانوا محظوظين في الحياة بشكل مطّرد. في الواقع، لقد قلت في ذلك الوقت، لأنني كنتُ سأدخل مجددا إلى مستشفى علاج الأمراض العقليّة إذا تطلّب الأمرُ ذلكَ، تماما كما يرغب الشّخص العاديّ في دخول مستشفى لعلاج الأمراض الجسديّة. لقد قلت ذلك عندما امتزجت علامة الرّضا عن النفس بالثقة فيها، ودون أيّ انتقال حادّ، بدَأت الحياة مرّة أخرى تدبُّ في عالمي القديم من الرّفقة والأعمال.

الفصل الثامن والعشرون

بقيت في المنزل للمرّة الأولى منذ استعادة حريتي. كانت هذه الأسابيع مثيرة للاهتمام، وما مرَّ يوم واحد دون أن أقابل العديد من الأصدقاء والمعارف السّابقين الّذين رحبوا بي كشخص نهض من بين الأموات؛ وقد يكونون محقّين، بالنّسبة إلى رحلتي الّتي استمرت ثلاث سنوات بين العالمين- وليس حول العالم- وكانت موحية بالانفصال التّام عن الحياة اليوميّة للنّاس.

كانت إحدى الانطباعات العميقة الّتي تلقّيتها أثناء هذا الوقت هو الكياسة المطّردة للشّعور الّذي أبداه المهنّؤون لي من ذوي النّوايا الحسنة. وفي كلِّ الحالات أستطيعُ التّذكّر أنّه كان إشارة مباشرة إلى طبيعة مرضي الأخير، إلى أن أوضحت لأوّل مرة بعض الملاحظات الّتي تشير إلى أنّني لست رافضا الخوض فيها. كان هناك جهد واضح من جانب الأصدقاء والمعارف لتفادي الموضوع الّذي يفترضُ من الطّبيعي أنّني رغبت في نسيانه. مع العلم أنّ تجنبهم المدروس لموضوع حسّاس كان مستوحى من تفكير فيه مراعاة لمسألة معيّنة، فبدلا من عدم الاهتمام، فرضت بثبات المحادثة لإرضاء فضول مكبوت، لكنّهُ فضول مناسب تماما، ونادرًا ما أخفقت في اكتشاف وجوده. وأعتقد أنّ قراري بالوقوف على الماضي ومواجهة المستقبل قد ساهم كثيرا في سعادتي، وأكثر من أي شيء آخر، مكّن أصدقائي من رؤية ماضيّ كما أفعل أنا نفسي من خلال الإشارة صراحة إلى مرضي. أرحت

أصدقائي ومعارفي، وخلّصتهم بضربة واحدة من هذا القيد الّذي يجب على المرء الشّعور به في وجود شخص معرّض دائما لخطر الأذى من خلال فرصة التّلميح إلى حدث غير سعيد. ربّما قلت الكثير عن موقف العامة تجاه أولئك الذين ينجون من مثل هذه الفترة في المنفى، ويستعيدون عافيتهم، ولكن يظلّون موصومين بالشّكّ الّذي يمكن للوقت فقط أن يمحوه. فعلى الرّغم من أنّ المريض السّابق في تلك المؤسسات يتلقى عناية شخصية، إلّا أنّه يجد صعوبة في الحصول على وظيفة.

لا يمكن لأيّ عقل ذي نزعة عادلة أن يجد خطأً في هذه الحالة، لأنّ الرعب المتأصّل من الجنون يؤدّي إلى عدم الثّقة بمن يعاني من انهيار عقليّ، على الرّغم من أنّه سلوك خاطئ. ربّما يكون أحد أسباب هذا الانعدام في الثّقة راجعا إلى انعدام الثّقة الّذي يشعر به المريض السّابق نفسه. فالثقة تولّدُ الثّقة، ويجب على أولئك الرّجال والنّساء الّذين نجوا من المرض العقليّ أن يقضوا على مشكلتهم كما لو أنّ غيابهم كان بسبب أيّ ظرف من الظّروف العديدة الّتي تقطع مسار الشّخص المهنيّ الذي كان عقله سليما. أستطيع أن أشهد على فاعلية هذا المسار، لأنّه هو الذي قمت بإتباعه. وأعتقدُ أنني قد وصلتُ حتّى الآن إلى درجة مناسبة من النّجاح كما توقّعتُ، كما لو أنّ حياتي المهنيّة لم تنقطع مطلقا.

لقد خرجتُ من مستشفى الدولة في سبتمبر 1903، وفي أواخر أكتوبر من نفس العام ذهبت إلى نيويورك. كان هدفي في المقام الأوّل هو دراسة الفنّ. حتّى أنّني ذهبت إلى حدّ جمع المعلومات المتعلّقة

بالعديد من المدارس الفنّية، ولو كان لديّ طموح فنّي، ربّما كنتُ قد واصلت العلم من أجل الحصول على التّقدير في مجال ما حيث يجاهد الكثيرون عبثا. لكن سرعان ما اكتسبت غريزتي التّجارية سيطرتها الّتي أعادت أجواء نيويورك تنشيطها، وفي غضون ثلاثة أشهر حصلت على منصب في ذات الشّركة الّتي عملت بها عندما ذهبت إلى نيويورك للمرّة الأولى قبل ستّ سنوات. لقد كانت هذه هي الفرصة الوحيدة الّتي جعلتني أقوم بأسعد العلاقات العمليّة حظّا.

دون أيّ قدر من خيالي المرن هل كنت أستطيع الآن حتّى أن أتصوّر موقفا من شأنه أن يوفّر لي في ذات الوقت، وسيلة لكسب العيش، وأوقات فراغ من خلالها أشبع شوقي لكتابة تجربتي، وفرصة للاستمرار في مشروعي الإنسانيّ.

على الرّغم من أنّ الأشخاص من خرّيجي مستشفيات الأمراض العقلية عادة ما يكونون قادرين على الحصول على عمل من دون صعوبة كبيرة، كعمال غير مدرّبين، أو في وظائف تكون ذات مسؤوليّة طفيفة، إلّا أنّه غالبا ما يكون من المستحيل بالنسبة إليهم الحصول على وظيفة تتطلب الثّقة. خلال المفاوضات الّتي أدت إلى حصولي على عمل،لم أكن أتوسّل. كنت عكس ذلك تماما، وكما تعلّمت منذ ذلك الحين، فرضت شروطا مؤكدّة تتمثّل في كونِ أقلّ درجة من الوقاحة في التعامل سوف تؤدّي إلى نهاية المفاوضات مباشرة. لكنّ الرجل الّذي كنت أتعامل معه لم يكن فقط ذا عقل متفتّح، بل كان حكيما، وأدرك على الفور هذه القدرة على الاعتناء بمصالحي الخاصة الّتي ستكون بمثل القدرة ذاتها على حماية هؤلاء الّذين يعملون في

مؤسّسته. لكنّ هذا وحده لم يكن ليجبر رجل الأعمال العاديّ على توظيفي في ظلّ هذه الظّروف. كان المنطق السّليم والسّلوك العقلانيّ لصاحب العمل تجاه مرضي العقليّ هو الذي حدّد المسألة.

هذه الرؤية، الّتي هي في الواقع استثنائيّة اليوم، سوف تكون في يوم من الأيّام (في غضون بضعة أجيال، أعتقد) شائعة جدّا بشكل يستحقّ الذّكر. كما عبّر هذا الرّجل عن ذلك قائلا: «عندما يمرض الموظّف فإنّه سيكون مريضا، ولا فرق عندي بين الذهاب إلى مستشفى عام أو إلى مستشفى عقليّ. إذا وجدت نفسك بحاجة إلى العلاج أو الرّاحة فيمكنكَ الذّهابُ إلى المستشفى في الوقت الذي تريدهُ أو المكان الّذي تفضله، وبوسعكَ العمل معنا مرّة أخرى عندما تكون قادراً».

لقد تعاملت مع المصرفيّين بشكل حصريّ تقريبا، وكانت تلك طبيعة عملي، لقد استمتعت بالكثير من وقت الفراغ وقمتُ باستغلالهِ في القراءة ومحاولة تعلّم كيفية الكتابة، كما استمتعت بها عندما كان لديّ دخل مادي ثابت مكّنني من تكريس وقتي بالكامل لمتابعة هذه الممارسة. وبالفعل، فقد أثبتّ ذاتي في عملي، ووجدتُ العديد من الأماكن الّتي قمت بزيارتها، لدرجة أنّني ربما صنفت تحت بند «سائح تجاريّ» أكثر من كوني «مسافرا تجاريّا». بمشاهدة جميع العجائب الطّبيعية تقريبا والأماكن ذات الأهمّيّة التّاريخية شرق المسيسيبي، والعديد منها في غربه، والالتقاء بالرّجال والنّساء ومعرفتهم، والاستمتاع بقضاء وقت فراغ بلا انقطاع تقريبا، وكسب رزقي في نفس الوقت - فقد أتاحت لي هذه المزايا الشّعور بأنّني حصلت على المنصب الّذي أشغله، في ذلك الوقت، الاستمتاع بواحدة من تلك التّعويضات النّادرة الّتي يمنحها القدر أحيانًا لمن ينجون من محنة غير عاديّة.

الفصل التاسع والعشرون

بعد أن صرت رجلا حراً مرّة أخرى، لم يتخلّ عقلي عن التفكير في الأشخاص البائسين الذين تركتهم ورائي. لقد فكرت برعب هدّدَ سلامتي العقلية وأصابني بالحيرة عند كلّ منعطف. لقد نظرتُ دون حقد تجاه أولئك الّذين كانوا مسئولين عني، ولكني نظرتُ بامتعاض إلى النظام الذي عوملت به. لكنني أدركت أنّه لا يمكنني النّجاح في الدّعوة إلى الإصلاحات في إدارة المستشفيات حتى لو أثبتُّ لأوّل مرّة للأقارب والأصدقاء قدرتي على اكتساب لقمة العيش. وعرفت أنّه بعد الحصول على منصب في عالم التّجارة، سيكونُ عليّ أن أقوم بإرضاء أرباب عملي قبل أن أتمكّن من إقناع الآخرين بالانضمام إليّ في تقديم دعوة الإصلاحات الّتي كنت أعمل عليها بالأساس.

ونتيجة لذلك، خلال السنة الأولى من نشاطي التّجاري المتجدّد (عام 1904)، قمت بتعليق مشروعي الإنسانيّ ومنحت كلّ طاقتي التنفيذيّة لواجبات عملي. خلال النّصف الأوّل من ذلك العام، أعطيت القليل من الوقت للقراءة والكتابة، ولم أعط شيئا على الإطلاق للرّسم. لكن بشكل مبدئي، قمت في بعض الأوقات بمناقشة مشروعي مع أصدقاء حميمين، لكنني تحدثت عن اكتمالها كشيء من المستقبل غير المؤكد. في ذلك الوقت، وعلى الرغم من ثقتي

في تحقيق غايتي المحددة، فقد كنت أعتقد أنّني يجب أن أكون محظوظا إذا تمّ نشر كتابي المتوقّع قبل أن أبلغَ الأربعين. لقد كنت قادرا على نشره قبل ثماني سنوات، بسبب من تلكَ الظروف التي تتسببُ أحيانًا في تغيير سريع في الخطط.

في أواخر خريف عام 1904، احتجزني مرض طفيف لمدّة أسبوعين في مدينة تبعد مئات من الأميال عن المنزل. لم يؤثر المرض بحد ذاته كثيرا، على حدّ حلمي ولم يكن له تأثير مباشر على النتائج اللّاحقة، إلا في إعطائي إجازة قسرية، أتاحت لي قراءة العديد من الكتب العظيمة في العالم. كان أحد تلك الكتب رواية «البؤساء» التي تركت انطباعا عميقا فيّ، إذ أميل إلى الاعتقاد إنّها بدأت بمثابةِ التدريب على أفكار نمت تدريجيا فاستوعبتها كلّيا، حتّى أنّها غمرتني كلّيًا، إذا لم يكن خيالي النشط قد ركن إلى فطرة سليمة أخرى، فإنّ نداء هوجو من أجل المعاناة الإنسانيّة– من أجل العالم البائس– قد ضرب كلّ وتر حسّاس بداخلي. ليس فقط لأنّه قام بإنعاش رغبتي الكامنة لمساعدة المنكوبين، بل فعل أكثر من ذلك. لقد أثارت فيّ رغبة مستهلكة في محاكاة هوجو نفسه، من خلال كتابة كتاب من شأنه أن يثير تعاطفا واهتماما بتلك الفئة التّعيسة التي شعرت بواجب التّحدّث نيابة عنها. أتساءل عمّا إذا كان أيّ شخص على الإطلاق يقرأ «البؤساء» بشعور أكثر حرصا. كنت قد قرأت في النّهار الرّواية حتى أصابني ألم في رأسي، وفي المساء حلمت بها.

أن تعتزم تأليف كتاب شيء، وأن تكتبه – لحسن حظ الجمهور– شيء آخر تماما. فعلى الرّغم من أنّ كتابتي للرّسائل كانت أمرا سهلا،

إلا أني اكتشفت أنني لم أكن أعرف شيئا عن اليقظة أو أساليب تأليف كتاب. وحتّى أثناء ذلك لم أحاول التكهن بالوقت الذي يجب أن أبدأ فيه بكتابة قصّتي على الورق. ولكن بعد شهر، كان أحد أعضاء المؤسسة التي استخدمتني قد أسدى ملاحظة كانت بمثابة حافز مفاجئ. ذات يوم، أثناء مناقشة وضع العمل معي، أبلغني أنّ عملي قد أقنعه بأنّه لم يرتكب خطأً في إعادة توظيفي. بالطّبع كنت مسرورا. كنت قد حصلت على حكمة لصالحي في وقت أقرب ممّا كنت آمل فيه. بصرف النّظر عن التّقدير ومجاملته، الّتي جاءت في وقت لم أهتمّ بالحصولِ عليها. حتّى بعد مرور أسبوعين، كانت قوّة ملاحظاته لها تأثيرها الغريب على خططي. خلال هذا الوقت، اخترقت على ما يبدو جزءا من العقل الباطن لي- وهو جزء، في مناسبات سابقة، كان قد فرض عليّ سلطة مثل هذه الّتي تهيمن على كياني كلّه. ولكن، في هذه الحالة، يبدو أنَّ الجزء الذي أصبح مهيمنا لم يمارس تأثيرا جامحا أو حتّى غير مرغوب فيه. كنت أمتلئ بالاهتمام بشؤون عملي في أسبوع، وفي الأسبوع التّالي لم أفقد الاهتمام فقط، ولكنّي بدأت أمقتها.

تحوّلتُ من رجل أعمال واقعيّ إلى رجل ممتلئ بفكرة تحسين وضع المجانين البؤساء، وإنهاء معاناتهم.

وبالسّفر في هذا المستوى العالي من النّزعة الإنسانية المثاليّة، فإنّني لم أستطع الحصول إلّا على رؤية مشوّهة ومحدودة عن الحياة الّتي يجبُ أن أقودها إذ كنتُ أكرّسُ وقتي المتخلّف نسبيا لفائدةِ الأعمال التجارية. لذا كان لا بدَّ أن أركّز انتباهي على مشروعي الإنسانيّ. خلال الأسبوع الأخير من ديسمبر، سعيتُ إلى الحصول على ذخيرة

عن طريق القيام بزيارة اثنين من المصحّات الّتي كنت في الماضي نزيلا فيها. ذهبت إلى هناك لمناقشة مراحل معيّنة من موضوع الإصلاح مع الأطباء المسؤولين. استقبلت بأدب واستمع إليّ بدرجة من الإذعان الّذي كان في الواقع مرضيًا.

وعلى الرّغم من إدراكي أني كنت شديد التركيز على موضوع الإصلاح، إلا أنني كنتُ أفتقرُ إلى تلك الفطنة في حالتي العقليّة التي كانت متمثّلة لدى الأطباء. في الواقع، أعتقد أنّ الخبراء فقط، لاحظوا أثناء الكشف عن أعراض الحالة النفسية المضطربة كلَّ شيء غير عادي بخصوصي في ذلك الوقت. كنتُ فقط أخونُ الضّغوط غير الطّبيعية للشعور أثناءَ مناقشتي لمشروعي الإصلاحيّ الأثير. كان يمكنني التّحدث بشكل مقنع عن الأعمال كما كنت أفعل في أيّ وقت في حياتي، حتّى في ذروة هذه الموجة من الحماس: تعاملت مطوّلا مع مصرفيّ معيّن وقّع أخيرا عقدا كبيرا مع أرباب عملي.

بعد التّشاور مع الأطبّاء، أو بالأحرى- كما أثبت- عرضتُ نفسي عليهم ثمَّ عدتُ إلى نيو هيفن وناقشتُ مشروعي مع رئيس جامعة ييل. لقد استمع إليّ بصبر- كان بالكاد يستطيع أن يفعل غير ذلك- وأسدى لي أكبر معروف بإبداء توجيهاته في الوقت الّذي ربما أخطأ فيه. أخبرته أنني أعتزم زيارة واشنطن على الفور للحصول على مساعدة الرّئيس روزفلت والسيد هاي وزير الخارجيّة. ونصحني السيد هادلي بعدم التوجه إليهم إلا بعد أن أثبتَ جدوى أفكاري بشكل أكثر دقّة. وكان عليّ الأخذ باقتراحه الحكيم. في اليوم التّالي ذهبت إلى نيويورك، وفي الأول من يناير عام 1905 بدأت في الكتابة.

وفي غضون يومين كنت قد كتبت حوالي خمس عشرة ألف كلمة- في معظمها حول موضوع الإصلاحات وكيفيّة تأثيرها.

احتوت واحدة من الوثائق التي أعددتها في ذلك الوقت على فقرات كبيرة كانت تنذر بالأحداث القادمة- رغم أنني كنت جاهلا بالحقيقة.

لقد قلتُ في كتابتي عن مشروعي التّالي: «سواء كنت أداة الرب أو لعبة بيد الشيطان، فإنّ الوقت وحده سيخبرنا، ولكن لن يكون هناك أيّ إجابة خاطئة للوقت إذا نجحت في القيام بعُشرِ الأشياء الجيّدة التي آمل في إنجازها.. أيّ شيء مناسب في هذا العصر الخيّر يمكن بسهولة أن يوضع موضع التّنفيذ..

قد يعتقد المستمع أنّني آمل في القيام بعمل يتطلب مئة عام خلال يوم. لكنهم مخطئون هناك، لأنني لا أحب العمل على هذا النّحو. لكني رغم ذلك أودّ أن أجذب اهتمام عدد كبير من الناس لإنجاز هدفي بأنّ العمل الّذي يستغرق مئة عام قد يتمّ في جزء صغير من ذلك الوقت.

إنّ التعاون المخلص يحقّق نتائج سريعة، وبمجرد أن تبدأ موجة الحماس في الاندفاع في بحر الإنسانيّة، ونتيجة لوجود مشروع إنساني ذي اتساع كبير كقاعدة لهذه الموجة/ فسوف تسير بقوة لا تقاوم واندفاع مستمرّ إلى أقاصي الأرض- وهو ما يكفي إلى حدّ بعيد.

ووفقا للطبيب، فإنّ العديد من أفكاري فيما يتعلّق بحلّ المشكلة قيد النّظر هي سابقة بسنوات وسنوات عن هذا العصر. وأنا أتّفق معه، ولكنّ هذا ليس سببا يجعلنا لا نضع «العصر» على متن قطار

التّقدم السريع ونمنح الحضارة دفعة إلى مستوى أعلى، حتى نصل أخيرا إلى مرحلة يكون فيها الأداء مرادفاً للكمال».

قلتُ في إشارة إلى تحسين الظّروف: «وهذا التحسّن لا يمكن أن يتحقّق دون تنظيم مركزي عن طريق أفضل وسيلة يمكن من خلالها بلورة أفضل الأفكار في العالم ونقلها إلى أولئك المسؤولين عن هذا الجيش من البؤساء. يجب وضع الأساليب الّتي سيتمّ استخدامها لتحقيق هذه النّتائج على نفس المستوى المرتفع مثل الفكرة ذاتها. لا يجب اللّجوء إلى الصحافة الصفراء أو غيرها من الوسائل المثيرة. دعوا هذا الشيء يتم العمل عليه بسرية وبثقة في عدد قليل من الرجال الذين يعرفون ما يفعلون. وعندما يتم صياغة أفضل خطة لتحقيق النتائج المرجوة، ويتمّ الحصول على رجال المال لدعم الحركة حتى يمكن أن تعتني بنفسها، يمكن الإعلان بطريقة كريمة وفعالة عن المنظمة وأهدافها للمجتمع، واسمها الذي يجب أن يطلق عليها، قرّر في وقت لاحق.. لبدء الحركة لن يتطلب الكثير من المال. لأنها ستبدأ بشكل متواضع ومع زيادة الموارد المالية للجمعية، سيتم توسيع المجال. إنّ الإساءات والتصحيح هي مجرد تفاصيل في المخطط العام.ومن المبكر جدًّا محاولة إثارة اهتمام أيّ شخص في هذا المخطط بالقيام بمنع الأعطال، حيثُ أنَّ هناك أشياء أخرى أكثر أهمية يمكن طرحها أولا – ولكنّها ستأتي بالتأكيد في الوقت المناسب». وواصلت قائلا :

كان لكتاب «**كوخ العم توم**» أثره على مسألة عبودية العرق الزنجيّ. فلماذا لا يمكن تأليف كتاب يقوم بتحرير العبيد الّذين لا

حول لهم ولا قوة من جميع العقائد والألوان المحبوسين اليوم في الملاجئ والمصحات العقلية في جميع أنحاء العالم؟ أي تحريرهم من الإساءات غير الضرورية التي يتعرضون لها الآن. أعتقد أنّ هذا الكتاب يمكن كتابته وأنا واثق من أنّه قد يسمح لي بالعيش ما يكفي من الوقت لكي أقوم بكتابته. مثل هذا الكتاب قد يغيّر موقف الجمهور تجاه أولئك الّذين هم سيئوا الحظّ بما يكفي لجعل وصمة عدم الكفاءة العقلية تلحقه بهم. بالطبع، الرجل المجنون هو رجل مجنون بطبعهِ ويجب وضع المجانين في مصحّة للعلاج. عندما يخرج ذلك الرجل، عليهِ أن يكون خاليا مما يشوبه من عيوبٍ مثله مثل الرجل الّذي تم علاجهُ من مرض معدي ليعود ويأخذ مكانه مرة أخرى في المجتمع.

واختتمت حديثي قائلًا: «من وجهة نظري العلمية، هناك مجال كبير للبحث.. ألا يمكنُ اكتشاف بعض الأسباب وربما التّخلّص منها، وبالتّالي إنقاذ حياة الكثيرين- والملايين بالمال؟ قد يحدث أن يتمّ العثور يوما ما على شيء من شأنه أن يمنع الإصابة بانهيار عقليّ كامل ومستعصي»..

وهكذا كما أوضحت من خلال هذه الاقتباسات غير المراجعة، التي تبدو تنبؤية، ومسهبة، وقد وضعت بوصلتها في مكانها، لتقود لاحقا سفينة آمالي (والتي لم تكن واحدة من سفني الوهمية) إلى قنال آمن، ثم أيّ ميناء آمن بعد ذلك.

ومن خلال التّحول العقليّ خلال هذه الأيام الإبداعيّة في نادي ييل، قمت بكتابة رسائل شخصيّة لأصدقائي الحميمين. وكانت

واحدة من هذه النّتائج غير متوقعة. حيث كانت المساومة علامة تميز الصّديق الذي أرسلت إليه الرسالة، التي قلت فيها إنّني أعتزم الاتّصال برجل من ذوي الثروة والنّفوذ من الّذين عاشوا في نيويورك بهدف اتّخاذ بعض الإجراءات التي من شأنها أن تقود إلى الإصلاح. وكان ذلك كافيا. قام صديقي بإظهار الرسالة لأخي - الّذي كان وصيّا عليّ. فقد عرف على الفور أنّني في حالة إثارة عقليّة. ولكنّه لم يستطع الحكم جيّدا على درجة الإثارة. لأنّه عندما تحدثت معه آخر مرة قبل أسبوع، لم أكن قد ناقشت خططي الكبرى معه. الأعمال التّجارية وأملي في التّقدم في مجال الأعمال كان وقتها هو ما يثير اهتمامي فقط.

لقد تحدّثت مع الرئيس هادلي يوم الجمعة. وذهبت يوم السبت إلى نيويورك. وقضّيت يومي الأحد والاثنين في نادي ييل أكتب، يوم الثلاثاء، وقعت هذه الرسالة البائسة تحت أنظار أخي. في ذلك اليوم اتّصل بي هاتفيّا. ناقشنا الأمر باختصار.لم يكن حميميّا لأنه أعتقد أنني في حالة من الإثارة العقلية. لقد حثّني ببساطة على عدم محاولة إثارة اهتمام أيّ شخص في مشروعي حتّى أعود إلى نيوهيفن وأتحدّث معه. والآن كنت قد قطعت شوطًا طويلا إلى حدّ القيام بدعوة أصحاب العمل لتناول العشاء معي في تلك الليلة في نادي ييل بغرض إبلاغهم عن مخطّطي. هذا ما فعلته، معتبرا أنّه من العدل أن يعرفوا ما بنيتي فعله بحيث يمكنهم الاستغناء عن خدماتي إذا شعروا أنّ خططي سوف تُضعف، بأيّ شكل من الأشكال، فائدتي كموظف لديهم. وأخبرت أخي عن ذلك العشاء، لكنّه ظلّ يحثني على تأجيل أيّ

اجتماع مثلما اقترح حتى أتحدث معه، وعلى الرغم من أنه قد فات أوان إلغاء ارتباط العشاء، فقد وافقت على تجنّب الإشارة إلى موضوعي إن أمكن. وافقت أيضا على العودة إلى البيت في اليوم التّالي .

في تلك الليلة، قام ضيوفي بتكريمي على النّحو المتفق عليه، لمدّة ساعة أو ساعتين ناقشنا ظروف العمل وأموره بشكل عامّ. بعد ذلك، أشار أحدهم بشكل واضح إلى وعدي الضّمني بعدم تحميل نفسي بأعباء موضوع معيّن. حينها قرّرت على الفور أنّه من الأفضل «التّعامل مع الموضوع» بحسم وعرض خططي، وإذا لزم الأمر، إنهاء علاقتي مع الشركة، إذا أصرّ أعضاؤها على جعلي أختار (كما كنت أضعها) بينهم وبين الإنسانية. ثمّ شرعت في الكشف عن مخططي، وعلى الرغم من أنني قد أظهرت مشاعر حاسمة متوقّعة خلال حديثي، أعتقد أنني خلال أيّ وقت الأوقات، لم أتجاوز كما تجاوزت حدود ما بدا أنّه حماسة عاقلة. اتّفق أرباب عملي على أنّ هدفي كان جديرا بالثناء، وأنّه بلا شك يمكنني فعل ذلك، وسوف أتمكّن في النهاية من القيام بالكثير من أجل أولئك الذين تركتهم ورائي في بيئة كنت على دراية بها. كان تحذيرهم الوحيد أنني بدوت في عجلة من أمري. لقد عبّروا عن رأي مفاده أنّ عدمَ عودتي إلى عالم الأعمال بعد فترة طويلة ستمكّنني من إقناع الأثرياء وذوي النفوذ بالمشاركة في مشروعي. وقد ذكر أحدهم ملاحظة مفادها أنني لا أستطيع تقديم تمويل للمشروع، وهو الاعتراض الذي بررته بأنّ كل ما كنت أنوي فعله هو تقديم أفكار لأولئك الذين يستطيعون تطبيقها. انتهى الاجتماع بشكل مرضي، ولم يقدم أرباب عملي أيّ اعتراض شخصيّ

على مواصلة مشروعي إذا أردت، والبقاء أيضا في عملي. لكنّهم حثوني ببساطة على التمهّل، قال أحدهم انتظر حتّى تبلغ الأربعين". عندها اعتقدت أنني قد أفعل ذلك. وربّما كان عليّ أن انتظر طويلا، إذا لم تضعني أحداث اليومين التاليين على الطريق الصّحيح لتنفيذ خططي العزيزة مبكّرا.

في اليوم التّالي، الرّابع من يناير، ذهبت إلى البيت، وكان لي حديث مطول مع أخي في تلك الليلة. لم يساورني الشك في أنَّ شخصًا مثلي قادر على التعامل مع المصرفيّين والتحدث لساعات متالية مع رجل الأعمال دون إثارة شكوكهم بشأن حالته العقلية، كان في موضع شكّ من أقاربه. في الواقع، باستثناء أخي، الذي قرأ رسالتي المثيرة للشكوك بامتياز، لم يكن أيّ من أقاربي منزعجا، ولم يفعل هو أيّ شيء يبدِّد يقيني هذا. بعد اجتماعنا اللّيليّ، غادر واتّجه إلى منزله، حيث أشار أنه سيراني مرة أخرى في صباح اليوم التالي. أسعدني ذلك، لأنني كنت في مزاج يميل إلى الثّرثرة وشغوف لجذب انتباه من يستمع.

عندما عاد أخي في صباح اليوم التالي، قبلت عن طيب خاطر دعوته للذهاب معه إلى مكتبه، حيث يمكننا التّحدث دون خوف من المقاطعة.

وصلت إلى هناك وجلست بهدوء واستعددت للدفاع عن قضيتي بأكملها. وبالكاد بدأت «بفتح النيران» عندما دخل شخصٌ غريبٌ ضخم، قدّمني أخي إليه على الفور. شعرت غريزيا أنها لم تكن مجرد صدفة ظهور هذا الطرف الثالث فجأة. لاحظت عيناي على الفور السروال الأزرق الداكن الذي يرتديه الشخص الغريب بطريقة

تقليديه. كان ذلك كافيا. أصبح الأمر واضحا جدا ولم تكن التفسيرات ضرورية. باختصار، كنت معتقلا، أو معرضاً لخطر الاعتقال. وسأكذب إن قلت إني لم أكن قلقًا، لأنني لم أتكهن بغرض أخي الذكي من جذبي إلى مكتبه. ولكن يمكنني القول، بصدق، إنني كنت أهدأ شخص في الغرفة. كنت أعرف ما يجب أن افعله بعد ذلك، لكنّ أخي والشخص الممثل للقانون كان بإمكانهما فقط التخمين. الحقيقة هي أنني لم أفعل شيئا. بقيت جالسا بهدوء، بانتظار الحكم الذي عرفت أنّ أخي، بقراره المميز، قد أعدّ بالفعل. وبجهد كبير بالنّسبة إلى الموقف، أخبرني منذ ذلك الحين، أنّه كان أصعب تجربه في حياته- أخبرني أنّه في اليوم السابق كان قد تحدث مع الأطباء الذين عرضت نفسي عليهم قبل أسبوع. حيث اتّفق الجميع على أنّني كنت في حالة من «الإثارة». وقد نصحوه بإقناعي بقبول العلاج طواعية في مصحّة، أو أنني سأكون مجبرا على دخولها بالقوة. وبناء على هذه النصيحة، شرع أخي في العمل؛ وكان الأمر رغم ذلك جيّدا، لأنّني على الرغم من أنني أقدر حقيقة كوني لم أكن بأي حال من الأحوال في حالة ذهنية عادية، لم يكن لدي رؤية واضحة وكافية عن حالتي لأدرك أنّ العلاج ودرجة محدودة من الحرّية هي ما أحتاج إليه، لأنّ الاستمرار في الحرّية قد يؤدّي إلى إثارة خيال بالفعل كنت قد تجاوزت حدوده.

لقد أقنعتني بعض الكلمات البسيطة التي قالها أخي عن أنّ الأمر كله من أجل مصلحتي وراحة عقلي، وأنه يجب عليّ التنازل مؤقتا عن حرّيتي، وهو ما وافقت على القيام به. ربما كان وجود مائتي رطل من

العضلات، ممثلين في القانون، هو ما أقنعني بكلمات أخي. في الواقع، لقد وافقت على ذلك بسهولة كبيرة لأنني أعجبت بالطريقة الشاملة، والعادلة، والنزيهة والفنية تقريبا التي أحضرني بها أخي إلى المكان. لأنني أميلُ إلى الاعتقاد بأنه، لو أنني ظننت أنّ إعادتي إلى المصحة وشيكة، كنت سأهرب إلى ولاية مجاورة خلال اللّيلة السابقة. لحسن الحظ، تم إنجازُ العمل الصّحيح بالطريقة الصحيحة في الوقت المناسب. على الرّغم من أنّني كنت ضحية لحيلة ذكية، لم أخدع بعد ذلك ولو للحظة واحدة فيما يخصّ ذلك .

لقد قيل لي بصراحة إنّ العديد من الأطبّاء اتّفقوا على أنني أعاني من «الابتهاج» وأنّه من أجل مصلحتي«يجب» الخضوع للعلاج. لقد سمح لي بالاختيار بين تنفيذ أمر محكمة الوصاية «بإيداعي» المصحّة الحكومية، أو الالتزام طواعية حيث يسمح لي بالدخول إلى المصحّة الخاصّة حيث انتقلت من مرحلة الاكتئاب إلى مرحلة الابتهاج، وتعرضت في وقت لاحق إلى التعذيب. بطبيعة الحال اخترت أفضل النعمتين المخفيتين ووافقت على البدء على الفور بالمصحّةِ الخاصة، وهي المصحّة الذي كنت فيه عندما أفسح الاكتئاب مجالا للابتهاج. لم يكن اختياري بسبب الخوف من الدخول إلى المستشفى الحكومي مرة أخرى. لقد أردتُ ببساطة أن أتجنب الدّعاية التي كانت ستتبع ذلك بالضرورة، لأنه في ذلك الوقت لم تكن قوانين كونتيكت تنصّ على الالتحاق الطّوعي بمستشفيات الدولة. ثمّ أيضا كانت هناك امتيازات معينة عرفت أنني لا أستطيع الاستمتاع بها في مؤسّسة حكومية. وحيث أنني أعدت نفسي إلى مجتمع الأعمال مرة أخرى لم أكن أرغب

في التنازل عن هذا المكسب. وما دام الأطباء اعتقدوا أنّ الفترة التي سأقضيها في مرحلة «الابتهاج» ستكون قصيرة، فقد كان من الحماقة المطلقة الإعلان عن حقيقة صحتي العقلية لأسقط مرّة أخرى فريسة الرّيبة.

لكن قبل البدء في دخول المستشفى قمت بفرض بعض الشروط. أحدها أنّ الرّجل ذا السروال الرسمي يجب أن يسير خلفي بمسافة لا يلحظها أيّ صديق أو معارف عندما يروني أنا وأخي، فقد يشكّون في أنني تحت الحراسة، الشّرط الآخر هو أنّ الأطبّاء في المصحة يجب أن يوافقوا على منحي كلّ ما أطلب، مهما كان تافها، طالما أنّ القيام بذلك بأي حال من الأحوال يؤدي إلى إصابتي. كانت امتيازاتي تشمل القراءة والكتابة لما في قلبي، وشراء هذه الكتب واللوازم الّتي تطلبها مخيلتي. تمّت الموافقة على كلّ هذا، وفي المقابل، وافقت على الخضوع لمراقبة ممرض عندما أذهب إلى خارج حدود المستشفى. عرفت أنّ هذا من شأنه أن يسهم في راحة بال أقاربي، الّذين لا يستطيعون بطبيعة الحال تخليص أنفسهم من الخوف من أنّ شخصا عاديّا جدّا مثلي قد يفكر في مغادرة الولاية ومقاومة محاولات السيطرة عليه. كما شعرت أنّه يمكنني أن أراوغ حارسي، إذا كنت أهتمّ بالفرار، فإنّ وجوده قد ساهم أيضا في «راحة بالي» حيث اعترفت أنّ القدرة على خداع حارسي ستعوض عن الإهانة ذاتها. ثم بدأت في المستشفى، ذهبت برغبة كانت مفاجئة حتى لنفسي. مكّنتني فلسفة مبهجة من تحويل وضع لا يمكن تصديقه إلى وضع يرضيني. لقد أقنعت نفسي أنّني أستطيع الحصول على المزيد من المتعة الحقيقية من الحياة خلال

الأسابيع التي سأقضيها داخل جدارن «التّراجع» عمّا أستطيع في العالم الخارجيّ.

كانت رغبتي الوحيدة هي، الكتابة، الكتابة. كانت أصابعي راغبة بشدة في الإمساك بقلم. كانت رغبتي في الكتابة لا تقاوم، مثل رغبة ثمل في جرعة شراب. وكان فعل الكتابة يمنحني متعة السّكرِ المتألّقة من امتزاج عواطف يصعب تفسيرها.

قد يفاجئ القارئ الذي سبق له أن علم بالمعاملة التي تلقيتها هناك في السابق أن أذهب بهدوء شديد، وبصورة شبه شغوفة، إلى حيث تخاف الشياطين أن تخطو. لم أكن أخشى شيئا، لأنني عرفت الجحيم. بعد أن رأيت الأسوأ، عرفت كيف أتجنب الوقوع في المخاطر التي واجهتها في تجربتي الأولى في هذا المستشفى، الّتي وقعت فيها أو مشيت إليها متعمّدا. كنتُ واثقا أنّني لا يجب أن أعاني من سوء معاملة أو ظلم طالما أنّ الأطبّاء المسئولين سيرتقون إلى تنفيذ اتفاقهم ويعاملونني بإنصاف لا يتغير. وهو ما فعلوه، ويمكن أن يعزى الشّفاء السريع والخروج الجزئي لاحقا إلى هذا السبب. لم يعد الأطباء المساعدون الذين كانوا يتعاملون معي خلال تجربتي الأولى موجودين في هذا المستشفى. كانوا قد استقالوا قبل بضعة أشهر، بعد وقت قصير من وفاة المدير السابق. وهكذا، فقد بدأت بسجل نظيف وخالي من تلك الأحكام المسبقة والتي غالبا ما تؤثر على حكم طبيب المستشفى الذي عالج مريضا في أسوأ حالاته.

الفصل الثلاثون

في أكثر من مناسبة، أتاح لي مزاجي المتقلب أن أعوّد نفسي على شروط جديدة لكن ذلك لم يفدني أبدا أكثر مما فعل في الوقت الذي أكتب فيه ذلك. فبعد أن كنت رجلا حرّا في يوم رأس السّنة الجديدة، يستمتع بملذّات التّجانس الرّوحي في الحياة، وجدت نفسي مرة أخرى بعد أربعة أيّام حبيسا في مصحّةٍ للمجانين.

لم أستمتع أبدا بالحياة في نيويورك أكثر من تلك الأيام الأولى من ذلك العام الجديد. فالتعرض لمثل هذا التّغير الفظ، هو في الواقع شيء كاف لإثارة شعور الاستياء، إن لم يكن اليأس، ومع ذلك، وبغضّ النظر عن الصدمة الأولية للحظة، فإنّ رضائي لم يتضاءل بأيّ شكل من الأشكال. أستطيع القول صراحة إنني كنت أشعر بالرّضاء عن اللحظة التي خطوت فيها مرة أخرى عتبة ذلك «التراجع» مثلما كنت أخطو على عتبة نادي. من كل ما فكرت به خلال الأسابيع المثيرة التي تلت ذلك، احتفظت بسجلٍّ كامل. وفي اللحظة الّتي تقبلت فيها المختوم، قرّرتُ أن أقضي وقتي لتحقيق عمل مفيد. إذ علمت من التّجربة أنني يجب أن ألاحظ حالتي، ولكي يكون لدي سجل تفصيلي لها، فقد زودت نفسي مسبقا بدفاتر للتسجيل. تلك الدّفاتر التي كنتُ ربّما قد سجّلت فيها كلّ أفكاري وأفعالي. الجزء العاقل منّي، الذي

لحسن الحظ كان مهيمنا، أخضع الجزء الجامح مؤقتا إلى نوع من التدقيق والمراقبة العلمية. من الصباح وحتّى المساء سيطرت على خطوات جسدي المضطرب وخيالي الأكثر اضطرابا. وراقبت الأعراض الجسدية والعقلية التي كانت سمة لحالة الابتهاج. راقبت أعراض الشعور بخفة القلب، والإحساس بالرفاهية، نبضي، وزني، وشهيتي، كلّ هذا لاحظته وسجّلته بدقة من شأنها أن تخجل أغلبية الأطبّاء المسؤولين عن الحالات العقليّة في المؤسّسات. لكنّ هذا السّجل للأعراض، على الرغم من دقّته، كان غامضا مقارنة بتحليلي المتهور لمشاعري. مع نقص في ميزة تحليل مزاجي، فقد وصفت نشوة الحياة، والتي في معظمها، تمثلت في نشوة الكتابة. وحتى الآن عندما أعيد قراءة مذكراتي، أشعر أنّني لا أستطيع المبالغة في وصف المتعة التي وجدتها في استسلامي تماما لهذا الدّافع المسيطر. لقد بدا لي أن جودة كتابتي أكبر من النّقد. وكما هو الوضع في حالة الابتهاج، تبدو الأمور جيدة إلى حدّ كبير كما تظهر، فقد تمكّنتُ من تجربة المسرات البارعة الّتي أتخيّل أنّها عبارة عن إثارة لروح المعلّم. وخلال هذا الشّهر من الشّعور بالابتهاج كتبتُ كلمات كافية لملء كتاب تقريبا بحجم هذا الكتاب. وبعد أن وجدت أنّ كلّ مرّة أملأ فيها قلمي المتدفّق بالحبر كانت كافية لكتابة ما يعادل حوالي ألفين وثمانمائة كلمة، احتفظت بسجلّ لعدد المرّات الّتي ملأت قلمي فيها.

لقد قمت بهذه الحسابات الدقيقة إلى أقصى الحدود. كنت أكتب لمدة تسع وخمسين دقيقة، ثم أقرأ لمدة سبع عشرة دقيقة، وقمت بتسجيل تلك الحقائق. وهكذا، في يومياتي وخارجها، كتبت مرارا إلى

أن تخدّرت أطراف أصابعي والإبهام والسبابة. ومع ازدياد هذا الخدر والإرهاق العام لليد، كان هناك تباطؤ تدريجي لدفعاتي الإبداعية إلى أن انعدمت الإنتاجيّة الطّبيعيّة.

قد يتساءل القارئ عن جنوني المزعوم في ذلك الوقت. هل كان لدي أي من هذه الأوهام مستحيلة التنفيذ التي ميزت الفترات السابقة من حالة الابتهاج؟ لا ، ولا واحدة، ما لم يكن التّسرّع غير المعقول لتحقيق طموحاتي يعدّ وهما. لقد كان ببساطة مركزا لاهتمامي. جميع الاعتبارات الأخرى بدت غير مهمة. لقد تضاءل اهتمامي في العمل إلى أن وصل إلى نقطة التلاشي. ومع ذلك، يجب التنويه إلى شيء واحد: لقد تعمدت تخصيص ساعات كثيرة للاطّلاع على شؤون العمل.

كتبت موجزا عن البراهين الّتي استخدمتها في كثير من الأحيان عند التحدث مع المصرفيين، مدركا أنّ إحدى الطرق للتغلب على دافع مسيطر هي تقسيم الاهتمام. وبهذه الطريقة تمكنت من إقناع الأطبّاء بأنّ اهتمامي المكثّف بالأدب والإصلاح سوف يتلاشى من نفسه. لقد كانت الرغبة في إجراء الإصلاحات هي العامل الحاسم عندما قمت بدراسة الوضع بهدوء بهدف تحقيق أفضل استخدام ممكن لاندفاعاتي الكتابيّة.

لقد أقنعتني أحداث الماضي القريب بأنّني لا أستطيع أن آمل في إثارة اهتمام الأثرياء وذوي النّفوذ بمشروعي الإنسانيّ إلى أن أحصل على بعض الخطط المحدّدة لتقديمها إليهم.

فضلا عن ذلك فقد اكتشفت أنّ محاولة الاقتراب منهم مباشرة قد

أزعجت أقاربي وأصدقائي الذين لم يتعلموا بعد الفصل بين النوايا الحالية عن التصرفات السابقة. كنت قد قررت أن أدرّب نفسي على فنّ التأليف حتى النهاية فربما أتمكّن من كتابة قصة حياتي التي تحظى بالنشر. لقد شعرت أنّ مثل هذا الكتاب، بعد الانتهاء منه سيقوم بعمله الخاص، بغض النظر عن مصيري اللاحق. إنّ هناك كتبا أخرى قد تكلمت حتى من القبر. فلماذا لا يتحدّث كذلك كتابي هذا -إذا لزم الأمر؟ مع الإشارة إلى أنني لم أبدأ في القراءة والكتابة فقط، بل شرعتُ في اختبار اندفاعاتي كي أتمكّن من اكتشاف ما إذا كانت جزءًا من كياني، غير الطّبيعي، أو مجرد نزوة عابرة. لقد أدركت أنَّ المشاعر المسجّلة في رسائل كانت صادرة عن رجال ناجحين. رسائل من شأنها أن تضفي علي خبرة وذلكَ من خلال الدفء الكامنِ في عمليّة الكتابة. من شأنه أن يعطيني فكرة عن حقيقة هذه المسألة. في هذا الوقت، كنت قد قرأت العديد من الكتب التي كان يمكن أن تكون بمثابة الأساس لاستنتاجاتي، لكن واحد منها فقط هو الذي كان لدي وقتا لتحليله وذكره في مذكراتي. كان الكتاب هو «ظرف وحكمة إيرل بيكونزفيلد»[15]. وقد نسخت المقاطع التّالية بقلم ديزرائيلي في مذكراتي مع تعليق عليها.

«تذكّر من أنت، وأيضا أنه من واجبك أن تتفوّق. لقد منحتك العناية الإلهيّة الكثير. فكّر بأنك ولدت لأداء أعمال عظيمة». وهو ما فسرته بنفس الروح التي فسّرتُ بها كلمات المزمور الخامس والأربعين

(15) . Wisdom of the Earl of Beaconsfieldi من تاليف بنيامين دزرائلي (1881) الذي شغل مرتين منصب رئيس وزراء المملكة المتحدة وكان روائيا ايضا .ويشتمل الكتاب على مجموعة من كتاباته وخطبه.

في مناسبة سابقة.

«لقد كان هذا الطّموح النبيل الأعلى والأفضل، ويجب أن يولد في القلب، ويرتّب في العقل. وليس لرجل أن يرضى ما لم يتم الاعتراف بسلطته الفكرية من جنسه، ورغبتهم في مساهمته في رفاهيتهم».

«المؤلفون– مبدعو الرّأي».

«الأمور الّتي تبدو أنّها مصائب هي في كثير من الأحيان مصادر للحظّ».

«التغير أمر لا مفرّ منه في بلد تقدّمي».

«المؤلف كيان خاص، مثلما ترسّخَ في الذّاكرة. إنّه مولود مع ميل لا يقاوم، ولا مناص منه، يوجهه إلى البحث البسيط عن المعرفة، أو يدفعه للتّسلّل نحوَ أفق من الخيال العنيف والمتقلّب».

كان ذلك ما كتبتهُ (في اليوم التالي لوصولي إلى المستشفى) كان تشخيصا عادلا لحالتي الّتي أنا عليها اليوم، بافتراض أنّ المؤلف هو الشّخص الذي يحبّ الكتابة، ويمكنه منها بسهولة، حتى لو أنّ ما يقوله ليس له قيمة أدبيّة. وأثبت الماضي أنّني كيان خاص. كنت لسنوات عديدة (سنتين ونصف) أمتلك الرّغبة في تحقيق النّجاح في المجال الأدبيّ. وبشعور كالذي أحسّه اليوم لا يمكن لشيء أن يمنع كتابتي.

إذا اضطررت إلى الاختيار بين النّجاح الأكيد في مهنة التّجارة والنجاح غير المؤكّد في مجال الأدب، فإنّني أودّ عن طيب خاطر، وبثقة، اختيار المجال الأخير.

لقد قرأت الكثير عن كتّاب ناجحين تعلموا كيفيّة الكتابة عن طريق العمل الجاد على أساس أفكارهم. إذا استطاع هؤلاء الرّجال النجاح، فلماذا لا ينجح رجل معرّض لخطر الإفراط في الأفكار والخيال، عندما يبدو قادرا على التّعبير عن هذه الأفكار بإنجليزية مفهومة إلى حدّ معقول ؟ أعتقد أنّه يجب أن ينجح.

لذلك، ودون تأثير، بدأت في الانخراطِ في مسار التّجربة والممارسة التي بلغت ذروتها في غضون بضعة أشهر وأنتجتُ مسودة قصتي الأولى، مدركا بما فيه الكفاية لمزايا الوضع الخالية من المقاطعات المزعجة في عالم الأعمال، واستمتعت بدرجة من الحرية قلما يستمتعُ بها أولئك الذين يمتلكون الحرّية القانونيّة الكاملة والواجبات المصاحبة لها.

عندما كنت أرغب في القراءة والكتابة أو الكلام أو المشي أو النّوم أو الأكل، كنت أفعل الشّيء الّذي أرغبه. لقد ذهبت إلى المسرح عندما حرّكتني روحي للقيام بذلك، مع رفقة صاحبتني، من قبلِ أحد الممرّضين الّذي لعب في مثل هذه المناسبات دور الصّديق.

كان الأصدقاء يأتونَ لزيارتي برغبتهم أو بناء على دعوة منّي لتناول العشاء خارج أسوار «ديري». وخلال أحد وجبات العشاء، حدث شيء ألقى الضّوء على حالتي في ذلك الوقت. فقد كان الصّديق الذي دعوته قد دعا صديقا مشتركا للانضمام إلى الحفل. ولم يكن هذا الأخير قد سمع عن دخولي المصحّة. وبناء على اقتراحي، وافق الصّديق الّذي شارك سرّي على عدم الإشارة إليه إلّا إذا تطرّقت أنا إلى الموضوع أوّلا. لم يكن هناك شيء غريب في حقيقة أنّنا الثّلاثة يجب

أن نلتقي. فقد حدثت مثل هذه الاحتفالات المرتجلة بيننا من قبل بينما كنّا نتناول العشاء كأصدقاء. سوف ننغمس في هذا التّبادل الفكريّ الّذي يحدث عادة بين الأصدقاء الحميمين. وخلال حديثنا، قمت بصياغة المحادثة بحيث تمّ طرح فرضية تكرار مرضي العقلي. وعندها سخر الصديق غير المطلّع من الفكرة. حين توفّرت لي فرصة الإشارة إلى موقفي قلتُ إنّني من المفترض في هذه اللحظة أن أكونَ قد أصبتُ بالجنون، فعلى الأقلّ أنا لست طبيعيّا، وحينَ أتركك ليلا، سأذهب مباشرة إلى المصحّة الّتي كنت فيها نزيلا سابقا، وسأظل هناك حتّى يصرّح الأطبّاء بأنّني تعافيتُ ويمكنني الخروج فماذا تقول؟

«يجب أن أقول إنك كاذب من النوع الممتاز»

كانت هذه إجابته، وابتلعت تلك الإهانة الطيّبة مستمتعًا. فقد كانت، في الحقيقة، مجاملة مشجّعة جاءت في الوقت المناسب. كانت مصدرَ قوّةٍ فشلَ من خلفها في إعطائها أهمّيتها حتّى اضطرّ مضيّفي إلى تأييدِ أقوالي.

إذًا تمكنت من إثارة إعجاب صديق حميم في الوقت الذي كنت أعاني فيه من الابتهاج. فليس من المستغرب أن أقوم بعد ذلك بإجراء مقابلة مع شخص غريب، كانَ أمين صندوق أحد البنوك المحلّية. سألتقيهِ دون أن أنفصلَ عن حالتي الذهنية. وكما تسير مقابلات العمل، سارت هذه المقابلة بشكل ممتاز. دخلتُ غرفة الصّيارفة بينما كان ممرضي المرافق يقف لحراسة الباب. أنا، سجين مستشفى الأمراض العقليّة أقف الآن مع كبير الصّيارفة. لم يكن لهذه المقابلة تأثير على المفاوضات اللّاحقة الّتي أدّت إلى إبرام عقد يصل إلى مائة

وخمسين ألف دولار. وفي ذات اليوم الّذي دخلت فيه المستشفى، توقفت على الطّريق في فندق محلّيّ واشتريت بعض الأدوات من مكتبة الفندق. وباستخدام هذه الأدوات في كتابة الرّسائل الشّخصيّة والعمل تمكّنت من إخفاء حالتي ومكان وجودي عن الجميع باستثناء الأقارب والمقرّبين وعدد قليل من الأصدقاء الحميمين الّذين شاركوني السّر. لقد استمتعت كثيرا في إدارة هذه الحياة المزدوجة الشّرعيّة. فقد احتكم الموقف (ليس عبثا) إلى روح الدّعابة لديّ.

ابتسمت كثيرا باستمتاع عندما أنهيت خطابا بعبارات غامضة كالتّالي: « المسائل ذات الأهميّة تستلزم بقائي حيث أنا الآن لفترة غير محدودة. لقد ظهرت مؤخّرا حالة من شأنها أن تؤخر رحلتي المعنية جنوبا. بمجرد الانتهاء من تعاقد معين سنستأنف العمل مرّة أخرى».

وحتّى يومنا هذا، يعرفُ عدد قليل من الأصدقاء أو المعارف أنّني كنت شبه منفيّ خلال شهر يناير 1905. لم تكن رغبتي في إخفاء الحقيقة، كما صرحت بالفعل، راجعة إلى حساسيّة بشأن موضوع الجنون الذي يعتبرُ تبريرا لمساري المبني بهدف استعادة حرّيتي دونَ حرجٍ من القيامِ بعملي مرّة أخرى.

في غضون شهر من التزامي الطّوعيّ من فبراير، بدأت في رحلة عمل عبر الغرب الأوسط والجنوب، حيث بقيت هناك حتّى شهر يوليو التالي. وخلال هذه الأشهر، شعرت بتحسن كبير وبقيت في صحة ممتازة منذ ذلك الحين.

جاء الانقطاع الثّاني في مسيرتي المهنيّة في وقت تزوّدتُ بقوّة كانت دعامة لي في اعتقادي بأن المجانين صنيعة البشر، وأنَّ الذي من

المحتمل أن يكون مجنونا قد يكون في وسعهِ المحافظة على عقله إذا كان محظوظا بما يكفي لتلقي معاملة طيبة وعلاجًا متميزًا وهو على شفا الفوضى العقلية. ورغم أنّني خلال هذه الفترة التالية من الابتهاج لم أكن أبدا في حالة من التّهوّر مثلما كنتُ حينَ شفيتُ من الاكتئاب في أغسطس 1902، كنت أشعر بالإثارة على الأقلّ للدّرجة التي لو حاول أولئك الذين في السلطة السّيطرة عليّ، لكنت تصرّفت بتهوّر. بالنّسبة إليهم، في الواقع، بصراحة كنت أردّد قولا موجزا صاغته فترتي الأولى من الابتهاج. قلت: «عليكم فقط أن تضغطوا على زرّ الظلم، «وسوف أقومُ بالباقي!». هذا ما قصدته، لأنّ الخوف من العقاب لم يكن ليمنع رجلا واقعا في قبضة شيطان الابتهاج. وكان شعوري بالامتنان يعزز سيطرتي علي نفسي. لقد عاملني الأطبّاء والممرضون بصفتي رجلًا موقّرا، ولذلك لم يكن من الصّعب أن أثبت أنّني كذلك. كانت نزوتي القصوى على الأقلّ تراعي الأدب وهو الذي مكنني من تقبل الإنكار باتّزان عقلي عالي. وباستثناء المقوّيات الخفيفة،لم أتناول أيّ دواء آخر من ذلك النّوع الأكثر فائدة. الشّعور بأنني رغم سجني، مازلت قادرا على تحمّل الالتزامات تجاهَ الآخرين أدّى إلى الإقرار بالتزاماتي المتبادلة، وكانَ مصدرا دائما للبهجة. بإثبات الأطباء لاستحقاقهم لتلك الثقة التي منحتها لهم عند عودتي إلى الصحة، لم أجد صعوبة في اقتناعي بأن تقليصا مؤقتا لبعض الامتيازات كان لصالحي. لقد أظهروا جميعا رغبة ثابتة في منحي الثقة، ووثقت بهم في المقابل.

الفصل الحادي والثلاثون



عند مغادرتي المستشفى واستئناف رحلاتي، كنت على يقين من أنّ أيّ واحدة من عدة مجلات أو صحف كانت سترغب في أن أدير حملتي تحت رعايتها التجارية المثيرة للأعصاب، ولكن أسلوب الأضواء والإثارة في العموم لم يكن يروق لي. تلك الإجراءات الضارة، المنعدمة الكفاءة، والإساءة، والظلم لم تكن فقط تحتاج إلى قطعها بل اقتلاعها من الجذور. لذا فقد أصررت على عزمي تأليف كتاب كأداة للهجوم، التي إذا قطعت وأحرقت على الإطلاق، ستفعل ذلك لفترة طويلة طالما كانت هناك حاجة لذلك. بقدر ما كنت أعرف أنني لا يزال يتعين عليّ تعلم كيفية الكتابة، فقد اقتربت من مهمّتي بتأنّي.

خططت للقيام بأمرين: أولا، بلورة أفكاري عن طريق المناقشة – كأن أقوم بحكاية قصة حياتي كلّما التقيت بشخص خلال رحلاتي شعرت فيه بالثقة، ثانيا، بينما كان موضوع كتابي بتشكل في ذهني، كنتُ أدرب نفسي من خلال قيامي بكتابة بعض الرسائل. لقد قمت بفعل كل من الأمرين – ويمكن لأصدقائي المتساهلين الذين تحملوا وطأة رسائلي المنطوقة والمكتوبة أن يصدّقوا هذا بالتأكيد. لقد خشيت

من أن تكون مملّة، وتردّدت قليلا، ربّما تبدو استغلالا للطّيبة، بسبب اقتناعي الرّاسخ بأنّ المرء في وضع يمكنه من مساعدة الكثيرين كما يحقّ له مساعدة فئة صغيرة من البشر. لذا كتبت عددا من الرّسائل الطويلة للغاية. في الواقع، لقد وجدت صعوبة في تأليفها دون وجود صورة لصديق أمامي. وبعد أن اشترطت أن تعاد إليّ كل رسالة عند طلبها، كتبت دون تحفظ- كان خيالي يتمتع بحريته. لقد كتبت كما كنت أفكّر، وفكرت كما يعجبني. كانت النّتيجة أنه في غضون ستّة أشهر وجدت نفسي أكتب ببراعة لم أحصل عليها حتّى اليوم إلّا خلال فترة إصابتي بالابتهاج.

في البداية، كنت أشعر بالرّيبة من هذه السّهولة والوضوح المستمرين في التّعبير عن حالتي. كنتُ متشككًا جدا لدرجة أنّني قمت بتشخيص أعراض مرضي. أقنعني الفحص الذّاتي الّذي قمت به أنّني كنت في الحقيقة طبيعيّا جدّا.

لم يكن لديّ أي رغبة في الكتابة، ولم يكن هناك ذلك التعالي، أو المرح (من الناحية الفنية) الذي يميز مرحلة البهجة. علاوة على ذلك، شعرت بارتياح لم أعرفه عندما كنت مصابا بالابتهاج بعد فترة طويلة من الكتابة. لذلك، استنتجت- وبحق- أنّ براعتي غير الطبيعية كانت نتاجا للممارسة .

وجدت نفسي أخيرا ذا قدرة على تصوّر فكرة وتحويلها على الورق بشكل فعّال. في يوليو 1905، توصلت إلى استنتاج مفاده أنّ الوقت المناسب لبدء كتابي قد جاء. ومع ذلك، وجدت صعوبة في تحديد تاريخ محدّد.

في هذا الوقت، رتبت رحلتي لدرجة أنني تمكنت من الاستمتاع بقضاء ليلتين في الصيف- على الرغم من العاصفة- ويوم واحد في فندق القمة على جبل واشنطن. ما الأفضل، حسب اعتقادي، البدء في كتابي وأنا على متن طائرة في مثل هذا العلو لتناسب هذه القمة النبيلة؟ لذلك، بدأت في كتابة إهداء. «إلى الإنسانية» لكنه كان فقط القدر الذي وصلت إليه. فقد تركني الإلهام هناك. ولكن بعودتي إلى الأرض واستئناف عملي، سرعان ما وجدت نفسي مرة أخرى وسط أجواء طبيعية ملهمة متمثلة في تلال بيركشاير. في هذه المرحلة، جاء رجل للحصول على مساعدة الطبيعة. كنت قد رغبت طويلا في مناقشة مشروعي مع إنسان يتمتع بسمعة عظيمة، وإذا كانت السمعة دولية، سيكون الأمر أفضل بكثير. كنت أرغب برأي محايد لعقل فطنٍ. من قبيل الحظّ، عرفت أنّ النبيل جوزيف ه. شاتو في مقرّه الصّيفي في ستوكبريدج، ماساتشوستيس. لم يسمع السّيد شاتو عني أبدا ولم تكن لديّ رسالة تعريف أقدّمها له.

غير أنّ مقتضيات هذه المناسبة كانت تطالبني باستحضار واحدة، لذلك كتبت رسالتي بنفسي:

ستوكبريدج، ماس.

18 أغسطس، 1905 .

فخامة السّيد جوزيف ه. شاتو،

ستوكبريدج، ماساتشوستيس.

سيدي العزيز:

على الرّغم من أنّي أقدّم نفسي إلى بابِ بيتكَ مسلحاً بأحد مفاتيح المجتمع غير القيمة – أي رسالة التعريف بي– فأنا أفضل أن أقترب منك كما أفعل الآن: ببساطة، بصفتي شاباً صادقًا يتملّكهُ شعور بأنّهُ يستحقُّ على الأقّل خمس دقائق من وقتك. وأتطلع في هذا الوقت إلى الحصول على رأيكم فيما يتعلق بقيمة بعض أفكاري، وجدوى مخططات معينة تستند إليها. قبل بضعة أشهر تحدثت مع السيد هادلي رئيس جامعة ييل واطلع بإيجاز على خططي، وأقرّ بأن العديد منها يبدو مجدياً. وإذا تم تنفيذه، فسيضيف الكثير إلى مجموع السعادة البشرية. وكان انتقاده الوحيد هو أنّها كانت شمولية للغاية.

ولم يكن الأمر حتّى تعاملت مع نوعية من الخيال العالي لأعترف أنني أحاول فعل الكثير.

إذا رفضت رؤيتي، صدقني عندما أخبرك أنك ستظلّ كما أنت في هذه اللحظة، شخصًا ينال احترامي الصادق دون أن يعلم به .

تجبرني ارتباطات العمل المغادرة في وقت مبكر من يوم الاثنين القادم. إذا كنت مهتما بالتواصل معي، يمكنك ترك رسالة لي في هذا الفندق وستصل إلى على الفور.

وتفضل بقبول فائق احترامي

المخلص. كليفورد دبليو. بييرز.

تلقّيت ردّا في خلال ساعة بأن السّيد **شاتو \ سيراني** في منزله الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. في الوقت المحدد، فتح الباب الذي كان له دور محوريّ بالنسبة إليّ أمامي ودخلت إلى مكان السّيد

شاتو. كان يبدو شخصا رقيقا- لكنّه أشار إلى كومة الرّسائل غير المجابة والموجودة أمامه. فهمت تلميحاته وخلال عشر دقائق كنت قد شرحت خططي بإيجاز. بعد أن أعلن أنّ مشروعي «جدير بالثناء» قدّم السيد شاتو اقتراحا كانت له نتائجه، فقال: «إذا كنت ستقدم أفكارك مكتوبة ورقيًا فسأكون سعيدا بقراءة مخطوطتك ومساعدتك بأي طريقة ممكنة. للنّظر بشكل كامل إلى مخططك فإنّ الأمر يتطلّب عدّة ساعات، والرجال المشغولون لا يمكن أن يعطوك الكثير من وقتهم. ما يستطيعون فعله هو قراءة مخطوطتك أثناء وقت فراغهم».

وهكذا، ساهم السيد شاتو، من خلال منحة المقابلة في تحقيق أهداف وضعتها في وقت سابق، بعد أسبوع واحد بدأت في تأليف هذا الكتاب. كان تصرفي مرتجلا، حيث قدمت استقالتي من بوسطن من أجل عروض أقلّ جاذبية في ورشيستر. ووجدت في ذلك اليوم أنَّ أمامي نصف يوم فقط كوقت فراغ، فقررت إغراء الإلهام وإجبار نفسي على إثبات أنّ قلمي كان في الحقيقة «لسان كاتب مستعد».

ذهبت مغتربًا إلى مدرسة في الكتابة الإبداعية وهناك حصلت على خدمات من شاب على الرّغم من خبرته في مجاله. كان ماهرا في التقاط الأفكار أكثر ممّا كنت أضيعها أنا في ذلك الوقت. فبعد أن شرحت له مهنتي السابقة بإيجاز والهدف الحالي، عملت معه دون أيّ خطة محددة أو موجزة أو حتّى إشارة إلى مراجع للبيانات. لذلك كانت روايتي مبنية على الاستطلاعات فقط ومرتبطة بالترتيب الزمني. لكنّ الأمر ساعد في أن تسهم المواد الّتي أمامي في تشكيل المستقبل. في هذه المهمة، قمت بقضاء ثلاث ساعات أو أربع في اليوم لمدة خمسة

أسابيع. كما حدث، وصلَ السيد شاتو إلى الفندق في نفس اليوم الذي حللت أنا فيه. لقد بقيت حريصا على أن أكون بعيدا عن عينيه، كي لا يعتقدَ أنني« مهوس» بموضوع الإصلاح، عازما على مضايقته أثناء قضاء وقت فراغه. مع تقدّم العمل ازدادت ممارستي للكتابة. في الواقع، سرعان ما طلبت المزيد من الوقت المختزل للمساعدة في بلورة أفكاري. فقد تسببت هذه الإنتاجية الزّائدة في التّوقف مرة ثانية وتشخيص حالتي. لم أفشل في التعرف الآن في نفسي على أعراض بالكاد يمكن تميزها عن تلك التي انتابتني قبل ثمانية أشهر عندما اعتقدت أنه من المناسب تقيد حريتي مؤقتا. لكني كنت قد ازددت حكمة بسبب الشدائد التي تعرض لها. بدلا من مقاطعة كتابة مخطوطتي وعدم كتابتها، قررت أن أستفيد من الحصول على إجازة كانت ضرورية في هذه الحالة، وبقيت خارج ولايتي- وهذا، كي لا يشعر الأقارب بقلق لا داعي له، ولكي أحرّرَ نفسي من القيود المحتملة.

لم أكن على يقين من درجة الإثارة العقلية التي قد تنتج عن مثل هذا الاستخدام الذّهنيّ المتواصل: ولم أهتمّ كثيرا، كما أنني أنجزت مهمتي.ومع ذلك، كما كنت أعرف أنّ **«الامتلاك تسعة أعشار القانون»**[16]، قررتُ الحفاظ على مصلحتي بالبقاء في حصني الأدبيّ. وقويت عزيمتي أكثر من خلال قراءة بعض المشاعر التي عبر عنها جون ستيورت ميل في مقالته «حول الحرية» التي قرأتها وأعدت

(16) . Possession is nine points of the law الحيازة تسعة اعشار القانون وهو تعبير يعني أنه من اسهل الحفاظ على ملكية الشيء إذا كان في حياة الشخص حتى لو لم يكن يملكه قانونا.

قراءتها باهتمام متولّد عن التجربة. في النهاية تمّ الانتهاء من المسودّة الأولى للجزء الأكبر من قصتي. وبعدَ مرورِ الوقت كنتُ مستعدًّا للعودة إلى المنزل مع شعور بالرّاحة. تحملت عبء الالتزام الواعي على مدى شهور، وكانت ذاكرتي ممتلئة بالمعلومات، أعتقد أنّها ستضيء عديد الأرواح الحزينة وتحميها إذا ما استخدمتها بشكل صحيح، تلكَ الأرواحُ التي كانت بالنسبة إليّ مثل سلة ممتلئة بالبيض. حرّرتُ أفكاري من خمولها خلال الأسابيع الخمسة السابقة، وتخلصت من جزء كبير من عبثي إلى درجة أفرضَ ضرورة الاعتراف بها أمام الضّمير العام.

بعد أن عشت أكثر من مرة محن سنواتي الأكثر تعاسة – والتي كانت ضرورية بالطبع في تقليب ذاكرة تحملُ أفراحها – تركني الانتهاء من المسودة الأوّلية مرهقا جدا. ولكن بعد الذهاب إلى نيويورك، حيث ذهبت لإقناع أرباب عملي أنني يجب أن أحصل على إجازة إضافيّة، استأنفت العمل.

كان السبب وراء هذه الخدمة الإضافية هو أن مخطوطتي كانت فجة للغاية بحيث لا يمكن تقديمها إلى أي أحد غير معارفي المقربين. ربما مع علمي، أنّ رجل أعمال لديه شغف أدبي، في هذا الوقت، ولم يكن رجل أعمال على الأقل، لذا وافق أرباب عملي على أنه ينبغي الاستمرار في فعل ما أرغب فيه خلال شهر أكتوبر. لقد اعتقدوا أيضا أنهُ يحق لي الحصول على هذه الميزة، مدركين قوة إيماني بأن لدي التزاما كبيرا نحو القيام بواجباتي قد يدفعني إلى تقديم الاستقالة. والآن صرتُ أقوم بإعداد ورشتي الأدبية تحت إشراف الأسرة. قبل تسعة

أشهر، أرسلني اهتمامي الأدبي والإصلاحي غير المرغوب فيه إلى المصحة. وحيث أنني أصبحت الآن في بيتي قادرا على العمل على مصيري دون إزعاج لا داعي له من قبل أقاربي فقد صار الوضع مريحا. وفي الغرفة ذاتها، والتي خلال يونيو 1903، فقدت فيها عقلي بسبب هدف مجهول، قمت بكتابة قصة مدارها تجربة ذلك العقل.

انتهت إجازتي، واستأنفت رحلاتي بشغف: لأنني كنت أرغب في تهدئة رأسي بالاتصال اليومي بأكثر العقول روعة لرجال الأعمال. ذهبت إلى الجنوب. ولبعض الوقت قمت بإبعاد كل أفكار كتابي ومشروعي. ولكن بعد بضعة أشهر من هذا التغير المهني الذي استمتعت به تماما، وجدت وقت الفراغ أثناء رحلاتي الهائلة لأقوم بأعمال التنقيح والمراجعة. أعددت أخيرا مسودة ختامية أنيقة، وبدأت بتقديمها إلى جميع أنواع العقول ومستوياتها (وفقا لمقولة ميل ، يمكننا الحصول على الحقيقة بهذه الطريقة فقط).

في سعي إلى النقد والنصيحة، قررت أن أقدّم مخطوطتي إلى الأستاذ ويليام جيمس من جامعة هارفارد، أحد أبرز علماء النفس الأمريكيين والكاتب المعروف، والذي كان على قيد الحياة في ذلك الوقت.

لقد أعرب عن اهتمامه بمشروعي، ووضع مخطوطتي مع أخريات على مكتبه، لكنّه كان متحفظا إلى حدّ ما عندما جاء الأمر ليعد بقراءة قصتي. لقد قال إنه قد تمرّ أشهر قبل أن يتمكن من إيجاد الوقت للقيام بذلك. ومع ذلك، في غضون أسبوعين، تلقيت منه رسالة مميزة. لقد جاءت بالنسبة إلي كضوء شمس منقذ، بعد فترة من تلمس طريقة للحصول على رأي رسمي يسكت الساخرين. وكانت رسالته

كالتالي:

95 شارع إيريفنغ، كامبردج، ماس.

1 يوليو، 1906.

عزيزي السيد بيرز:

بعد أن «تجولت» في مسودتك، قرأتها باهتمام كبير للغاية وإعجاب بأسلوبها وأجوائها، وآمل أن تقوم بإنهائها ونشرها. فهي مكتوبة بطريقة جيدة وقد اطّلعت عليها، وقد وضعت إصبعك على نقاط الضّعف المتعلقة بعلاجنا لمرضى العقل واقترحت الخطّ العلاجيّ الصّحيح بلا شك. لطالما اعتقدتُ طويلا أنني لو كنت مليونيرا، لديه المال الذي يسخره للغايات العامّة، فينبغي عليّ حينها التبرع لـ«علاج المرض العقليّ» حصريا، ولا شك أنك كنت شخصية لا تحتمل عندما أصبحت على تلك الدرجة من الهوس وكنت تدير العالم. ليس فقط «ببراعة» عادية، ولكن بعبقرية يمتلكها الدبلوماسيون. كان لا بدّ من وجودها لتجنب النزاع معك، ولكنك بالتأكيد عولجت بطريقة خاطئة، ويستحق مساعد الطبيب الشّرير أن ينشر اسمه. إنّ تقريرك مليء بالإشارات للأطبّاء والممرضين على حدّ سواء. والشيء اللّافت للنظر في ذلك في ذهني هو تحولك المفاجئ من مريض بالوهم إلى مريض بالهوس- كيف تفكك النّظام الوهميّ كلّه في اللحظة التي تبين فيها أنّ أخاك كان شخصا حقيقيا.لم أسمع مطلقا عن تغيّر سريع مماثل في النّظام العقلي. أنت تتحدث عن إعادة كتابة المسودة. إيّاك أن تفعل. لا يمكنك تحسين كتابك أكثر من ذلك. وعليّ الاحتفاظ بمسودتك

لأسبوع آخر لأنني أود تقديمها إلى صديق.

صديقك المخلص. و.م. جيمس.

على الرّغم من أن السيد جيمس قدم لي مجاملة متمثلة في النصح بعدم إعادة كتابة مخطوطتي الأصلية، إلا أنني قمت بمراجعتها كاملة قبل نشرها. وعندما أوشك كتابي على النشر لأول مرة، وحيث كان استقباله من قبل الجمهور يمثّل إشكاليّة، فقد طلبت الإذن بنشر الرّسالة الّتي اقتبستها بالفعل. وردّا على ذلك، أرسل السّيد جيمس الرّسالة التّالية، الّتي كانت للنّشر أيضا.

95 شارع إيريفنغ، كمبريدج، ماس.

10 نوفمبر، 1907.

عزيزي السيد بيرز:

أرحّب باستخدامكم الرّسالة الّتي كتبتها إليكم في (1 يوليو 1906)، بعد قراءة الجزء الأوّل من مسودتكم وبأيّ حال من الأحوال في الحكم لكم، سواء قمتم باستخدامها كمقدّمة أو إعلان عن الكتاب أو أيّ شيء آخر.

إنّ قراءة ما تبقى منها يزيد من أهميتها في نظري. لا أعتقدُ أنَّ هناكَ مشكلة بخصوص الأسلوب والأجواء وذوقها السّليم. أمّا بالنّسبة للمحتويات، فإنّه من المناسب أن يبقى قصّة كلاسيكية من الناحية الأدبية و«من الداخل» دراسة نفسيّة لشخص مجنون. يجب أن ينحو الكتاب تجاه هذا الاصلاح المطلوب بشدة، إنّ تحسّن الكثير من

المرضى العقليّين في بلدنا، بالنّسبة إلى جمعية المساعدة المقترحة من قبلكم، نرى أنّها ممكنة (كما تظهر العديد من الأمثلة في مجالات أخرى)، ويجب أن تعمل على التّأثيرات المهمّة على الوضع برمّته .

لقد تعاملتم مع موضوع صعب بمهارة كبيرة وأنتجت قصّة تستوعب اهتمام العالم وكذلك المواطن العادي.

إنها تقرأ مثل رواية أو قصة، ولكنها ليست خيالا . وأنا أؤكّد لكم بشكل قاطع أنني أدرك كيف يمكن للضعفاء المضلّلين أن يكونوا متشككين في مصداقية تصورات العمليات العقلية غير الطّبيعية .

مع أطيب تمنياتي بنجاح الكتاب والخطة، لكلاهما كل التمنيات، أتمنى أن يصنعا عهد جديدا.

صديقك المخلص.و.م. جيمس

لقد قلت عدة مرات في روايتي إنّ المصير الذي قد يبدو قاسيا وعلى الأرجح قد سرق مني العديد من السنوات السعيدة والصحية قد خبأ بداخله تعويضات عوّضتني عن المعاناة وفقدان تلك السّنوات. ولم تكن أقلّ تلك التعويضات من الرسائل العديدة التي أرسلها إلى رجال ونساء بارزون في المجتمع، من الذين حققوا نتائج في أعمالهم، وكانت أسرع تعويض لأيّ شخص يحاول الوصول إلى هدف صعب. فمن بين كل الأراء المشجعة التي تلقيتها على الإطلاق، كان لأحدها مكانته الخاصة في ذاكرتي. لقد جاء من ويليام جيمس قبل وفاته ببضعة أشهر، وسوف يكون مصدر إلهام لي على الدّوام. واسمحوا لي بالكشف عن هذه الرسالة المجاملة وهي تبرر الآمال

والتطلّعات المعبّر عنها في سياق روايتي.

95 شارع إيرفنغ، كمبريدج، ماس.

17 يناير، 1910.

عزيزي السيد بيرز:

لقد كان تفسيرك لوداعي في ملاحظتي الأخيرة لك خاطئا، لكنّني مسرور لحدوث ذلك، لأنه جعلني أشعر بالامتنان الشديد لرسالتكم بالأمس. إنّك أكثر شخص تجاوبا وإدراكا عرفته من البشر، عزيزي بيرز، إنَّ هذا يفتحُ لي المجالَ بشكل كبير للتّعاملِ معَ رجل عملي على أسس عملية كما تعاملني أنت. إنني أعايش مثل هذا المجال من التجريديات حيث أحصل فقط على التقدير مقابل ما أفعله في تلك الإمبراطورية الطيفية، ولكنك لست فقط شخصا مثاليا وأخلاقيا ومتحمّسا لفعل الخير (وزميل جيد!) ولكنك إضافة إلى ذلك رجل أعمال من الطراز الرفيع، وأن تكون قد قمت بالفعل بعمل شيء يمكن لشبيهك أن يعتبره مساعدة له، لهو قاعدة أساسيّة غير عاديّة معي من أجل إرضاء الذّات. أعتقد أنّ ثباتك على هدفك، وبصيرتك، ولباقتك، وطباعك، ورشدك، وصبرك، هي أبعد من كلّ المديح، وأنا أقدر أنّه لمن الشرف لي أنني كنت على درجة من الارتباط بك. سيلوح اسمك في الأفق الكبير، لأنّ حركتك يجب أن تزدهر، ولكنّ حركتي لن تحيا ما لم يحافظ عليها نوع آخر من جهودي. أنا سعيد للغاية بما أخبرتني عن جمعية كونتكيت. أتمنى لها الازدهار الدّائم!

أشكرك على كلماتك الحنونة التي سأعود بها إلى الاهتمام والاستمرار لسنوات عديدة من هذه الحياة.

صديقك المخلص .و.م.جيمس.

عند هذه النقطة، بدلا من الزوايا المغبرة للمقدمات المعتادة، أودّ أن أعرب عن التزام هربرت ويسكوت فيشر ، الذي عرفته في المدرسة؛ فقد كان الذي قادني لرؤية حاجتي إلى التّدريب الفنّي الذي أهملته في سنواتي المبكرة. لكن، على وجه الدّقة، يجب أن أعترف أنني قرأت الكلام بدلا من دراسته. لقد كان تطبيق القواعد عمليًا يؤدي فقط إلى انصرافي، لذلك كنت أتصفح بخمول صفحات الأعمال التي أوصى بها. لقد أثبت أنّه الوسيلة اللطيفة بين نقيضين من الغرائبي والحميمي، وكنت نبيا دون شرف في نظره فوق ثروة مربكة من الموارد: لقد تربى على تحمل معرفته العملية بصنعة الكتابة، وقد تحسنت صياغتي للأجزاء والمراجعات اللاحقة إلى حد كبير من خلال الممارسة التي تلقيتها تحت إدارته الدقيقة، للدرجة التي لم يكن فيها أي أخطاء يمكن العثور عليها. أن ديني له أكبر من يتم سداده. لا شيء يرضيني أكثر من التعبير عن ديني على وجه التحديد إلى كثيرين قدموا لي المساعدة في إعداد عملي. ولكن إلى جانب توجيه الانتباه إلى حقيقة أنّ الأطباء المرتبطين بالمستشفى الحكومي ومع المستشفى الخاص المشار إليها- التي لم تكن تدار من أجل الرّبح- أظهروا شهامة نادرة (حتّى أنّ أحدهم ذهب إلى حدّ كتابة الرّسائل الّتي ساعدتني في عملي)، علاوة على ذلك، أعترف بنصيحة لا تقدّر بثمن قدّمت لي من قبل الأطباء

النّفسين الّذين مكنوني من جعل عملي موثقا رسميا، ويجب أن أكون راضيا عن الانتهاء من تقديم هذا الاعتراف الشامل. لذلك وبمتعة جلية، أودّ أن أقول إنّ التشجيع المُلح، والمعارف غير الموثوق بهم، واللا مبالاة الملهمة من المقربين غير المقتنعين، والتشكيك اللطيف من الأقارب المتساهلين، الذين لا يمكن أن يفعلوا شيئا غير طاعة قانون غير قابل للتغير.. قد تآمرت لتمنحني مزيدا من التأكيد على تحقيق ما يرغبه قلبي.

الفصل الثاني والثلاثون

«رغبة قلبي» عبارة حقيقيّة. منذ حدث انهياري العصبي منذ عام 1900، اضطر ما لا يقل عن مليون رجل وامرأة في الولايات المتّحدة وحدها ولأسباب متشابهة للسّعي إلى العلاج في المصحّات، وآلاف آخرون عولجوا خارجها، في حين لم يتلقّ الآلاف الآخرون أيّ علاج على الإطلاق. ومع ذلك، فإن استخدم كلمات أحد أكثر الأطباء النّفسيّين المحافظين والمطلعين لدينا، يمكن أن يمنع ما لا يقلّ عن نصف الخسائر الهائلة التي تنتج عن المرض العقليّ لشباب هذا البلد من خلال تطبيق المعلومات والموارد العمليّة المتاحة الآن إلى حدّ كبير في مرحلة الطّفولة.

تدورُ أحداثُ قصّتي في مكان آخر حولَ كيفية التوسّع في خطتي والاتجاه من الإصلاح إلى العلاج، ومن العلاج إلى الوقاية وذلك بالتّعاون مع بعض أخصّائي هذا البلد الأكثر مهارة وأكبر محبين للخير، قد تمّ تحقيقه، على الصّعيد الوطنيّ والدوليّ، من خلال الكلّ الجديد للآلية الاجتماعية المعروفة بالتجمعات أو اللّجان أو الاتّحادات أو جمعيّات الصّحة العقليّة .

ولكنّ الأمر الأهم من أيّ إصلاح فنّي أو علاج أو وقاية– بل في الواقع هي حالة متقدّمة عن كلّ هذا - هو تغيّر الموقف الرّوحي تجاه

المرضى العقليين. إنّهم ما يزالون بشرا: إنّهم يحبّون ويكرهون، ولديهم حس الفكاهة. والأسوأ عادة ما يستجيب إلى اللّطف. في حالات قليلة، يكون امتنانهم أكثر حيويّة من الرجال والنّساء العاديين. أيّ شخص عمل بين المرضى العقليين، وقام بواجبه تجاههم من قلبه، يمكنه أن يشهد على الحالات المذكورة، وحتّى الملاحظون العاديّون قد لاحظوا حقيقة أنّ المريض العقليّ في كثير من الأحيان يشعر بالامتنان. بالنظر إلى تجربة ثاكيراي[17] ، فيما يتعلق به شخصيا في روايته «فانتي فير» (الفصل السّابع). كتب: «أتذكّر، لقد رأيت منذ سنوات، في سجن البلهاء والمجانين، في مستشفى بيستر، بالقرب من باريس، رجلا فقيرا منحنيا لعبوديتِهِ السّجنية وعجزه الشّخصي الذي أعطاه واحدا من جماعتنا جزءًا من السقوط في قمع ورقي أو ورقة ملفوفة. كان العطف أكثر ممّا يحتمل.. فبكى في معاناة من البهجة والامتنان، إذا أعطاك أو أعطاني أحدهم ألف جنيه بالسنة، أو أنقذ حياتنا، يمكننا أن لا نتأثر بذلك». لقد لفتَ انتباهي طبيب مساعد قابلته في مستشفى ولاية ماساتشوستش إلى عرض مثير للإعجاب من المشاعر الطّيبة من جانب مريضة. يبدو أنّها امرأة مهنية، كانت في أسوأ حالاتها وتسببت في قدر من الإزعاج عن طريق الانغماس في أعمال مؤذية بدا أنّها متعمّدة. في ذلك الوقت، وبسبب أنّه لم يكن هناك مراقب يعاملها بحساسية متقنة، أصبحت وبشكلٍ لافتٍ متماثلة للشّفاء، فتم منحها سراحا مؤقتًا ومشروطا في المستشفى من أجلِ التّنزه حينَ ترغب. لذا

(17) . وليام ميكبيس ثاكيراي – روائيا بريطانيا(1811-1863) معروف بأعماله الساخرة ولا سيما التي ترسم المجتمع الانجليزي في تلك الفترة ومن أشهر اعماله رواية (فانتي فير – Vanity Fair).

بعد واحدة من هذه النزهات الّتي كانت في أوائل الرّبيع، أسرعت المرأة إلى المخبر الذي عينته، وأخبرته ببساطة طفولية عن البهجة الّتي شعرت بها عند اكتشافها أوّل زهرة في العام في ازدهار كامل. كانت زهرة هندباء، خاطرت بحياتها بجرأة مميزة من خلال تحدي عناصر موسم غير موثوق فيه.

سألها الطّبيب: «هل قطفتها»؟

قالت المريضة: «لقد انحنيت للقيام بذلك، ثم فكرت في المتعة التي أعطتها لي لذا تركتها، على أمل أن يكتشفها شخص آخر ويتمتع بجمالها كما فعلت».

وهكذا، رغمَ أنّ المرأة ما تزال مريضة عقليا، فقد أظهرت عن غير وعي شعورا أرقى مما فعل روسكين، نيتيسون، وباتمور في مناسبة أكد حدوثها السيد جوليان هوثورن.

اكتشف هؤلاء الأساتذة الثّلاثة، أثناء الخروج للنزهة بعد ظهيرة يوم بارد في أواخر الخريف، زهرة بنفسج تنبت من حجر مغطّى بالطحالب. فانحنى هؤلاء الأشخاص البارزون ملقين تحية للزهّرة ثم استأنفوا نزهتهم. وفجأة توقف روسكين غارسًا عصاه في الأرض صارخا، «أنا لا أعتقد ، يا الفريد-كوفنتري، أن هناك غيرنا نحنُ الثلاثة في انجلترا، قد عثروا على زهرة بنفسج في هذا الوقت من السنة، وكان لديهم صبر كاف ليمتنعوا عن قطفها».

قد يقرّر القارئ ما إذا لم يكن العرض غير الواعي للشّعور من قبل النزيلة الغامضة بمستشفى المجانين مصدر طمأنينة ذاتية لهؤلاء الرجال الثلاثة الذين يتمتّعون بسمعة عالمية.

إذن، أليس هذا شذوذً فظيعًا بخصوص المعاملة التي يتلقاها الأشخاص المرضى عقليا في كثير من الأحيان؟ أليست هي ذاتها المعاملة التي تحرم شخصا عاقلا من عقله؟ في بعض الأحيان يصبح عمال المناجم والرعاة الذين يخترقون ثبات الجبال غير متوازنين عقليا نتيجة للوحدة المطولة، لكنهم يعرفون عادة ما يكفي ليجعلهم يعودون إلى الحاضر عندما يجدون أنفسهم قد بدؤوا يتأثرون بالهلوسة.

التأخير يعني الموت. أما التواصل مع أشخاص عاقلين، إذا لم يؤجل طويلا، يعني استعادة شبه فورية للحياة الطبيعية. هذه حقيقة واضحة. وبما أن المرضى لا يمكنهم عادة أن يكونوا أحرارًا ليستوعبوا الأمر، كما هو الحال في الصحة العقلية في المجتمع، فواجب أولئك الموكلين برعايتهم أن يعاملوهم بأقصى درجات الرقة والاعتبار.

«مهما يكن الأمر» قال طبيب نفسي كرس حياةً طويلة للعمل بين المرضى العقليين، بصفته طبيبا مساعدا أو بعد ذلك مديرًا في العديد من المستشفيات الخاصة والعامة «فكل ما يحتاجه المريض العقلي هو "صديق"»!

هذه الكلمات، الّتي تحدث بها معي، جاءت في نغمة مذهلة. ومع ذلك كانت القوة السّامية والمشفية من الحبّ التي زودت بمعظم مظاهر الإشارة منذ ألفي عام على يد أحد الذين استعادوا عقلهم ومنزله، رجل الكتاب المقدس الذي كان مسكنه بين القبور، حيثُ لا يمكن لأحد أن يقيده بالسلاسل: «لأنّه كان في كثير من الأحيان مقيدا بأغلال وسلاسل، ثم نزع السلاسل عن نفسه، وكسر الأغلال، ولم يكن يمكنُ لأيّ رجل ترويضه. وكان في الجبال دائما ليل نهار، ويبكي

في القبور، ويجرح نفسه بالأحجار. لكن عندما رأى يسوع من بعيد، ركض إليه، وسجد إليه، وصرخ بأعلى صوت، وقال: ماذا عليّ أن أفعل معك، يا يسوع، أأنت ابن الرب العليّ؟ أستحلفك بالله، أن لا تعذّبني».



Clifford Whittingham Beers

عندما كان كليفورد وتنجان بيرز في الرّابعة والعشرين من عمرهِ، تمّ الزّجُ به في مستشفى للأمراض العقليّة وأمضى هناك سنواته الثلاث مصارعا مرضهُ العقلي. في سيرتهِ الرّوائية "العقلُ الذي وجد نفسهُ" ينقلُ كليفورد صدى الحروب الكثيرة التي كانت رحاها تدور في عقلهِ وانتهت بمحاولات كثيرة فاشلة في الانتحار وتجارب ناجحة في تذوّق مرارة اليأس والألم والسير في حياة بلا هدف أو غاية. أطلق هذا الكتاب صرخة فزعٍ مع صدورهِ سنة 1904 وفتح النّافذة لطرحِ أسئلة كثيرة تتعلّق بالصّحة العقلية للإنسان. انتهت تجربة كليفورد بتأسيس حركة الصّحة النّفسية في أمريكا لاقت ترحيبًا كبيرًا من أكبر علماء النّفس رواجًا في الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الفترة. ولكن رغم ذلك، لم تنجح رؤى كليفورد في تخليص عقلهِ من نيرانِ حروبهِ التي كان يخوضها مع ذاتهِ فانتهى بهِ الأمر نزيلا مرّة أخرى في مستشفى الأمراض العقليّة في رود آيلاند سنة 1943 ليموت هناك ويترك أسئلة كثيرة. كتابٌ وفيٌّ لصاحبهِ، لأنّهُ كتب بجنونِ كاتبه لا بيقظتهِ فجعل من اليأس مدخلا للكتابة ومن الأمل نافذة للقراءة ومن العقل قاتلا محترفا يعرفُ جيّدا كيف يقودُ ضحاياه... تماما مثلما قاد كليفورد وتنجان إلى كتابة هذا الكتاب ليكون ضحيّتهُ الأوّل...

النّاشر


ISBN 978-603-03-0333-5
9 786030 303335